

عرب الأهوار

تأليف

ويلفرد ثيسكر

ترجمة الدكتور

أحمد ضياء الدين الحيدري



عرب الأهوار

عرب الأهوار

تأليف

ويلفرد ثيسكر

ترجمة

الدكتور أحمد ضياء الدين الحيدري

2012

- **عرب الأهوار**
- **ويلفرد ثيسكر ، ترجمة الدكتور أحمد ضياء الدين الحيدري**

2012

منشورات:



جمهورية العراق

بغداد - شارع السعدون

تلفاكس: 0096418170792

خلوي: 009647705855603

E-mail: dardjlah@ yahoo.com

www.dardjlah.com

الآراء الموجودة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الناشرة

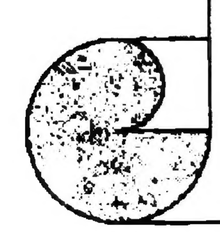
الاهداء

إلى امي

التي أدين لها بالكثير لعطفها

وتشجيعها

ولفريد ثيسيجر



فهرس

الشخصيات الرئيسية

مجيد الخليفة	شيخ البو محمد في نهر المجر
فالح أبن مجيد	أبن مجيد ويعيش في الوادية
عبد الواحد	ابن فالح
خلف	اخ فالح
محمد الخليفة	اخ مجيد- يعيش في المجر
عباس	ابن محمد الخليفة
حمود الخليفة	اخ مجيد – يعيش في المجر
حطاب	ابن حمود الخليفة، يعيش في الوادية
داير	سائق زورق. من اتباع فالح
عبدالرضا	صانع قهوة- يعمل عند فالح
صدام بن هلال	ممثل مجيد في قرية كباب
صحين	كليط الفريجات- ويعيش في بومجيفات
جاسم الفارس	شيخ الفرطوس في العويدية
فالح	إبن جاسم
داود	ابن أخ جاسم
هاشم	والد داود- قضى عشر سنوات في سجن العمارة عن جريمة قتل

مزيد	شيخ عشيرة العيسى
عبدالله	عم مزيد وممثله في قرية الصيكل
طاهر	ابن عبدالله
عمارة	أحد رفاقي وسائقي زورقي- يعيش في قرية الرفيعة
سبيتي	أحد رفاقي وسائقي زورقي- يعيش في قرية الرفيعة
ياسين	أحد رفاقي وسائقي زورقي- يعيش في بومجيفات
حسن	أحد رفاقي وسائقي زورقي- يعيش في بومجيفات
ثكب	والد عمارة
ناكه	ام عمارة
رشك	اخ عمارة- يزرع الرز
جليب	اخ عمارة- يعتني بالجاموس
حسن	اخ عمارة- ذهب الى المدرسة
راضي	اخ عمارة- طفل صغير
مطاره	اخت عمارة
لازم	والد سبيتي
بداي	نسيب عمارة- من الفريجات
رضيوي	من الفريجات- بعلاقة سيئة مع بداي
حسن	ابن رضيوي- بعلاقة سيئة مع بداي
خلف	ابن رضيوي- قتله بداي

ماطور	زورق صغير لرجل واحد يستعمل عند الصيد البري
مضيف	بناء ضخم من القصب والحصران بشكل برميل معقود، يستعمل كدار ضيافة
مدير	موظف حكومي يدير الناحية وهي أصغر وحدة ادارية من اللواء
معدان	رجال الأهوار، يعيشون في الهور ويربون الجاموس
مطال	اقراص من روث البقر والجاموس تجفف وتستعمل كوقود
قصب	النبات الرئيسي في الأهوار الدائمة والموسمية وقد يصل طوله الى 20 قدم
فالة	آلة صيد بالطعن، تتكون من قضيب طوله 10 أقدام ينتهي بشوكة حديدية ذات 5 أنصال
فصل	التعويض عن الثأر بالتراضي
فجرية	احدى النساء الاخريات اللاتي يقدمن تعويضاً عن الثأر
عرق	كحول مقطر عراقي
عطوه	هدنة مؤقتة يتفق عليها الطرفان عند الثأر الدموي

مقدمــة

عشت في أهوار جنوب العراق من نهاية 1951 حتى حزيران 1958 لفترات قد تطول أحياناً لسبعة أشهر. وكان عام 1957 هو العام الوحيد الذي لم أكن فيه هناك. ورغم أنني كنت أتنقل باستمرار، إلا ان كتابي بالحقيقة ليس كتاب رحلات، فالمنطقة التي كنت أتنقل فيها محدودة المساحة، ولا أزعم أنها دراسة مستفيضة لرجال الهور الذين عشت معهم، فأنا لست بعالم أجناس البشر ولا أخصائي من أي نوع. ولقد قضيت تلك الاعوام في الأهوار لمجرد إستمتاعي لأن أكون هناك. وخلال ذلك الوقت، عشت بين رجال الأهوار كواحد منهم. ومن المحتوم خلال هذه السنين أن أصبح لدرجة ما معتاداً على طرق حياتهم. ومن خلال ماعلق بذاكرتي وبعض ما دونته من مذكرات يومية، حاولت أن أعطي صورة عن الأهوار والبشر الذين يعيشون فيها. ان الاضطرابات السياسية الاخيرة في العراق* أدت الى غلق المنطقة أمام الزوار الأجانب. ويحتمل قريباً ان تجف الأهوار، وإذا ما حدث ذلك فأن نمطاً من الحياة كان لآلاف السنين، سيختفي. إن الأهوار تغطي حوالي ستة آلاف ميل مربع في المنطقة حول مدينة القورنة حيث يلتقي الفرات ودجلة شمال البصرة ليكونا شط العرب. وهي تتكون من هور دائمي، القصب (Phragmites communis) هو النبات الطاغي وجوده فيه، وأهوار وقتية تغطي أكثرها الأعشاب المائية (Typha augustata) وهي تجف في الخريف والشتاء. إن هذه الأهوار المؤقتة تتغمر فقط أثناء الفيضان، وينمو بعدئذ نبات البردي (Scirpus brachyceraas). ومنطقة الأهوار تتقسم الى الأهوار الشرقية، شرق نهر دجلة، والأهوار الوسطى، غرب دجلة وشمال الفرات، والأهوار الجنوبية، جنوب الفرات وغرب شط العرب. وهناك أيضاً بعض الأهوار الدائمة فيما وراء الشطرة على شط الغراف، وهو نهر يتفرع من دجلة عند الكوت ويجري جنوب شرق بإتجاه الناصرية، وهناك بعض الأهوار الموسمية في السهول شمال شرق العمارة حيث فيضانات نهري

---

* صدر الكتاب في طبعته الاولى عام 1964- المترجم

الطيب والدراجي التي تجري نازلة من مرتفعات فارس، ثم تتشتت. ويوجد هور موسمي صغير في منطقة البودراج خمسة عشر ميلاً شمال العمارة غرب دجلة. وعند الفيضانات الكبرى، تتكون مجاري وسط اليابسة تربط الأهوار ببعضها يغطيها الماء، تختلف سنوياً بحجمها، ولكنها قد تمتد الى مساحات لمائة او مائتين من الاميال، من البصرة وحتى الكوت. وما إن يقل الفيضان حتى تتحول هذه الارض الى صحارى.

في الربيع يؤدي ذوبان الثلوج في جبال فارس وتركيا الى فيضان دجلة والفرات. والأهوار هي حصيلة قرون من إرتفاع منسوب المياه وتشتت هذين النهرين. وتسحب الأهوار الشرقية والوسطى مياهها من دجلة. وثمانون في المائة من التصريف عبر بغداد تتبدد فيهما. والفرات نفسه يتشتت جنوب الناصرية من خلال قنوات متعددة، ومياهه المبعثرة تصب بالتدريج في هور السناف، وبعد ذلك بشط العرب جنوب كرمة علي شمال البصرة ببضعة أميال. والمجرى القديم مابين سوق الشيوخ والقرنة لازال يُعرف بالفرات، أما في الواقع فأن مياهه ترشحت من الضفة اليمنى لدجلة. وحتى فترة قريبة كان يعتقد ان دجلة والفرات يصبان في الخليج الفارسي منفصلين، وان تكون طبقات الغرين قد دفعا خط الساحل جنوباً شيئاً فشيئاً. لكن النظرية الحديثة التي قدمها لأول مرة الدكتور ج.م. ليز و ن.ل. فالكون في 1952 تقول ان نقل الغرين المتجمع يسبب ترسب متطابق لسطح الأرض، وعليه فإن خط الساحل بقي لدرجة كبيرة دون تغيير منذ عهد التوراة. وفي نهر دجلة يصل الفيضان السنوي أعلى إرتفاعه في مايس، أما في الفرات فبعده بشهر. ومنذ حزيران وما بعده يبدأ المنسوب في النهر بالنزول حتى يصل أدنى مستواه في أيلول وتشرين الاول، حيث يأخذ في تشرين الثاني بأرتفاع بسيط يستمر طوال الشتاء، وقد يحدث فجأه فيضان قصير خلال الشتاء والربيع.

الأهوار الوسطى هي المنطقة التي أعرفها جيداً، ربما لأنني بدأت هناك، حتى أنني في الحقيقة أعتبرها بيتي. وخلال سنوات زرت بالتأكيد كل محل إستيطان تقريبا، مهما كان صغيراً، وأكثرها زرته لمرات ومرات. وعندما حزت على زورق

خفيف، كان سائقوه من هناك وقد تقبلوني وأتباعهم رجال القبائل، وبقوا معي طوال الوقت، وقراهم كانت القواعد التي أعود إليها بعد تجوالاتي.

لقد تجولت تقريباً بصورة واسعة في الأهوار الشرقية ولكن دون أن أعرف الناس بشكل جيد، وبقيت غريباً رغم الترحيب بالمساعدة الطبية التي كنت أستطيع تقديمها لهم. أما في الأهوار الجنوبية فبصورة أقل.

أنا أدين بالشكر الجزيل لجون فيرني لكل المساعدة والنصيحة التي قدمها لي في هذا الكتاب خلال الأشهر التي كنت معه في فلورنسا. لقد قرأ المسودات المتتالية بصبر متناهي وحسن الكثير منها. وأود ايضاً أن أشكر فال فرنشر بليك وجورج ويب للكثير من الأقتراحات ذات القيمة وفضلهم في قراءة البروفات وتصحيحها. دفعني كراهام واطسون لتأليف الكتاب، ومنحني الكثير من الشجاعة والنصح. وشكري أيضاً لـ ك.س. جوردان الذي رسم الخرائط، والى عزيمة جيمس سنكلير أوف وايتهول الذي كان بأستمرار يرعي عمليات طبع وتحميض صوري الفوتوغرافية والذي أنتج صور هذا الكتاب. والى كادر متحف التأريخ الطبيعي وللكثيرين الاخرين الذين ساعدوني بالمعلومات.

و.ث.

مقدمة المترجم

كنت أعمل طبيباً في البصرة بداية سبعينات القرن الماضي عندما تعرفت على السير (ولفريد ثيسيجر) من خلال كتبه عن رحلاته في أفريقيا، مولده، وإلى الجزيرة العربية وربعها الخالي وجبال أفغانستان وكردستان.

لقد استهواني كتابه عن سنواته السبع في أهوار العراق قبل ثورة 14 تموز، خصوصاً وأني خلالها كنت مع والدي الذي عمل إدارياً في أكثر الأقضية المحيطة بالأهوار جنوب العراق، كقلعة صالح، الشطرة والرفاعي، سوق الشيوخ، وكيلاً لمتصرف العمارة والمنتفك في خمسينيات ذلك القرن الحافل.

وعندما قرأت كتابه هذا، عادت بي ذكريات حياتي للماضي، وأخذت أستغل جل عطلاتي وإجازاتي لأزور الأهوار التي لا تبعد عن البصرة إلا بضع ساعات من السفر، وأقضي أياماً وليالي هناك، وأسأل من يتذكره فيها. وبعد تقاعدي وجدتها فرصة سمحت لأترجم كتابه حرفياً دون ترك شاردة أو واردة فيه، مع عدم التلاعب بمعنى أي جملة، حتى ولو كانت غير مرضية لي أو لغيري، وأكتفي بإيراد هوامش أسفل صفحاته.

وأخذت أستغل أوقات فراغي بعيادتي لهذا العمل ولقاء من يهمه لهذا الأمر وعرف الكثير من أصدقائي ومعارفي بالبصرة بمشروعي منذ عام 1997، خصوصاً من كانت له روابط قبلية بساكني الأهوار، وما أكثرهم بالبصرة، وتهافت العديد منهم لتقديم العون لتصحيح أسماء ومعلومات لم أفهمها من الكتاب. وكثير منهم كان قد التقاه وشاهده وتعرف إليه. كانوا يدعونه: الصاحب تيسكر، كان مدخل حديثي معهم الأهوار، ثم أفاجأ بعضهم مستفسراً عمن قام بختانه، فيجيب صاغراً: الانكليزي! كان يشاع أن لدى الانكليزي هذا معدات في زوقه تمكنه من الاتصال بمركز الحكومة حال تعرضه للخطر فتهرع لنجدته ومطاردة المعتدين، وهذا يفسر أعجوبة تنقله وحيداً صيفاً وشتاءً في أغوار تلك الأصقاع الخطرة، لسنوات.

كانت لمعلومات والدي، القائمقام حينها، الفائدة الكبرى لي في إعداد هوامش الكتاب، فقد التقاه مرات في قلعة صالح، وكان معلم الانكليزية الابتدائية المشهور: مهتمّ يساعده بالترجمة! وفي البصرة كان الحاج ستار الماجدي، رغم سنه الطاعن، على أهبة الاستعداد لزيارتي حال اتصالي به ليجيب عن أسئلتي، فقد ولد وترعرع في المجر الكبير وعلى ضفاف نهر العدل قبل نزوحه للبصرة مع آلاف غيره، وقد صحح وأضاف الكثير لترجمتي.

في الكتاب ترد سيرة لأحد سراكيل مجيد الخليفة، واسمه صدام. وقد ورد اسمه تارة مدحاً وتارة قدحاً شديداً، وعندما قدمت مسودة الكتاب لوزارة الاعلام في آب 2002 للموافقة على الطبع، نصحني البعض أن أرفع هذا الاسم فأبدلته باسم: صكبان! إلا أن ذلك لم ينفع، فقد رفض الكتاب، وأخبرتني المسؤولة بالوزارة أن السبب هو المساس ببعض المناحي التاريخية الإسلامية، رغم إعجاب الخبير الفني الذي عرض عليه وطلبه مني نسخة خاصة من المسودة.

وعبثاً حاولت إقناعها أن الآراء المذكورة خاصة بالمؤلف ولا يحق لي تغييرها مع وجود هوامش تبدي آراء المترجم. وعندما استفسرت منها إن كان بالإمكان شطبها على الأقل، أجابت لا ينفع! لقد علمت أن السبب الحقيقي للرفض هو التوجيه الوزاري بعدم نشر مطبوعات عن الأهوار، فقد كانت سياسة الدولة حينها قد أجبرت ساكنيها على النزوح العام والبدء بتجفيفها. ثم احترقت المسودات ونسخ الكتاب الانكليزي وهي بالطابق الثاني بالوزارة مع ما احترق يوم 2003/4/9.

بعد السقوط، عدت لإعادة استنساخه بكل ما فيه من معلومات دون وجل هذه المرة. وكنت على وشك طبعه عندما تعرضت لمحاولة اغتيال بمنتصف عام 2004 مع من اغتيل أو تعرض لاغتيال من أطباء البصرة وأساتذتها وأعلامها – ونجاني الله جلت قدرته – من موت محقق حاملاً وساماً من رصاصتين استقرتا قرب رقبتي ولحد الآن. وكنت قد سلمت أحدهم الأقراص المرنة للكتاب لينقلها إلى أقراص مدمجة، ثم لم ألتقيه بعدها، إلا أنها ظلت في ذاكرة حاسوبي الخاص.

وفي صيف 2007، وبينما كنت أبحث عن كتاب: المائة الاوائل في شوارع عمان، وجدتني صدفة أجالس الشاب الدكتور صاحب الزبيدي في مكتب دار دجلة للنشر، حيث يديره، وخلال ساعة هادئة غير متوقعة، اقترح علي طبعه ونشره. فسارعت لإخبار أهلي بالبصرة لإرساله لبريدي الالكتروني حيث كان يقبع بشاشة الحاسوب، وسلمته إياه قرصاً مدمجاً.

وفقه الله لما أبداه ويبديه مني خير للمكتبة العراقية العربية لما وجدته من منشورات دجلة، وكلله بالنجاح دوماً.

د. أحمد ضياء الدين الحيدري

أوسلو



لمحة عن الأهوار

الفصل الاول

لمحة عن الأهوار

قطعنا طول اليوم، ونحن على صهوات الجياد، سهلاً منبسطاً، مختنقين بالغبار المتصاعد من تحت سنابكها. كانت الأمطار قد سقطت، كما يحدث عادة في هذا الفصل، والنباتات التي نمت للتو تلوح في فجوات التربة. لم تكن هناك شجيرة، حتى ولا صخرة لتكون لنا علامة لتقدير تقدمنا البطئ نحو الافق. كانت سروجنا العربية الطراز قاسية كألواح خشب، فالركاب المعلق بعيداً الى الخلف، قد اضطرنا للجلوس منحنين الى الامام على مفارقنا، ضاغطين على قوس السرج المتشامخ كسروج رعاة البقر. وفكرت: حقيقة أن السرج الامريكي ربما يكون قد انحدر من هذه، فلابد ان العرب ادخلوه الى اسبانيا، ونقله هؤلاء معهم الى العالم الجديد.

أبقينا الخيول بحالة المشي فقط، لأن رفيقي، دوكالد سيتوارت، نائب القنصل البريطاني في العمارة، لم يكن قد ركب فرساً من قبل، ورغم كونه في التاسعة والعشرين، إلا ان موهبته كانت واضحة لي، غير أنه لم يكن يطمح لأكثر من أن تكون سيرته المهنية تؤهله ليكون مرشحاً قنصلاً، اذ ينال مايريد من قنص الطيور البرية. وتبادلنا الذكريات عن " أيتون " كأي ايتونيين قدامى. عندما كان طالباً، وعلى الرغم من عرج في ساقه بعد عمليتين فاشلتين، فقد نال عدة شارات مدرسية، وانا الذي لدي ساقان سليمتان، لم أنل واحدة. خيمنا تلك الليلة بين عشيرة البزون، نياماً على الارض، في خيمة ضيوف الشيخ، بعد عشاء فاخر من رز وقطع لحم كبيره. وعدا كون الخيمة مدعمة بأحد عشر عموداً، وانها أكبر، فهي لاتختلف عما هو مصنوع من سقائف من شعر الماعز، منصوبة حولنا، وجميعها مفتوحة من جهة واحدة ومتواجهة بالشكل نفسه، ومربوط امام أكثرها حصان او حصانان. كانت أعداد من الخراف والماعز متراصة ككتلة واحدة حولنا. راقبتها

عند المغيب تساق من قبل الشباب الرعاة. وكل قطيع يتحرك بهالة ذهبية من الغبار المتصاعد. وطول الليل كان ثغاؤها يعقبه نباح الكلاب بين فترة وأخرى.

كنت في طريقي جنوباً من كردستان، عندما حاولت استعادة سلامة الذهن التي عرفتها في صحارى جنوب الجزيرة العربية، هناك حيث عشت مع البدو لخمس سنين، ورحلت معهم عشرة آلاف ميل قاطعاً بلاداً لم تكن قد شاهدت سيارة، حتى حدث زلزال التقدم الحديث مرافقاً للبحث عن الزيت.

في كردستان العراق، التي كنت راغباً دوماً في زيارتها، تجولت ممتطياً الجواد من بداية الأقليم حتى نهايته، بصحبة خادم كردي شاب فقط. كان مشهد المنطقة هو طبيعة برية رائعة. والاكراد الذين يعيشون هناك مازالوا يرتدون الزي القبلي الجميل، عمائم مشرئبة وسراويل فضفاضة وجاكيتات قصيرة وأحزمة عريضة من كل الألوان والأشكال، وخناجر ومسدسات معلقةٍ بالأحزمة، متقاطعة مع مشدات مزخرفة مثقلة بخراطيش العتاد. نمت في قرى على سفوح الجبال، حيث تكون السقوف المستوية لبعضها أرضية لاخرى أعلى منها. ونمت ايضاً في الخيم السود للريفيين على القمم الجرداء، حيث تنمو نباتات الجنشيان بين الحشائش، وحيث رياح الثلج تهب طول أشهر الصيف. تتبعت أنهاراً ملتوية خلال غابات البلوط حيث تقوم الدببة بنبش الحشائش الكثيفة. وتعقبت قطيعاً من الوعول يجري لمسافة ثلاثة الاف قدم من جدار صخري، بينما تحلق نسور ضخمة معلقة في السماء، والريح تتلاعب بريشها. لقد شاهدت عظمة الربيع الكردي، وجوانب الوادي مغطاة بشقائق النعمان وقرمز الجبال وأزهار التوليب. إلتهمت العنب الطري الحار من شدة الشمس، أو البارد من النسيم العليل. ولكن بعد مشاهدتي لكردستان العراق لم أعد أشعر برغبة للعودة، فالسفر كان محدداً جداً، كمطاردة ايل في هضبة محصورة، فعبر هذا المجرى من الماء كانت تركيا، وخلف تجمعات مياه الأمطار ومساقطها، تقع بلاد فارس ورجال شرطتهم مرتدين الملابس الرسمية ينتظرون في المعابر طالبين تأشيرات الدخول التي لا أحملها. كنت متأخراً خمسين عاماً، فقبل

نصف قرن كان بالأمكان الذهاب عبر راوندوز الى اروميا ثم فان، ولم يكن هناك من عائق غير قطاع الطرق والقبائل المتحارية.

بلا شك إن الأهوار التي أرتبط بها الان تغطي مساحة أصغر من كردستان العراق، ولكنها عالم كامل لوحده، وليس قطعة من العالم الأكبر الذي لا أدعي الوصول الى بقيته. إضافة الى ولعي بالعرب، فأنا لا أحب الأكراد ابداً. فعلى الرغم من الطبيعية التي أعجبت بها هناك، فأن الناس لم يكونوا كذلك. ومؤكداً فأن العائق الرئيسي لذلك هو عدم معرفتي لغتهم، وحتى لو حاولت فقد وجدت أنني لا أرتاح لهم. ولما كان للبشر عندي أكثر أهمية من المكان، فقد قررت العودة الى العرب.

في اليوم التالي، إعتلينا الاحصنة ثانية، وإتجهنا جنوباً نحو الأهوار، قاطعين السهل نفسه، وتوقفنا ظهراً عند بعض الخيام لتناول الطعام وتبديل الخيل. أبدل دوكالد حصانه بآخر حرون رمادي اللون. وعندما إعترضت بأن ذلك أكثر من قدرته، إعتقد الشيخ انني كنت اريده لنفسي، فقال أنه جلبه خصيصاً للقنصل. بعد قليل، وبأهمال منه، وخز دوكالد الحصان بكعب حذاءه، فأنطلق هذا فجأة. ولأنقاذ نفسه، أسقط الأعنة وأمسك بمقدمة السرج بكلتي يديه. بدأ مرافقونا المطاردة عدواً، ولكن ذلك لم يؤدي إلا الى إثارة الحصان أكثر. فصرخت بهم للتوقف. أما دوكالد فكان قد فقد كلا الركابين وبدا لي أنه لم يبق إلا القليل ليسقط. كانت الأرض صلبة، ولاح لي أن حادثاً مروعاً على وشك الوقوع، إلا أن الحصان توقف منهكاً بعد ميلين، ودوكالد مازال متشبثاً بالسرج. عندما وصلناه كان قد ترجل ناظراً لراحتي يديه الداميتين بفعل المسامير الفضية التي طعمت بها حافة السرج. ثم أعلن " الآن عليّ تكملة المشوار مشياً " ولم تقنعه إطلاقاً تاكيداتنا بأن خيولنا هادئة وان بأمكانه ان يركب أي منها.

كانت الشمس مازالت عالية، والفيضانات الاخيرة قد غطت الأرض التي أخذت تتشقق بعمق بعد أن جفت، وبينما كان الشيخ مستمراً باعتراضاته، كان

دوكالد يترنح بمشيته، وتوسل إلي " بالله أطلب منه أن يخرس ". غربت الشمس ولم يكن هناك أثر للأهوار، ولا للقرية التي نحن سائرون إليها.

في الظلام لاحت لنا أضواء تتحرك عن بعد. كانت عشيرة البزون قد أعلمت مزيد إبن حمدان، شيخ العيسى، بتوقع وصولنا، لذا فقد ارسل جماعةً للبحث عنا وقت الغسق. وهكذا توجهنا الى مخيمه على حافة الهور، كنا نشعر أكثر بوجود الماء خلف المخيم ونسمع أمواجه دون أن نراه.

جاء مزيد بنفسه للترحيب بنا. رجل قصير، منتصب القامة، ويعطي إنطباعاً بالوقار والسلطة من الوهلة الاولى. كانت خيمة الضيوف مضاءة بمصباح نفطي قوي، مليئة بالرجال المسلحين بالبنادق. نهضوا واقفين حال دخولنا، وأشار الينا مزيد لنجلس أمام الموقد. وبينما كنا نشرب القهوة والشاي سألنا الأسئلة المعتادة عن صحتنا ورحلتنا، والجميع يجلس بهدوء وإنتباه دون أن يفوه أحد بكلمة. لقد كنا حينها بحضور عرب الصحراء الذين يتصرفون دائماً بجدية أمام الملأ مظهرين جلالهم ووقارهم وكرامتهم. وأخيراً وبعد ساعات، تناولنا طعام العشاء بصحون كبيرة ملئت بأكوام من الرز واللحم. ولم تكن وجبة معقدة، فالعرب يهتمون بالكمية أكثر من النوعية. أكلنا أولاً مع رجال كبار في السن، وحالما إنتهينا جميعاً، إستدعى مزيد آخرين بأسمائهم ليحلوا في اماكننا أمام سفرة الطعام، أما هو، المضيّف، فقد ظل واقفاً حتى إنتهى الجميع من الأكل. كانوا يأكلون بمراحل، وعندما أنهى الاخيرون طعامهم، دعى الأطفال لدخول الخيمة من ظلام الخارج. لم يكن أصغرهم، العاري تماماً، قد جاوز ثلاث سنوات، وأكلوا ما تبقى من رز، وقضموا العظام التي ظلت من بقايا اللحم. ثم مسحت الصحون، وغرف مابقي فيها بأوعية جلبت معهم، ورميت العظام للكلاب المنتظرة في الخارج. وقام بعض الرجال بصنع القهوة في دلالها. وإنتحى مزيد جانباً من الخيمة وتناول طعامه البسيط، بينما كانت القهوة والشاي تداران علينا ثانية. فكرجل مضيّف، لم يكن من العرف أن يأكل مع الضيوف حتى ينتهي آخرهم من طعامه. وفي اليوم التالي رأيته يقف أمام خيمته ليتأكد من عدم بقاء شخص من دون أن يدخل لتناول

الطعام. كان يذبح خروفاً مرتين في اليوم لضيوفه الذين قد يصل عددهم مائه. ان قبائل الرعاة هذه مازالت متمسكة بأعرافها وتراعي الاخرين حسب المقاييس التي جلبوها معهم من وسط الصحراء العربية.

في السنوات التالية عاودت زيارة خيمة ضيوف الشيخ مزيد مرات، وزرت عدة مخيمات لقبيلته. وخلال أتعس أشهر الصيف، كنت أهرب من الأهوار، بتأجير الخيول والتوجه الى قبائل الرعي، وتعرفت على أكثرها- بني لام- البزون – العيسى- البو صالح وآخرين. وبعضهم قد يعبر الحدود في الربيع متجهاً الى بلاد فارس، حيث يكون الحشيش لامعاً على الارض مع شقائق النعمان، ويتحرك آخرون الى داخل السعودية أو ضواحي الكويت وقت الشتاء. الرجال والصبيان يرعون الخراف والماعز، بينما تقوم النسوة مرتديات الألبسة السود المشدودة بحبال حولهن، بسوق الحمير المحملة بالخيم والأعمدة والافرشه والبسط واقفاص خشبية صغيرة ومواقد وصحون. وكثيراً ما أراهم يتحركون في سراب الافق في السهل المنبسط الواسع الخالي، كأنه سطح البحر.

بعد وجبة الطعام، قادنا مزيد الى حجرة قريبة مبنية بالكامل من القصب والحصران، وبسطت بأفرشة لننام عليها، بعزلة لم نتوقعها انا ودوكالد، حمدناها له. طول الليل كانت الريح والمطر البارد يضربان ستارة الباب، وكنت أسمع، وأنا نائم، إرتطام أمواج بحر على ساحل.

عندما لاح الفجر، شاهدت عن بعد وعلى سطح المياه البعيد، ظلال شبح أرض بعيدة، تبدو دكناء وخلفها أشعة الشمس. فكرت برهة: أكنت أمام مشهد " الحفيظ "، الجزيرة الخرافية التي لا تترك عقلاً عند كل من يراها؟ لكنني تحققت بعدئذ أنني كنت أشاهد حقل قصب كبير. قرب قدمي وعلى ساحل الماء كان زورق القتال العائد للشيخ، نحيفاً أسوداً ذا مقدمه مرتفعة، منتظراً ليأخذني للاهوار. قبل إنشاء أول الأماكن في أور، كان الرجال قد خرجوا الى فجر التأريخ من بيوت كهذه، ونزلوا للماء بزوارق كهذه، وبدأوا الصيد. وكان " وولي " قد نقب في دورهم فوجد بقايا زوارقهم بالعمق في رفا ت سومر المقدسة، أعمق في

التاريخ حتى من وقوع الطوفان. هنا كانت خمسة الآف عام من التأريخ، ونمط الحياة واحد لم يتغير.

ذكريات زيارتي الاولى للأهوار لم تتركني أبداً بعد ذلك. ضوء نار موقده تسقط على صفحة وجه منحني .. صياح الوز.. قتال البط من أجل الغذاء .. صوت غناء من مكان ما من الظلام .. زوارق خفيفة تتحرك نازلة في مجرى الماء .. شمس غارية تشع بلون قرمزي من خلال دخان حقول القصب المشتعلة .. ممرات المياه الضيقة وهي تغور نحو عمق الأهوار .. رجل عاري في زورقه الأسود بيده حرية ذات رؤوس .. بيوت من قصب مبنية على الضفاف .. جواميس سود غاطسة في المياه، تبدو وكأنها قد توالدت فيه مع ظهور أول أرض يابسة.. نجوم ينعكس نورها على سطح الماء الأدكن .. نقيق ضفادع يتعالى .. زوارق تعود في المساء لبيوتها .. سلام وديمومة.. سكون الطبيعة التي لم تعرف الماكنة بعد. ومرة أخرى قاسيت من الرغبة في المشاركة بهذه الحياة، اكثر من أن أكون مشاهداً لها.



العودة لحافة الأهوار

الفصل الثاني

العــودة لحافــة الأهوار

بعد ستة أشهر كنت أتنقل في فرع من دجلة نازلاً نحو الأهوار بزورق مطلي بالقير ينضح ماءً، و يجذف فيه إثنان من العرب أحدهما رجل نحيف طاعن، يرتدي رداءاً رثاً مبهم اللون، لا يصل لساقيه، والثاني شاب ممتلئ في الخامسة عشر، أحول العينين، يرتدي بقايا سترة أوربية الطراز فوق رداء أبيض جديد مربوط بحزامه ليمنعه من التدلي أرضاً. ويضع الأثنان غطاء رأس من النوع القديم الذي يستعمله رجال القبائل الشيعية في جنوب العراق، وهو قطعة قماش مربعة بضلع ثلاثة أقدام بيضاء مخططة كشبكة سوداء، ولا يضعون فوقها عقلاً و إنما تلف هذه القطعة كمثلث فوق الرأس. كان الرجل يجلس في مؤخرة الزورق، بينما جلست أنا في قمره عند قدميه عاقداً ساقي على حصيرة، وأمتعتي أمامي وتتكون من صندوقين معدنين سوداوين في أحدهما أدوية وفي الثاني كتب وأفلام وخراطيش عتاد وبعض الأدوات البسيطة. وفوق الصناديق حقيبة سرج كردية تتموج بشتى الألوان ومليئة بالبطانيات والألبسة الأحتياطية وعليها كانت تستند بندقيتي الركبي 275 . بغطاءها الجنفاص ومسدسي. كان عرض النهر ثلاثين ياردة، سريع الجريان، ويبدو واضحاً أنه عميق. كانت أطراف أصابعي في الماء وأنا ممسك بحافة الزورق. هبت ريح جعلت أمواج الماء الصغيرة تتعالى، فتطاير رشاش الماء علي وعلى عفشي. جلست ساكناً ومقتنعاً أن أقل حركة قد تؤدي الى إنقلابنا. ومع ذلك إستمر الاعرابيان يتناوبان التجذيف بلا إهتمام وبدون أن تتأثر موازين الزورق.

توقف الصبي عن التجذيف ومال الى جانبه ليقي إشعال سيكارة له، أما الآخر فقد نهض واقفاً ليبحث عن صديق له يعمل في الحقل. ومن قمر الزورق حيث أجلس، لم أكن ارى غير الضفاف المرتفعة لثلاثة أو أربعةِ أقدام. وكانت هذه الضفاف تتقطع بين مسافة وأخرى بفتحات قنوات الري ذات السمات المختلفة

لتصريف المياه من المجرى الرئيس. وتكللت هذه الضفاف بنباتات شوكية لارتفاع قدمين أو ثلاثة بألوان زرقاء بخضرة ترابية. كانت السلاحف الصغيرة تنزلق على الضفاف الى الماء البني المعتم. بعضها مسطح الشكل بقحوف درعيه ملساء وبحجم قدمين، تتمايل وهي تتحرك، وأخرى أصغر تشبه السلاحف التقليدية، وكان طير صياد السمك المرقع ينقض سريعاً أو يضل معلقاً في الهواء بجناحيه المرفرفين سريعاً، قبل الانقضاض. وطيور حدأه تحوم حولنا وأسراب الغربان ترتفع بضوضاء. ومن الحقول خلف الضفاف، تراءى ضباب مترب، وكل شئ كان بلون الأرض الرمادي الأسمر.

مررنا بأكواخ سكن من القصب رمادية اللون كأكوام متحلله، ونساء ترتدي الملابس الداكنة، يغسلن الصحون على الجرف وأسطول من الزوارق الخفيفة السود مصطفة على الشاطئ الطيني. خرج رجل من أحد الأكواخ وحياه رفيقي العجوز " السلام عليكم " فأجابه " وعليكم السلام " وأضاف " فلحوا " وتعني عندهم تفضلوا لتناول الزاد، فأجبناه " كفو. الله يحفضك ". كان نصف دزينه من الكلاب تركض على طول الشاطئ بجانبنا، تعوي وتزمجر بهستيرية حتى تقف أمام خندق لا قدره لها على عبوره.

تركت العمارة ذلك الصباح من الأسبوع الاول من شباط 1951 وقد إكتريت زورقاً من المجر الكبير ليأخذنني خمسة أميال مع مجرى الماء الى بيت فالح بن مجيد على حافة الأهوار. أبوه مجيد الخليفه هو أحد الشيخين الكبيرين لعشيرة ألبو محمد الضخمة التي عندها خمسة وعشرون ألف رجل مقاتل. كنت آمل أن أقضي بضعة أشهر في الأهوار، وكان دوكالد ستيورات قد قال لي بأن فالح هو أحسن من يساعدني في هذا الامر.

جثمت بصوره غير مريحة في قعر الزورق، وعند كل إستدارة كنت أتطلع آملاً ان أجد مرأى للأهوار، ولكن النهر البني كان يجري بسطح أملس الى ما لانهاية.

بعد إستدارة أخرى تفرع النهر، وإذا بصفٍ من بيوت قصبية جيدة البناء تجابه المجرى الرئيس، وعلى الأرض اليابسة هناك بيت من طابق واحد مبنيٌ بالآجر وذو سطح مستوي وكأنه قلعة. ولكن ما أعجبت به أكثر هو بناء معقود كبرميل يرقد على جانبه، مسقف بحصران عسلية اللون، وفي كل جانب منه أربعة أعمدة تتقاطع مع سقفه. وكانت هذه البناية تقع على نتوء من الأرض بين المجريين. قال زميلي الكبير " مضيف الشيخ فالح ".

كان يقف بالباب شاب دخل فجأة وسرعان ما خرج بضعة رجال وقفوا ينتظرون نزوله. " الشيخ فالح " قالها الرجل الطاعن مشيراً بيده نحو شخص بدت عليه هيبة المقام، يرتدي عباءة بنية اللون فوق معطف من قماش ثقيل داكن.

قفز مرافقي الصبي بمهارة الى الشاطئ حالما لمس أنف الزورق الجرف، وظل ماسكاً الزورق حتى جانب الشاطئ ثم خطا مرافقي العجوز خارج الزورق وذهب مباشرة الى فالح وأنحنى ليقبل يده قائلاً " رجل انكليزي من العمارة يامحفوظ " نظر فالح إلي من مكانه وقال " مرحباً "

كان له وجه رجولي ذو قسمات تشع فيها القوة، حليقاً إلا من شاربين حددا بوضوح، مع حاجبين كثيفين تلتقيان فوق أنف ضخم. كان وجهه مؤطراً بطيات غطاء الرأس التقليدي الأسود والأبيض. عندما نهضت تمايل الزورق لحظة وعبر الماء الحافات العليا له فقال فالح " إنتظر لحظة " ثم للرجلين " هيا... إستعجلوا، ساعدوه " ثم مد لي يداً قوية ليسحبني الى الجرف العالي مكرراً " مرحباً بك! " ثم إلتفت الى رجل بجانبه وأمره " تأكد من جلب كافة حاجات الانجليزي الى المضيف " ثم قادني الى باب البناية وهو يقول " تفضل أدخل، وإعتبر نفسك في بيتك ".

تحررت من أحذيتي ودخلت بين أعمدة المضيف التي بطول ثمانية أقدام لكل منها ومصنوعة من حزم من القصب العملاق مقشور الساق وربطت مع بعضها بقوة بحيث صار سطح الحزمة ناعماً أملساً. كانت الرائحة في القاعة حريفة، والدخان يملأ جوها والضوء معتم بعد ضوء الشمس الساطع في الخارج. وملامح ظلال تقف عند الجدران. قلت " السلام عليكم " فأجاب الجميع " وعليكم السلام " ثم جلست

على بسط منتشرة على الحصران وجلس الآخرون متكئين على الجدارن، ومن كانت لديه بندقية وضعها أمامه. ورأيت زوجاً من البسط القديمة جميلة الشكل بألوان ذهبية وزرقاء في عمق القاعة، بعيدة عن مكان الشرف الذي كان إمتيازاً لنا نجلس فيه على بسط حديثة الصنع. على الحائط في الطرف البعيد قفص خشبي، وعند المدخل إبريق كبير من الفخار مملؤ بالماء ومثبت بإطار خشبي. لم يكن هناك أثاث آخر. أما الموقد فقد كان في ثلث طول القاعة ووسطها، وجنب النار بضعة دلال للقهوة مختلفة الأحجام، وكبيرها بأرتفاع قدمين تقريباً. ووفق العادة العربية فأن ما تخمر في قاع الدلال يفرغ هنا والسائل الغامق يستعمل لملء الدلال الأخرى. والقهوة الطازجة التي قد تخمرت في أصغر دله تكون دائماً مهيأة عند وصول أي زائر مهم الشأن. كان هناك رجل كبير يرتدي رداءً أبيضاً، وهو الوحيد الذي لا يضع على رأسه غطاء، عداي، مشغولاً بصنع القهوة وفق طقوسها. فمتى ماتحمصت حبوب البن يأخذ بطحنها في هاون نحاسي صغير بضربات إيقاعية. وهذا الصوت هو إعلان بأن هناك قهوة تحت الصنع في مضيف الشيخ، ودعوة لكل من يسمعها أن يشاطرهم شربها. بعدئذ قام هذا الرجل وهو يحمل دله بيده اليسرى وفي اليمنى فنجانين صينيين صغيرين أكبر قليلاً من أكواب البيض المسلوق. صب بضع قطرات من القهوة في الفنجان العلوي وقدمه الى فالح الذي أشار نحوي أن يقدم الي أولاً، ولكني رفضت، فألح. وبينما كنت أشرب كان فالح يشرب من الفنجان الثاني. القهوة كانت ذات طعم قوي مر. ولمعرفتي بعادة العرب، فقد قبلت شرب ثلاثة فناجين قبل أن أهز الأخير بخفة لأعلمه بكفايتي. بعد ذلك أخذ عامل القهوة يتحرك ببطئ حول الغرفة ليقدمها للآخرين حسب أهميتهم. أما انا وفالح وسائقي زورقي، فقد قدم لنا الشاي أيضاً، اسوداً حلو المذاق في أقداح صغيرة وضيقة الوسط، وبحافات مذهبة. ثم دخل إبن فالح ذو الستة عشر عاماً. كان لديه أنف أبيه الضخم ولكنه أضيق منه ووجه أنحف. قدمه أبوه لي قائلاً " خادمكم " ثم طلب إليه إعداد الطعام قائلاً لي:

- " أنا خجل لأنني لم أهئ الطعام اللائق بكم، فقد وصلت دون إعلامي، سامحني ولكني مطمأن بأنك ستأكل ما هو مهيأ الآن بدلاً من الأنتظار لحين ذبح خروف. فأنت الان جائع بعد سفرتك الطويلة "

عند العرب يجب أن لا تتخلل فترات صمت طويلة بين الضيف ومضيّفه، لذلك ظل فالح يسألني مرتين وثلاث " كيف حالك ؟ " واظل أجيب " الحمدلله " وسألني ايضاً ولأكثر من مرة " هل كانت سفرتك جيدة ؟ " فأجيب " نعم والحمدلله " وغير ذلك لا أحد في المضيف تكلم. وبعد برهة أشغل نفسه بمهام الصباح اليومية، فأن هذه المضايف هي أكثر من دور ضيافة بكونها قاعة مقابلات، يجلس عندها الشيوخ صباحاً ومساءً ليمارسوا تمشية أمور منزلتهم وملكيتهم وحل المنازعات بين رجال قبيلتهم.

لدى بعض الشيوخ، كمجيد الخليفة، والد فالح، ملكيات ضخمة ينالون منها مئات الألوف من الجنيهات كل سنة. وحالما تخصص الأرض الى العشيرة، حتى يحكم فيها الشيخ مادامت عشيرته تتبعه، ولكن في السنين الأخيرة، إكتسب الشيخ فعلياً إمتلاك الأرض. وعند العشائر التي إستوطنت بعد أن كانت مرتحلة، أصبح الشيوخ هم أصحاب الأرض، وتقلص دور رجال العشيرة الى مجرد عمال يزرعون في الحقول، لهم حصة قليلة من المحاصيل بدون اي ضمان أو أمل في تملكها مستقبلاً. ونظرياً فأن كل الأرض في مقاطعة العمارة تعود للدولة التي تؤجرها للشيوخ، وهؤلاء بدورهم يدفعون لها الضرائب معتبرين الأرض ملكهم، وما داموا في جبروتهم، لا أحد يسألهم عن حق التملك.

ورغم أنه لم يعد من المفروض أن لدى الشيوخ قوة قانونية، فأن قلة من القضايا بين رجال العشائر (عدا جرائم القتل، وليس دائماً) تجد طريقها الى محاكم الدولة. ورجال العشيرة يفضلون الشيوخ الذين يعرفونهم على قضاء الرجال الرسميين الذين لا يعرفونهم، وعلى كل حال فان الدولة قنعت بتركهم لوحدهم.

كان فالح يعالج قضايا عديدة، فقد أعطى أمراً بتقوية سداد قبل إرتفاع المياه، وناقش حصة أرض من حصاد الرز القادم، وحذر رجلاً بدفع ما عليه من

محصول لم يبت به بعد. ورغم أني كنت أجد صعوبة في متابعة اللهجة المحلية، إلا أنني كنت أتفحص الوجوه المقابلة لي، وألاحظ الفرق بين ملامحهم الواسعة والثقيلة وتلك التي لبدو الصحراء العربية. وكان من الصعب تكوين فكرة عنهم في مثل هذه الضروف. كل رجل كان يجلس هادئاً، ملتفعاً بعباءته، وعلى رأسه الكوفية متوجةً بالحبل الاسود السميك* السائد في تلك الأنحاء. أعجبت بهم لسماحتهم وكونهم لطفاء المعشر مستعدين لتعلم أي شئ، ولكني إفترضت أنهم قد يكونوا عنودين سريعي الغضب حالما يثارون.

المضيف، الذي قسته بعدئذ، كان ستين قدماً طولاً وعشرين عرضاً وثمانية عشر إرتفاعاً. إلا أنه يعطي إنطباعاً بحجم أكبر بكثير، خصوصاً عندما دخلناه لاول مرة. هناك أحد عشر قوساً كبيراً على شكل حدوة حصان، تحمل السقف. وهي، كأعمدة المدخل، مصنوعة من سيقان قصب عملاقة مربوطة بقوة بعضها ببعض لتشكيل حزمة محيطها تسعة أقدام عند بروزها من الأرض، وقدمين ونصف في أعلاها. إكتشفت ان هذا النوع من القصب ينمو لطول عشرين قدم. ولتكملة هيكل المضيف تصنع حزم أخرى من القصب أيضاً توحد لتشكل حبلاً ذو سمك بوصتين، وتربط الواحدة فوق الاخرى على طول البناء خارج الأقواس. وهذا التغاير بين هذا التضليع الأفقي وشكل الأقواس العمودي يلفت النظر من الداخل. يغطى السقف بحصران من القصب كتلك التي على الأرض، وتخاط إلى الأضلاع بطريقة لتأمين أربعة أضعاف السمك. أما جدران القاعة فذات لون ذهبي فاقع، ولكنه أسود من الدخان، فصار كستنائياً كما لو قد صقل.

وبأشراف من ابن فالح، ظهر عدة خدم فرشوا أمامنا حصيرة دائرية الشكل قطرها خمسة أقدام، مصنوعة من البردي، عليها وضعوا صينية دائرية كبيرة فوقها كوم من الرز المطبوخ وحولها صحون أصفر ملئت بيخنة خضروات، وثلاث دجاجات مقلية، وسمك مشوي وتمر، إضافة الى صحون من الكسترد وطاسات من

* يقصد العقال العربي الاسود- المترجم

اللبن وقارورة كبيرة مليئة بالشربت. كان أكثر الناس قد تركوا المضيف، وكنت أتوقع بقاءهم، لان قبائل العرب تحتشد عادة عند وجود وليمة، ولكني عرفت بعدئذٍ أن في تلك الأصقاع يترك شيوخ العشائر فقط خيام الضيافة مفتوحة، اما عند الآخرين، فعدا في بعض المناسبات، يترك الأمر للمريدين والأتباع ولا يستضيفون إلا المسافرين من مسافات بعيدة. ولذا فلم يبق إلا ثلاثة رجال طاعنين، إضافة إلي وسائقي زورقي.

أكل فالح وأبنه معنا، وقبل ذلك جلب أحد الخدم إبريقاً وحوضاً معدنياً دائري الشكل حيث غسلنا أيدينا قبل الأكل، ثم قال فالح " تفضل. إعتبر نفسك في بيتك " وأنحنى أماماً وسكب محتويات أحد الصحون على الرز، ثم قطع دجاجة بيده ووضع قطعة كبيرة منها في صحن كان قد وضع مع ملعقة وشوكة أمامي. ولما كان الآخرون يأكلون مباشرة من الصحن بأيديهم، فقد فعلت مثلهم، إلا أن فالحاً قال مباشرة " أستعمل الملعقة والشوكة، فهو أسهل لك " إلا أني قلت له بأنني أستعمل يدي للأكل منذ سنين وتعودت على تلك الطريقة. حينئذٍ قال " اذاً فأنت واحد منا " وعندما إنتهينا غسلنا ثانية وقدمت لنا القهوة والشاي.

لاحظت ان فالح يرقب بندقيتي، فمررتها إليه وسألته عن رأيه بها، فرجال القبائل يهتمون بالأسلحة النارية. مر بأصبعه على ميزانيتها، وصوب بها بعينه وهتف " هذه بندقية جيدة " وفي الحقيقة كانت كذلك، والعرب فضوليون لمعرفة ثمنها.

في الأخير جاء السؤال، وكما كنت آمل، عن خططي فأخبرته أنني أرغب في الذهاب الى الأهوار لألتقي المعدان. قال فالح " هذا سهل، سأرسلك الى كباب، فهي قرية كبيرة في قلب الأهوار حيث يوجد القصب الذي منه هذا المضيف. إن لوالدي الشيخ مجيد وكيل هناك، وإذا كنت تنوي قضاء الليل فلديه بيت جيد. في كباب ستجد كيف يعيش المعدان. لاشئ غير الجاموس والقصب والماء. وبأمكانك الذهاب بالمشحوف فقط، فليس هناك أرض يابسة، هناك البط إذا كنت تروم الصيد ".

شكرته ولكني شرحت له بأني آمل أن أقضي عدة أشهر مع المعدان فقال " كباب جيدة، وصدام لديه مضيف، ولكن المعدان يعيشون كجواميسهم. نصف بيوتهم تحت الماء مملوءة بالبق والبراغيث، واذا حاولت النوم في أحدها فقد ترفسك جاموسة ليلاً. المعدان ناس فقراء، ليس لديهم الغذاء الكافي. والرز والحليب هو كل ما يأكلوه. ومن الأحسن البقاء هنا، وبأمكانك زيارة الأهوار كلما شعرت بميل لذلك. وبامكاني أن أجعلك مرتاحاً، فهذا المكان لك لأي فترة تريد ولدي الرجال والمراكب ليأخذونك الى حيث ماتريد. أقضي الليلة هنا، وأذهب في النهار للأهوار. هذا هو الشئ المعقول "

قلت له انني سبق بالفعل أن قضيت عدة أيام في الأهوار مع القنصل البريطاني في العمارة العام الماضي، وقد عدت الآن لأنني مهتم بالمعدان وأريد معرفتهم أكثر وهذا لايمكن أن يتم إلا بالمعيشة بينهم. وقلت " لقد قضيت كل عمري في البرية وتعودت على عدم الراحة. وقضيت السنوات الخمس الماضية في الربع الخالي، حيث الاكثر شدة، جوع وعطش دائمين. وهنا سأجد على الأقل كل ما أحتاجه من ماء "

ضحك فالح وقال " نعم والله. سوف لن تجد نفسك قليل الماء، بل ستتام فيه، أنتم الأنكليز غريبي الأطوار. ليلة واحدة في الأهوار كافية لي عندما يكون علي الذهاب لهناك لقضاء أمور المشيخة، أنا لا أنام هناك للمتعة. على كل حال أبق معي حتى صباح غد حيث سأهئ لك فرصة لصيد الخنزير، وسأرسلك بعدئذ الى كباب وأطلب من صدام العناية بك. أما هذا المساء فقد ترغب في التجوال معي حول المزارع، وقد نجد بعض طير الحجل لتصطاده. سأتركك الآن لتنال قسطاً من الراحة. " ثم قال " هل سبق وأن رميت خنزيراً ؟ كن حذراً فهي خطرة، ففي الأسبوع الماضي هاجم أحدها رجلاً وقتله قرب هذه المنطقة عندما كان يتفقد زرعه. وأنا أشك إن كنا سنشاهد واحداً اليوم، لكننا قد نجد بعض طير الحجل. "

كنا نسير برتل على علو حافة الخندق المحادد لترعة سقي عريضة تؤدي الى أجمة نخيل تبدو دكناء أمام لون السماء الساطع، وكان هذا الخندق الذي كونته يد الأنسان يجعلنا نرتفع أعلى من الأرض المنبسطة للسهل الفريني، وهو جنوب

العراق. والى الشرق عند السهل والى مئة ميل مرتفعات فارس ولمائه وخمسين ميلاً جنوباً الى البحر، ولمائتي ميل شمالاً الى بغداد، والى الغرب لما وراء الفرات حيث يندمج مع الصحراء العربية.

وبين فترة وأخرى كان علينا ان نقفز لنعبر فتحة لمجرى ماء يغذي حقولاً تحتنا. بعد برهة إقتحمنا النخيل خلال برية فرشت بنباتات شوكية ذات 3- 4 أقدام علواً، ثم عبرنا الى منطقة أكثر انفتاحاً، حيث تكون الأرض زلقة وبيضاء من الملح، مغطاة عموماً بشجيرات تتحمل وجود الملح. جفلت بعض طيور الحجل من دخولنا ولكونها غير اليفة وأكثر توحشاً، لم نتمكن من التصويب إليها. وفي طريقنا للقرية ثانية كانت ثلاث طيور بط تطير فوقنا قادمة من الأهوار. أطلق فالح وأصاب واحدة فهنأته، ولكن في قرارة نفسي تساءلت إن كانت تلك رميه من غير رامي، ولكني إكتشفت بعدئذ انه من الرماة الجيدين.

عدنا ثانية للقرية عند العتمة. كان مصباح مشتعل بالمضيف معلقاً بالسقف بحبل، وحوالي ستة من الشباب جالسين حوله. أدى فالح صلاة المغرب واقفاً بأتجاه المدخل، لان المضيف دائماً يبنى متوجهاً نحو مكة، والمفروض بالمسلمين ان يصلوا الفجر والظهر والعصر والمغرب وساعتين بعده للعشاء. بعضهم يتضايق منها، أما من يقوم بها دائماً فهم الرجال كبار السن. عندما أنهى فالح صلاته ارسل للعشاء الذي كان مشابهاً للوجبة السابقة، إلا أنه كان هناك لحم ضأن مشوي وبالمرق قطع لحم. بعد ذلك مباشرة قام الخدم الذين رفعوا الصحون بجلب الافرشه والوسائد والأغطية المبطنة بالحرير الأخضر والأحمر والأصفر. كان إثنان من الطاعنين يقضون ليلتهم معنا. أمر فالح صبياً بجلب بندقيته وطلب إليه أن يبقى مستيقضاً للحراسة حتى الفجر، ثم تمنى لي ليلة سعيدة وذهب لبيته المشاد بالأجر حيث يعيش مع عائلته.

أطفأ الصبي المصباح، وشرب ما تبقى من قهوة، وجلس يحرك جمرات النار. كان ضخماً، وبوجه منغولي ذو شكل جميل. وعندما بدأ أحد النائمين الشخير، طلب منه الكف فوراً. فأستدار النائم على جنبه، وبعد دقائق عاد ثانية للشخير. كشر الصبي عن إبتسامة وقال " العجائز دائماً يشخرون ! "



صيد الخنزير البري

الفصل الثالث

صيد الخنزير البري

عند الفجر الرمادي ظهر عامل القهوة عبدالرضا وأشعل النار التي سرعان ما ملأ دخانها الغرفة. كان الصبي قد تركنا، واستيقظ الرجلان وسمعتهم يتمخطون ويبصقون. بعد أن أديا شعائر الوضوء، صليا وجلسا القرفصاء حول النار. ويبدو أن الجو كان بارداً، لذا فقد بقيت كما كنت حتى جاء إثنان من الخدم لرفع الأفرشة، فالتحقت بالآخرين، وقدم لي كوب قهوة. جلب أحد الخدم الأفطار فطائر خفيفة من طحين الرز* بطبق كبير وابريق حليب حار حلو المذاق. وضعت حصصنا على البساط أمام كل فرد منا، بينما كانت الشمس تعلو مطلية أعمدة المدخل بنورها.

بعد ساعة أو أكثر وصل فالح وخلفه حشد من تابعيه المسلحين ليصحبني للمهمة الموعودة لصيد الخنازير. بعد أن شرب الجميع القهوة، ركبت الزورق الذي صعد إليه فالح وأبنه.

كانت مركبة جميلة، تسع لأثني عشر راكب تقريباً، طولها ستة وثلاثين قدم، إلا أن أقصى عرض لها ثلاثة أقدام ونصف، كان شكلها كزورق شراعي، مسطحة القاع، ومكسية من الخارج بطبقة ملساء من القير فوق ألواحها الخشبية، ترتفع مقدمتها برشاقة الى الأمام بقوس مثالي مشكلاً ساقاً طويلاً رفيعاً، وترتفع النهاية أيضاً بشادوف جميل متسق. وجعل للزورق سطحين صغيرين لقدمين من المقدمة وعند الأقواس. وهناك انحراف في تلك المساحة الى المقدمة. وتوجد ألواح خشبية غير ثابتة تغطي الأرضية. الأجزاء العلوية من الأضلاع مغطاة من الداخل

* يدعونه: السيّاح ويعمل بسكب خليط مسحوق الرز بالماء فوق ساج محمي بنار تحته- المترجم

ومثبتة بخمسة صفوف من مسامير مسطحة الرأس، بوصتين بين كل منها، وهذه المسامير المزخرفة هي العلامة المميزة (للطرادة) التي قد لا يملكها إلا الشيخ.

وبعد عدة سنين، في أوسلو، شاهدت سفن الفايكنج المحفوظة هناك، وقد ذكرتني مباشرة بالطرادات في الأهوار، ولكل من نوعيّ المركبة شكل الانسياب الجميل.

كان أربعة من الرجال يُسَيِّرون المركبة، اثنان في النهاية و اثنان في الوسط، يجذفون بأيقاع وفي وقت واحد بمجاذيفهم في الماء مرة بجانب ينقلونها الى الجانب الآخر كرجل واحد عند الضرورة. تركوا بنادقهم بجانبهم، كما خلعوا عباءاتهم، ولف كل منهم حزام كتف مليئاً بالخراطيش ووضع خنجراً معكوفاً رفيع النصل بحزامه من الأمام.

تقع الأهوار على بعد ثلاثة أميال من مضيف فالح، وقبل وصولنا مررنا بقرية كبيرة تمتد لمائتي ياردة على الضفة اليسرى للمجرى، بيوتها مبنية من حصران مثبتة فوق أقواس من قصب، وقد صفت الدور موازية للشاطئ ومتقاربة فيما بينها. أمامها بضعة عجول جاموس مربوطة، وبعض البقرات تطوف. كما لاحظت فرسين أو ثلاثة وقد غطي كل منها ببساط، وسيقانها الأمامية معقولة بقضيب حديدي. كان حصان فالح الخاص قد ربط بنفس الأسلوب وعندما سألته عن السبب قال:-

- " إنها تمنع سرقتها، فأذا ربطت فرساً بحبل، فبأمكان اللص أن يقطعه ويقفز الى ظهره ويختفي الاثنان. أفراسنا أصيلة وغالية ونحافظ عليها. "
- " لماذا هي مغطاة هكذا؟ ... ليس الجو بارداً جداً؟ " قال " لمنع الذباب من لسعها."

تراكضت الكلاب على الشاطئ، وكانت تقف كل عشرة أو خمسة عشر ياردة لتبنح علينا بنوبات سعار جنونية، وقد تراجعت شفاهها أمام أسنان بارزة. الأطفال يراقبون بصمت والنسوة سافرات الوجوه ينظرن من بيوتهن. وكان يبدو أن

هناك بضعة رجال. على مقربة من بيت كبير أوقفنا الزورق وصاح أحد مرافقي فالح:

" زاير محيسن؟! "

خرج رجل كبير السن وهو يثبت غطاء رأسه قائلاً:

- " مرحباً. مرحباً يامحفوظ. تفضلوا ... تفضلوا. "

إلا أن فالح رفض رغم توسلات الرجل لنشرب القهوة، وقال فالح:

- " هل أرسلت الرجال الى الهور بمشاحيفهم؟ "

- " نعم يامحفوظ، كلهم هناك ينتظرونكم عند فم المجرى "

- " هل يوجد هناك خنازير في القصب؟ "

- " نعم وكلها مبعثرة، فالماء منخفض لا يجعلهم يتجمعون بجزر القصب "

- " تعال معنا "

فتسلق زاير محيسن الزورق ببراعة وجلس على لوح أرضيته. يجلس المسافرون دائماً في قعر الزورق، أما مكان الشرف فهو الى النهاية منه مقابل التقوس الخلفي. عندها بدأ الملاحون التجذيف إثنان في الخلف على السطح العلوي، واحد مقابل الآخر، والثالث عند التقوس الأمامي على عارضة ضيقة غير مريحة، بينما ركع الرابع في التقوس الكبير. سألت فالح:-

- " هل هؤلاء الرجال من المعدان؟ "

فتبادل إبتسامة مع زاير محيسن وقال:

- "كلا. هم فلاحون. يعيش المعدان في الأهوار وستلتقي بهم عندما نصل كباب"

تركنا حقول الحنطة والشعير خلفنا قبل أن نصل الى القرية. كان الماء في القناة التي نتبعها قليلاً، وملاحوا الزورق وجدوا صعوبة في تحركيه، وضفاف الأرض واطئة، بحيث كنت أشاهد ما خلفها وأنا جالس. في كلا الجانبين ولمئات الياردات، كانت الأرض الطينية المفروشة بالطحالب تلمع تحت الشمس. وخلفها

مناطق القصب. كان قطيع من طيور الماء يبدو كبياض الشمس أمام تلك الخلفية الداكنة، وأثنان من طيور مالك الحزين تقف محدودبة بسكون، وعلى حافة خندق صغير تقف بعض الغربان المبقعة، تتشاجر بضوضاء حول قطعة من النفايات. لاحظ فالح: " هنا يزرعون الرز. سيبدأ أوان جنيه قريباً. "

كنت أشاهد عدداً كبيراً من الرجال والمشاحيف، وعندما صرنا قريبهم، قفزنا خارج الزورق ووقفنا بصورة قلقة فوق آثار بقايا سد الخندق. ثم ظهر رجلان يرتديان ملابس حسنة خائضين في الماء الطيني لتحية فالح وتقبيل يديه. أما الآخرون، وأكثرهم صبيان، فقد كانوا واقفين أو جالسين في مشاحيفهم في مياه أعمق. بعضهم بعباآت خشنة سود أو بنية اللون شدت الى وسطهم، وما تبقى من الجمع كان عارياً. الآخرون يرتدون الرداء العربي الطويل وقد شمروه الى أعلى أفخاذهم، وأثنان كانا يسحبان زورقاً خلال ماء ضحل، وقد رفعوا ملابسهم حتى إباطهم كاشفين عن عوراتهم دون إهتمام. لف أكثرهم قطعة قماش بالية على رأسه والكثير منهم يحمل خنجراً. وعدد من الصبيان كان مسلحاً بهرواة مثقل طرفها بقطعة قير*، ولما لاحظ أحدهم مراقبتي له، دفع إلي بها بإبتسامة ملفتة للنظر. بصورة عامة كان هؤلاء الناس ذوي بنية قوية، وطول متوسط وبشرة خفيفة داكنة اللون بسبب الجو، ووجوه متفتحة واضحة، وعيون واسعة وأنوف كبيرة الى حد ما.

كانت زوارقهم المغطاة بالقير، صغيرة بصورة عامة، والأسم المشهور لها (مشحوف) رغم أن لكل نوع وحجم أسم خاص. بعضها وإسمه ماطور، قليل الغاطس في الماء ولايحمل إلا شخصاً واحداً، ويستعمل للمطاردة. وبعض آخر أكبر قليلاً ويحمل شخصين وبعضها له حجم الزورق الذي جئت به من المجر الكبير. بعضهم يسير المشحوف بدفعه بالفالة بغرز نهايتها الغليظة في قاع الماء. والفالة هذه

* تسمى في عموم العراق (مكوار) - المترجم

عبارة عن سلاح مرعب من قضيب خيزران بطول إثنتي عشر قدم وبشوكة ذات خمسة أنصال كتلك التي تستعمل للفلي ولكن بأضعاف الحجم طبعاً.

كان فالح قد إقترح أن أحمل معي مسدس، فقد كان خطراً أن أستعمل بندقيتي بين كثير من الناس. والآن فأنا سعيد لأن أجد ان ملاحي زورقه الأربعة هم فقط من يحملوا بنادق، رغم أن أهل القرية يمتلكون الكثير من الأسلحة النارية. فخلال الحرب العالمية الأولى كسب رجال العشائر المحليون أعداداً كبيرة من البنادق الأنكليزية والتركية من أرض المعارك، ومنذ ذلك الحين لم يتركوا السلاح. كان عتاد بنادق لي- إنفيلد ممكن التدبير لأن الجيش والشرطة العراقية مجهزين بها، ولكن عتاد البنادق التركية كان عملياً صعب التدبير، وفي بعض القرى كان بامكان الملاحين إعادة تعبئة غلاف خرطوشة فارغ بمسحوق بارود ورصاص محلي الصنع، إلا أن أغلفة العتاد التركي أصبحت رقيقة بخطورة.

في الحرب العالمية الثانية كان القتال قليلاً في العراق، وبالتالي غنائم أقل للقبائل. ولكن في فارس تضاءل الجيش والبوليس أمام تقدم الأنكليز، وأخذ كل عسكري بندقيته لبيته. وغنمت القبائل بدورها دروع وأسلحة مواقع حاميات متعددة. بعد ذلك، وعندما تذكروا الطرق المخيفة للعقاب بلا رحمة لمن يعثر عنده على أسلحة قاموا بتهريب ما لديهم الى العراق، فكانت البندقية تباع بحوالي خمسة دنانير (تعادل خمسة باونات). وقد يحصل الفرد على مائة دينار. ومن الأسلحة الشيكية هناك بندقية تعرف بيرنو من الأسم برنو المكتوب على سبطانتها، وقد لاحظت أن رجال فالح يحملون هذا النوع.

كان فالح يستمع الى شكوى منكهة حول توزيع بعض أراضي الرز. فقال: " هذا يكفي. تعال غداً صباحاً الى مضيفي ساعتين بعد طلوع الشمس، وأخبر حسن ليأتي أيضاً. " ثم تسائل " هل عظيم هنا؟ إستدعوه "

قفز رجل قصير يعرج من مشحوف بعيد، وخاض في الماء تجاهنا، وحاول تقبيل يد فالح بذلة، فقال هذا له " هل أعطيت جاسم الدنانير العشرة التي طلبت منك إعطاءها له؟ "

- " كنت سأعطيه غداً يا محفوظ "
- " ولكني أمرتك ان تعطيه قبل عشرة أيام ؟ "
- " كنت مريضاً، ومنذ يومين كنت.. "
- " ولكني سمعت أنك كنت أمس في المجر؟ "
- " ذهبت الى هناك لأفحص عند الطبيب ولأشتري الدواء "
- " أنت لم تذهب لعند الطبيب، كنت تقضي وقتك في عرس نصيف "
- " أقسم بالعباس أنني ذهبت للطبيب و أنا سأ ... "
- " كلب أبن الكلب. لقد قلت لك إن لم تدفع المبلغ لجاسم حالاً سأعاقبك. أنت غشاش كذاب. ياسين خذه لخزعل، وليحتفظ به حتى أعود. أطلب إليه أن يربطه جيداً. خذه. إذهب أيها الكلب الأسود. سأعلمك كيف تنفذ أوامري "

وعندما تقدم شخص آخر بشكوى أخرى، قال فالح " يكفي. هيا أرنا الخنزير. أريد أن أرى كيف يصوب الأنكليزي " ثم قال لي " إذهب بذلك المشحوف. كن حذراً عندما تتحرك وأنت فيه. وسيجذف لك هذا الرجل ".

قفزت الى مشحوف صغير قريبه حتى قدمي. ركب كل من فالح وولده زورقاً آخراً. وبدأنا بأتجاه القصب يتبعنا الآخرون. وعندما أصبح الماء أعمق قام الرجال بغرس أعمدة الخيزران التي معهم أو الفالة لدفع القوارب. يجلس أحدهم ويبدأ الجذف بضربيات قصيرة سريعة، وعندما يكون في المشحوف اكثر من شخص فأنهم يغطسون المجاذيف بجانب واحدة وبوقت واحد في كل مرة.. إختفى ضباب اليوم السابق، والسماء زرقاء لامعة وقطع متناثرة من غيوم كالقطن المندوف هنا وهناك. كانت ضربيات المجاذيف المتعاقبة تصنع دوامات صغيرة على سطح الماء تتناثر الى الخلف قطراته الباردة متلألئة. إجتزنا المياه الطينية بفم المجرى خلفنا خلال منطقة أحراش بالية رمادية اللون نامية في الضحالة. صرنا الآن داخل مناطق القصب (Phragmites communis) التي تغطي أكثر الأهوار الدائمية. ينمو هذا

القصب العملاق المشابه للخيزران، داخل مناطق القصب الكثيفة ليصل علوه 25 قدم. وسيقانه التي تنتهي بمشرشبات صفراء فاقعة سميكة، يستعملها رجال الأهوار لتسيير زوارقهم. في هذا الفصل تكون مناطق القصب المحاذية للممرات المائية غير كثيفة، يتلاعب بها الهواء. وبقايا العام السابق تكون صفراء باهتة أو فضية اللون، إلا في قاعدتها حيث النمو الجديد لبضعة أقدام بلون أخضر. كانت مجاميع صغيرة من طيور نماج الماء متناثرة أمامنا على سطح الماء وحتى حافة مناطق القصب. كانت هناك أيضاً طيور الغاق القزم، وذات العنق الطويل، قابعة وقد بسطت أجنحتها السود تحت الشمس على سيقان القصب لتجف، وقطرات الماء تتطاير عندما تقفز خائفة الى الماء او لتطير لعلو قليل. اما طيور مالك الحزين فتتمالى منها ضوضاء، و سيقان القصب اليابس تهتز، ثم ترفرف طائرة متدلية منها سيقانها الطويلة الى الخلف.

أخذت الزوارق التي عددها أربعون تتدافع وترتطم ببعض وهي تزدحم في المجرى الضيق لتنتشر في امتداد الماء المفتوح. بعد ذلك أخذ الملاحون يتسابقون فيما بينهم، يعلوهم الصراخ والضحك. لم أكن أعرف حينها أن كنا الآن بعمق الهور أم كنا نسير موازين لحافته، فأن مناطق القصب كانت تحيط بنا والممرات المائية أصبحت أضيق وأكثر تعرجاً. وفجأة أصبحنا خارج القصب، وسط بحيرة صغيرة. إرتفع البط البري طائراً فوق رؤوسنا، وكانت هناك جزر صغيرة بعضها بضعة ياردات وبعضها تغطي مساحة أكر أو أكثر تلوح في حافة المستنقع البعيدة. يسميها رجال الهور (تهول) بعضها راسية ثابتة، وبعضها سائبة تتحرك بمكانها. وكلها تعلوها كمية من القصب لثمانية الى عشرة أقدام، وآجام من البردي ذات الأوراق الحادة كالموس، وعليق وبضعة شجيرات صفصاف، وعدة أنواع من النباتات المتسلقة. تحت كل هذه بساط من النعناع ونباتات شوكية وعطرية وغيرها.

كانت الأرض تبدو صلبة، لكنك تشعر بها مشبعة بالماء. في الواقع تتكون من طبقة من جذور نباتات متحللة طافية على السطح. وأذكر هنا أنه بعد سنين أصبت خنزيراً برياً كبيراً كان يأكل في جزيرة كهذه قد أحرقت منذ فترة

قصيرة. رأيته واقفاً هناك كما لو أن الأرض قوية تحته، إلا أننا عندما مررنا بالمكان بعد ساعة لم نجد له أثراً. فقلت: " أعتقد أنني لم أقتله، ولابد أنه شفي وذهب ! " إلا أن رفيقي أجاب " لا. لا. كان ميتاً تماماً، لكنه غطس في إحدى هذه الجزر ". إقترب منا زورق فالح وقال: " هذا هو المكان " وصاح بالآخرين: " هلموا. أدخلوا و أبحثوا إن كان هناك شيئاً ". نزل عدة رجال من زوارقهم وبيد كل منهم فالة، إلا أنهم عادوا خالي الوفاض. وحاولوا في جزيرة اخرى.. وثالثة. كنت أرقب عندليبين يثيبان بين القصب عندما جفلت لعدة ضجات متمالية أعقبتها صرخات: " هذا هو! إسرعوا. إنتبهوا. نعم والله إنها أربعة. " ثم أرتفع رشاش ماء عالي. تلاه صمت. وسمعت صوتاً يتساءل! " أين ذهبت؟ " وآخر يجيبه " اختفوا في الماء " نهض أحدهم تحت قدمي قائلاً " والله كان كبيراً كحمار. والعباس " وصاح آخر " لقد رميته بفالتي ولكنها طاشت. كانت انثى واولادها الثلاث " وصاح آخرون " لقد ذهبوا من هنا. إستدر من هنا واقضِ عليهم"

كنا محصورين بممر ضيق بين جزيرتين، لكن سائقي زورقي عادوا ثانية الى المياه المفتوحة، حيث إلتحقت بنا عدة مشاحيف، وهكذا إنتقل الصيد الى جزيرة أخرى. وبينما كنا نسرع إليها، كانت تنتظرنا إثارة أكبر، فقد إخترقت صرخة الأجواء فجأة، وتعالى ضحك وصوت رجل يصرخ " لقد تمكنت منه. واحداً من الصغار. ضربته بالفاله. انه يغطس في الماء ". سارع إليهم زورق فالح الذي خلع عباءته وأخذ يجذف بنفسه " مناتي أين ذهب الكبير؟ " سأل رجلاً كبيراً يبدو عليه النشاط ومتزعماً الصيد حتى الآن، فأجاب هذا " ذهب الى الجزيرة الكبيرة كما أظن يامحفوظ. نعم هذه أثار جريه. هيا لندفعه للخروج "

إقتحم مناتي منطقة القصب وتبعه إثنان وسمعت صوت تحركهم وصاح أحدهم:-

- " لا أظنه قد سار من هنا "

وبعد برهه صاح مناتي: هذه أثار أقدامه " ثم لم يحدث شئ، وأعتقدت إنهم فقدوا أثره عندما سمعت جلبات متقطعة تصل من الجهة البعيدة وصوت صراخ :

-" إنه يقتلني. يقتلني "

وصاح صوت آخر " لقد تمكن من مناتي، هيا يا شباب بسرعة أين المحاربين؟"

وإستجاب الكثيرون لدعوته وشقوا لهم طريقاً خلال القصب. أما فالح وأنا والآخرون فقد جذفنا بأهتياج للجهة الاخرى من الجزيرة حيث وجدنا مناتي مضطجعاً مغمض العينين في أكبر زورق وقد شق رداؤه المغطى بالدم من الوسط. وحفرة عميقة في فخذه الأيمن بأمكان قبضة يد أن تدخل فيها. إنحنى إليه فالح وسأله بقلق:

-" كيف حالك يا مناتي ؟ " ففتح العجوز عينه وهمس " أنا بخير يا محفوظ"

وأمر فالح بالعودة مباشرة الى مصب (الخر) الذي كان لحسن الحظ غير بعيد.

أثناء العودة قال أحد الاولاد: " لقد كانت أنثى تلك التي عضته، وكان من الممكن أن تشطره بأنيابها وتقتله. " وقال آخر " كان جيداً أن يقع على بطنه، فقد رايت قبل سنين رجلاً بمنطقة البو بخيت قتلته خنزيرة. لقد بقرت بطنه وأخرجت نصف أمعائه " وقال ثالث " كان الخنزير الذي قتل الشاب السيد العام الماضي في حقل الحنطة قد مزقه تمزيقاً. كان لوحده وبدون سلاح، ربما كان قد داس عليه. كان المحصول عالياً قبل أن يحصده. وزحف عائداً الى القرية لكنه مات قبل أن يخرج من الحقل "

وسأل صبيُ: " أتذكر عندما إعتلى هاشم خنزيراً ؟ " فأجاب أحد رجال الزورق " إي والله. كان هو وأخوه يتفقدان شعيرهم عندما شاهدا خنزيراً عجوزاً. لونه رمادي. أراد أخ هاشم أن يرميه، فقد كان قد جلب لتوه بندقية من الفريجات لكن هاشم حاول منعه إلا انه رمى الخنزير وجرحه في بطنه. " فقاطع أحد الرجال قائلاً : " نعم لقد كان سيئ التصويب " وأستمر سائق الزورق: " هاجمه الخنزير وطرحه أرضاً، وشق يده بشدة. إلتفت هاشم خلفه وطعنه بكتفه بالخنجر، وعندما إستدار الخنزير ثانية رمى الخنجر وقفز فوق ظهره. سارع الخنزير بالفرار وهاشم

فوقه ممسكاً بأذنيه بقوة. وأستمر هكذا طوال الطريق الى بستان سيد علي عندما إنهار الخنزير وهو يحاول عبور خندق عريض. لقد قال هاشم بعدها أنه لم يعد يرغب بركوب خنزير " فضحك الحاضرون. قال رجل كبير السن: " الخنزير عدونا ، فهو يأكل محاصيلنا ويقتل رجالنا. دمرهم الله. إنظروا لمناتي: لم يعد ذو فائدة بعد اليوم. هذه الخنزيرة أنهته " وصلنا الى مدخل النهر حيث كانت طرادة فالح مع زحام صغير تنتظرنا عند السد المشاد ، العالي والعريض. أوقفنا الزورق الذي به مناتي. كان مضطجعاً على جنبه مريحاً رأسه وكتفه على أحد الرجال. بدا لي أنه نزف قليلاً لأن الماء في أسفل المشحوف قليل الحمرة، إلا أن الجرح كان مروعاً حيث أن نهايات التمزق قد برزت فيها العضلات من خلال اللحم الناضح. تحرك مناتي قليلاً ليشاهد جرحه إلا أنه لم يقل شيئاً.

في صناديقي بقرية فالح كان لدي خزين من الأدوية، وأنا لم أكن كفوءاً كطبيب، ولكن بعد عشرين عام في حياة البرية حيث يتوقع الجميع أن أعالج مرضاهم وجرحاهم، إكتسبت بعض الخبرة بالطب، إضافة الى أنني كنت سابقاً أنتهز أي فرصة لدخول ردهات المستشفيات ومراقبة العمليات الجراحية. وهكذا فقد إلتقطت كمية من المعلومات الطبية الكافية، ولقد إكتسبت خبرة أكثر خلال سنواتي في الأهوار.

قلت الآن لفالح: " من الأجدر بنا أن نعيده وبكل إستطاعتنا الى مضيفك، حيث أتمكن من إعطاءه المورفيا وأداوي جرحه وليس أكثر من ذلك، ويجب أن نرسله بعدئذ الى المستشفى في العمارة. " توسل مناتي : " لا ترسلوني للمستشفى. لا للمستشفى. دعوني أبقى في قريتي. أطلب من الأنكليزي أن يطببني. "

قلت " على كل حال دعنا نعود به لقريتك. " إلا أن فالح ألح بأن الطعام قد هيأ قائلاً: " دعنا نأكل أولاً، ثم نذهب " وغضبت عندما إبتسم مناتي وقال: " كل ياصاحب. كل. فأنا بخير. وعلى كل حال أنا الآخر جوعان. أريد بعض الطعام قبل أن اذهب اكثر ".

إستسلمت لما يريد و ذهبت الى حيث وضع الطعام على حصيرة قصب. وصينية كبيرة ملئت رزاً وعليه قطع لحم كبيرة، ودجاج مشوي وصحون من المرق. وجدت أن من المستحيل الأكل، فقمت بسرعة أملاً أن يكونوا قد إنهوا طعامهم، إلا أن الآخرين ظلوا جالسين حتى أكل كل واحد، وبعدها كانت القهوة والشاي. ولم أعد أكتم قلقي ونفاذ صبري. ذهبت الى مناتي فوجدته يمسك قطعة عظم ظأن يأكل مابها من لحم. تساءلت بقرارة نفسي: هل كان يأكل حقاً؟ كان منظره مروعاً.

ومرة أخرى في قرية فالح توسل مناتي أن لا يرسل الى المستشفى إلا أن فالح أقنعه. لقد ظهر لي أن الخنزير قد قضم قطعة كبيرة من فخذه، حقنته بالمورفيا وغسلت جرحه ورششت عليه مسحوق السلفاتومايد بكثرة ووضعناه في الزورق بصورة مريحة وارسلناه الى المجر الكبير في طريقه الى العمارة.

إلتقيت به ثانية بعد سنة عندما توقفت بقريته لتناول طعام الغداء وروعت عندما وجدته وقد أصبح معوقاً دائمياً، غير قادر على الحركة إلا بأعتماده على عصى وسألته كم بقي في المستشفى فأجابني: " عندما ذهبت الى هناك لم يدعوني أدخل ولهذا فقد عدت. الحمدلله. دواءك هو الذي أشفاني وهذا كل ما حدث لي "

وقد ساورني الشك في أنه قد ذهب للمستشفى أصلاً، بل عاد لقريته من مضيف فالح مباشرة.



الوصول إلى كباب

الفصل الرابع

الوصول الى كباب

أرسلني فالح الى كباب صباح اليوم التالي بزورق يقوده ثلاثة رجال قائلاً " سيذهبون بك الى صدام. عد إلينا كلما تجد نفسك تعباناً من العيش مع المعدان. وتذكر أن هذا البيت بيتك. إذهب مع السلامة ". بدأنا نازلين في النهر الرئيسي، ومررنا بمضيف آخر، علمت أنه يعود للسيد سروط. وقد علمت أنه من أكثر السادة المحليين وقاراً وإجلالاً، وأن سمعته إمتدت الى كافة مناطق جنوب العراق وبالتالي فأن لمضيفه قدسية مسجد. حالياً أي رجل من أهل المدن يشعر بقليل من خيلاء التعليم يسمي نفسه (سيد)، كما كان في زمن الأتراك يسمي نفسه: (أفندي) وهذا يعني ببساطة ان (سيد) تعني (مستر) بالأنكليزية وليس لها أهمية دينية. ولكن عند العشائر في جنوب العراق فأن للكلمة قدر مبجل لأنها تعني: من سلالة النبي.

بعد مضيف سيد سروط، تنتشر بيوت قرية على ضفاف النهر، وخط طويل من الدخان الرمادي يرتفع فوقها، وجاموس أسود كئيب، ضخم الجثة، يكسوه شعر خشن، يقف بعضه بجانب النهر أو يرتاح في الماء حيث لا يظهر منها إلا أنوفها وقمم رؤوسها وقرونها الكبيرة المعقوفة. مشاحيف بحجوم مختلفة راسية على الشاطئ ويعضها مسحوب الى الأرض حيث تتناثر ركام زوارق قديمة بالية سقطت الواح الخشب عن أضلاعها. مجموعات سائبة من الكلاب تنبح علينا كعادتها من على حافة النهر. ورحل يراقبنا بصمت بمدخل أحد البيوت. قال سائق الزورق " هيا صاحب. سلم عليه " فقلت " السلام عليكم " فرد " عليكم السلام. توقفوا وتناولوا الطعام معنا. " قلت " لقد أكلنا، حفظك الله " قال صاحبي من خلفي " حسناً، يجب ان تعرف أسلوبنا. كما ترى أنها عرف أن يبادر راكب الزورق بالسلام على من في الشاطئ. ومن في الزورق المنحدر مع مجرى التيار عليه ان يحي من يتقدم صاعداً فيه"

بعد القرية بدت أشجار صفصاف عارية إلا من براعم خضراء، تحيط بالنهر من جانبيه، وأغصانها السفلى تتدلى الى الماء الطيني، غاطسه في التيار، وخلفها آجام من أشجار النخيل والى إمتداد البصر، وبمكان واحد بيوت قصب في فضاء من الأرض. هنا تشعب النهر مرة أخرى فأخذنا الفرع الأيمن الصغير. ثم حقول الحنطة والشعير ... وقرية أخرى ... وأرض طينية منبسطة، ثم حافة الأهوار، ومساطب أحراش، نفس مشهد يوم أمس.

تعقبنا خلال القصب قناة ملتوية، وخلال الميل الأول مرت بنا عائدة زوارق مليئة بأكداس القصب الطري الرطب حتى أن حافات الزوارق توشك أن لاترى. ورجال وصبيان نصف عراة يجذفون فيها، أحياناً إثنان، ولكن الأغلب شخص واحد.

قال الرجل الذي فرض نفسه مستشاراً لي " انه (حشيش)، علف لجواميسهم " كان إسمه جحيش: (حمار صغير)، ولم يكن هذا كنيته، بل إسمه الحقيقي. وكثير من رجال القبائل لهم أسماء غير مستساغة، وجحيش ليس واحداً من الشواذ. لقد إلتقيت مرات عديدة رجالاً وصبياناً لهم أسماء مثل: جليب (كلب صغير) باكوره (انثى الخنزير)، خنزير. وهي أسماء يجفل لها المسلمون الذين يعتبرون الكلب والخنزير نجسين. وآخرون لهم أسماء غريبه: كجريدي (فأر صغير) واوي (إبن آوى)، ضبع، كوسج (سمك القرش) عفريت (جني) وحتى: بعرور (روث الماشية). ولغرض إبعاد أعين الشر عن أسماء غير جذابة كهذه، تعطى لأطفال فقدوا اخوة لهم بالطفولة لتكتب لهم حياة طويلة.

مررنا بمنطقة يجمعون الحشيش فيها. وهو الأسم العربي لنبات القصب حديث النمو المستعمل كعلف. كان صبي عاري يقف وسط مشحوف، يقطع الاوراق الخضراء بمنجل ذو حافة منشار، فيكومها وهي مبللة في الزورق خلفه، وبين حين وآخر يدفعه ياردة أو ياردتين الى الأمام بسحب السيقان الكبيرة إليه. خلف ستارة القصب كان تصلني أصوات وضحك، وصبي يشدو اغنية مرحة.. توقف رجال زورقي وأنصتوا وأكد أحدهم " هذا حسن " ثم إنتهت الأغنية وصاح آخر " غني لنا أكثر "

كان مشهداً سيكون مألوفاً لي خلال السنوات السبع التالية. أحياناً يكون في الشتاء حيث الماء البارد كالثلج مع ريح قارصة تعبر الأهوار قادمة من فوق كردستان، وأحياناً يكون في الصيف حيث الهواء محمل بالرطوبة والحر غير المحتمل في القنوات المظلمة أسفل أعواد القصب الشاهقة، وغيوم البعوض ترقص حائمة فوق الرؤوس. كان من النادر أن يكون هذا الوضع في الربيع أو الخريف، لأن هذين الموسمين قصيران في هذا الجزء من العالم. مع هذا فأن كان صيفاً أم شتاءً فقد تآلفت مع أصوات الضحك والغناء بين مناطق القصب عندما يكدح أهل الأهوار للحصول على العلف لجواميسهم التي لا تشبع أبداً.

قال جحيش وهم يرفعون مجاذيفهم " ذاك الصبي له صوت محبب "

– " نعم. أحسن الأصوات، حتى من جليب في كباب "

– " في الحقيقة نعم. صوته أحسن لكنه لايحسن الرقص. هل شاهدت ذلك الذكر بنته في عرس عبد النبي؟ والله كانت متعه ان تشاهده وهو يرقص "

وسألت عماذا تعني (ذكر بنته) فالكلمات تبدو أنها تعني فتاة ذكر. شرح جحيش أن ذكر بنته هو صبي راقص محترف، وفي نفس الوقت هو بغي ذكر وهناك إثنان أو ثلاثة في المجر الكبير حيث يستأجرون للرقص في الأعراس وإحتفالات أخرى. وتساءلت فيما إذا كانوا يعيشون بين العشائر أجاب " لا. لا أبداً. بالطبع الكثير من صبياننا يرقصون، إلا أنهم ليسوا ذكر بنته "

أحد رفاقه قال: " حسناً هناك واحد في الصيكل. والأكثر، ان إبنه (مزن) سيصير راقصاً رائعاً. لايزال طفلاً ولكنه والله أحسن من أبيه الآن. "

لم تعد زوارق أخرى، وأخذنا نسير ببطء، وأحياناً منحدرين مع تيار مياه النهر الهادئة بين القصب الذهبي، وماخلا ما يقوله أحدنا اذا تحدث، لم يكن هناك صوت غير ضربات المجاذيف ورشاش الماء المتطاير عند كل ضربة. وشيئاً فشيئاً أخذ الممر يتسع ووجدنا أنفسنا في حافة بحيرة سعتها حوالي ثلاثة أرباع الميل. الماء فيها أزرق زاهي تحت ضوء الشمس. قال جحيش " دعنا نقطعها مباشرة لا توجد رياح الآن. "

كانت مجموعة كبيرة من طيور الماء ترتاح على سطح البحيرة وخلفها عدد كبير من البط، أبعد من أن نميز نوعه. تناولت بندقيتي، إلا أن البط إرتفع حالما ظهرنا من حاجز القصب. قال جحيش " هي الآن وحشية جداً، عليك المجئ الى هنا في الخريف حيث تكون قد وصلت لتوها، وعندها ستتمكن من إصابة ما تريده. نال فالح منها الكثير هذا الشتاء ".

بدا القصب حول البحيرة كجرف صخر رملي، وتلك التي خلفي عن بعد تذكرني بحقول الذرة اليانعة. وفي الجانب البعيد إقتحمنا ثانية مناطق القصب، وإلتقينا زورقين كبيرين، وقد كدس القصب اليابس فيهما، ولم يترك لنا إلا ممراً ضيقاً للمرور. كانا فسيحين وبجنبات عالية وبطول حوالي ثلاثين قدم وبقوسين جميلين في المقدمة والمؤخرة. ويحمل كلاهما ثلاثة ملاحين يقومون بتسيرهما بالدفع الى الأمام ببطء بوضع قضبانهم* بعمق الماء ثم يتحركون خطوة خطوة على طول الحافة الجانبية من المقدمة الى نهاية الزورق دافعين، ثم يعودوا سائرين الى المقدمة ثانية، وهكذا.

صاح جحيش " هل صدام في كباب ؟ "

فأجاب أحدهم " نعم فقد عاد أول من أمس من عند خلف " وخلف هو أخ فالح الصغير " أين أنتم ذاهبون ؟ "

- " الى صدام، آخذين الأنكليزي من عند فالح "
- " أين فالح ؟ "
- " في بيته "
- " ومجيد ؟ "
- " لايزال في بغداد " ثم إلتفت إلي جحيش وقال " نحن نسمي هذه الزوارق (بلم) وهي قادمة من كباب محملة بالقصب لبناء مضيف جديد لمجيد. "

---

* تسمى: المردي- المترجم

بعد فترة قصيرة تجاوزنا زوارق محملة بالحشيش في طريق عودتها الى كباب. كان واضحاً أن القناة ضحلة، فقد كانت الأحراش نامية بين القصب. ثم إتسعت القناة واستدرنا حول لسان من نبات البردي، وهناك في الأتساع اللامع المتموج بهبوب النسيم، كانت القرية، وصور البيوت تنعكس في الماء. ودخان أبيض يعلو الى السماء الزرقاء، وجدار من البردي الأصفر خلفها. وتنتشر سبعة وستين بيتاً حول المستنقع، ولا يفصل بينها أحياناً غير بضعة ياردات. ومن بعد تبدو وكأنها في الماء، اما في الحقيقة فقد بني كل منها على كومة من البردي تشبه عش كبير لطائر الأوز، تكفي للبناء مع فضاء قليل أمامه. كانت جاموستان تقفان أمام أقرب البيوت، وقطرات الماء تتساقط من شعرها الأسود، وآخريات غاطسات في الماء عن قرب. وكما هو الحال على اليابسة وفي أكثر الأماكن الأخرى، فإن البيوت مصنوعة من الحصران، مدعومة بهيكل مقوس من القصب، ومفتوحة من جهة واحدة، يمكننا أن نرى مابداخلها ونحن نجذف في الماء. قسم منها بحجم مناسب، وبعضها مجرد أسيجة من الصعب تسميتها بيوتاً إطلاقاً. وللجديدة منها لون القش الطري ولكن لأكثرها لون رمادي قذر.

في كل مكان يقفز الناس من والى الزوارق، لينتقلوا من جزيرة صناعية الى آخرى. رجال وصبيان يحملون بأذرعهم حشيشاً ليكوموه أمام بيوتهم. حييناهم فأجابوا " أهلاً... أهلاً. قفوا وكلوا ". راقبت صبياً بعمر الأربع أو خمس سنين يخطو الى أحد الزوارق، إلتقط قضيباً ودفع به القارب وتوجه نحو منطقة القصب، وأمرأة فتية وطفلها بيدها صاحت عليه وهو يمر أمامها بزورقه. كان لها وجه محبب ينتهي بذقن رقيق وترتدي ملابس سود مع عباءة سوداء خشنة رفعتها لتلفها فوق رأسها. وأمام بيت آخر صبيتان ببدلتين عاديتين حمراء والآخرى خضراء، تطحنان حبوباً في هاون خشبي كبير بمدقين طويلين ثقيلين، وكانتا تدقان بالتعاقب، حانيتين جسميهما الى الأمام من الورك وهمهمة قوية بإيقاع مع كل ضربة منهما.

يقع مضيف صدام في طرف القرية البعيد على حافة القصب مبتعداً قليلاً عن البيوت الآخرى. أكبر بناية في كباب والوحيدة على أرض يابسة، فقد إحتلت جزيرة

صغيرة ذات جوانب عمودية من أرض سوداء ترتفع خمسة الى ستة أقدام عن مستوى الماء المحيط بها، لقد كان واضحاً أن هذه الجزيرة أثراً قديماً، لوجود بناء بالطابوق قرب مستوى المياه، وهناك مكان فسيح لبيت صغير آخر يعيش فيه صدام وعائلته. حالما وصلنا خرج صدام وصاح من بين كتفيه على صبي ليجلب ويوجه السرعة بسطاً للجلوس قائلاً: " أهلاً ومرحباً " وساعدني في النزول للجرف. كان طويلاً هزيلاً وآثار بسيطة لاصابة جدري سابقة على وجههِ الحليق إلا من شاربيه النحيفين. يلبس رداءً أبيضاً تحت عباءة بنية اللون، وعلى رأسه غطاء الرأس وعقاله، كان معه أبنه عودة، طفل في العاشرة رابط الجأش.

خلعت حذاءي بمدخل المضيف ودخلت. كان المضيف الوحيد في كباب، مبنياً بصورة غير جيدة، وذو سبعة أقواس، مفتوحاً من الجهة الجنوبية. ومن موقعه المرتفع كان يهيمن على منظر القرية بكاملها. أرضيته مغطاة بحصران قصب شبه ممزقة، ومصباح نفطي ذو زجاجة مسودة بالهباب معلق بقصبة الى الحائط.

هتف صدام بدون صبر " أين هذا الصبي؟ لعنة الله عليه " ولاح شاب يبدو عليه سيماء الغباء مع بساطين كبيرين وبعض الوسائد " تعال ياولد. إستعجل. إلا ترى أن عندنا ضيوف؟ أعطني هذه وأذهب وأجلب البساط الجيد ".

جلب الصبي سجادة للصلاة جيدة النوع، وفرشها صدام عند الحائط المقابل ووضع وسادة بحرير أحمر جنبها وطلب إلي ان أجلس. سمعته يهمس لخادم قائلاً: " أخبرهم لتهئية الغداء واذهب الى الحانوت وابحث إن كان عنده سمك. أجلب واحدة جيدة وإجلب معك ستة علب سيكائر وسكر وشاي. خذ المشحوف الصغير. " دخل رجل ضخم الجثة، بوجه غامض فضولي، وتبدو عليه الوسامة مع صفرةٍ، ولكنه بان مترهلاً. كان معه ابنه ذو الخامسة عشر. حيانا وجلس. خاطب صدام الصبي ذو الوجه المبتهج " تعال ياعجرم مد يدك. إغلي ماء لعمل القهوة. ها هي في الدله الكبيرة. زد شعلة النار والقصب هناك في الزاوية. خذ بعض الكبريت ". عندما عاد خادمه، وضع صدام علبة سيكاير أمامي وواحدة أمام كل من رفاقي، وفتح علبة أخرى ورمى سيكارة لكل من كان في الغرفة. وبينما كان يسقينا القهوة، دخل

عدة رجال، ووصل آخرون حتى صاروا عشرين أو ثلاثين رجل. كانوا يشبهون القرويين الذين كانوا معي وفالح في صيد الخنازير. وما لاحظته عنهم هو سمة وجوههم، وبعضهم، وبصورة خاصة أحد الشباب، طويل القامة، يبدون كمنغوليين شكلاً. كل الباقين لديهم شوارب وبعض كبار السن لحية صغيرة رمادية اللون. كانت شعور رأسهم مقصوصة. ويرتدون اللباس الأعتيادي من غطاء الرأس وبعضهم بعباءة خشنة.خرج صدام، وعاد يتبعه عودة وعجرم وخادمه، يحملون إنائين كبيرين مملوئين مرقاً، ودجاجتين مسلوقتين، وصينية كبيره مليئة بالرز الدبق. وضعوا الصحون على حصيرة دائرية أمامي. ظهر عجرم والخادم ثانية يحملان سمكة مشوية طولها قدمين ونصف وأقراص خبز أسمر سميك غير مختمر، وهو يشوى في أماكن خاصة، وعليه طبقة رماد. وكعرف، دعى جحيش صداماً للأكل معنا إلا أن الأخير رفض قائلاً " كلوا. كلوا " ثم قام بصب المرق على الرز، وقطع الدجاج واضعاً لحمها أمامنا. أن من عادة البدو أثناء اكلهم الرز أن يجعلوا منه كرة شبه صلبة براحة يدهم ثم يدسونها في الفم، أما هنا فأنهم عادة يستعملون أطراف أصابعهم. لا حظت أنهم يأكلون الرز مع الدجاج، والخبز مع السمك. في النهاية قام كل شخص وغسل يديه، ومضمض فمه.

عندما إنتهينا دعى صدام الآخرين للاكل. وأخذ كل واحد منهم يتظاهر بالرفض " أشكرك، فقد أكلت، ولكن صدام يلح " هراء. تفضل وكل " فيجيب المدعو " لا أبداً. لا. لا. " بسخط واضح. أخيراً أخذ صدام أحدهم من يده، كما لو سيرغمه على الأكل بالقوة، وعند ذاك نهض وتوجه للأكل. وبعد عدة إحتجاجات تبعه الأخرون. إلا أن بعضهم أكد " لا. حقاً ياصدام، أنا أقسم أنني أكلت. وحليب أمك أنا أكلت. " وهو قسم خاص ملفت للنظر عند عشائر البو محمد. وأولاءك الذين كانوا قد أكدوا أنهم سوف لن يفعلوا، أكلوا. ولاحظت أن الموجودين قد طردوا كلباً لانه دخل، لكنهم سمحوا لقطة أن تجلس بجانبهم بل وأعطوها بعض البقايا.

بعد أن شربنا شاياً وقهوة أكثر، نهض رفاقي الثلاثة، فقال جحيش " يحفضك الله ياصدام "

- " ماذا؟ هل ستذهبون؟ هراء. أقضوا الليل معنا. "
- " كلا. لدينا عمل لنقوم به. يجب أن نعود. "
- " أتوسل إليكم ان تبقوا "
- " كلا. بالحقيقة .. " ثم كرروا " الله يحميك "

فقال صدام : " حسناً. أذهبوا بالسلامة. " واضفت " تحياتي لفالح " أجابوا " الله يعطيك السلامة " ثم رفعوا مجاذيفهم ومراديهم التي قد كانوا كدسوها في زاوية المضيف وخرجوا وركبوا الزورق.

وعندما خرج الجميع، جاء رجل كبير السن وقال لصدام " أدعوا الأنكليزي لبيتي لشرب الشاي عصر اليوم " ولاحظت عند قبول الدعوة أن صدام دعاه (زاير) وهو عنوان ديني يستعمل عند الشيعة.

إن الشرخ في الأسلام بين السنة والشيعة، أساسي كما هو بين الكاثوليك والبروتستانت عند المسيحية. واليوم فأن شمال العراق من السنة، وجنوبه من الشيعة وهو إنقسام له أهمية سياسية ملحوظة. وباللغة العربية فأن كلمة شيعة تعني (حزب) إلا أنها أستعملت حصراً لحزب علي، إبن عم النبي ﷺ و (Son in low) الذي يعتبره الشيعة الخليفة الشرعي الأول المفترض، بينما يؤكد السنة أن أبو بكر هو من أخلف النبي ﷺ بعد وفاته، فكان الخليفة الأول.



الانطباعات الأولى عن المعدان

الفصل الخامس

الأنطباعات الاولى عن المعدان

وحد محمد القبائل المتقاتلة في الجزيرة العربية في الفترة الأولى من تاريخهم. وفي غضون عشرة أعوام من وفاته عام 632 ب م إنبثق من الصحراء نفس رجال القبائل المبتلين بالفقر والجدب والعصبية القبيلة سابقاً، وإنتزعوا سوريا ومصر من البيزنطيين، والعراق من الفرس. وفي أقل من مائة عام إمتدت إمبراطوريتهم من جبال البيرنس حتى حدود الصين. وغطت مساحةً أكبر من تلك التي حكمتها روما. وكان هذا إنجازاً أكثر إلفاتاً للنظر في التاريخ، الى أن أخذ الحكم الذي أنشأوه يتمزق بسبب التنافس والثأر.

بدأت المشاكل عندما أغتيل عام 644 ب م. الخليفة الثاني عمر الذي خلف أبو بكر- الخليفة الأول – وكان التالي – عثمان، إلا أنه يمثل البيوتات المتنفذة في مكة، وقد أغتيل هو الآخر عام 656 ب م، وتلاه بالخلافة علي، ولكن كثيرون إعتقدوا أنه متورط بما حدث لعثمان. حينئذ حدثت حرب أهلية. ومعاوية الذي كان أبن أخ عثمان وحاكم سوريا، إرتبط بالمتمردين. ثم كان هناك قتال متقطع ومباحثات غير حاسمة، تعاقبت مرة أخرى حتى عام 661 ب م عندما أغتيل علي نفسه في عاصمته الجديدة، الكوفه جنوب العراق ودفنت جثته في الصحراء.

الحسن، الأبن الكبير لعلي، كان ضعيفاً ومتسامحاً وبحاجة الى قليل من الأقناع ليتنازل عن حقه بالخلافة، وأصبح معاوية، الحاكم القوي لسوريا، خليفة، وأسس الحكم الأموي المشهور في دمشق. وسرعان ماصار النظام الجديد غير مقبول في العراق حيث أن أكثر السكان الذين تحولوا الى الأسلام فيه، لم يكونوا من العرب. وإمتعضوا من عجرفة وإضطهاد حكامهم العرب. ولما مات معاوية، خطط أهل الكوفة للثورة، وأرسلوا المبعوثين الى الحسين، الأبن الثاني لعلي، ناشدوه

المجئ للعراق لقيادة الثورة، واعدين إياه بالدعم الشامل. وافق الحسين، وبدأ رحلته عبر الصحراء من مكة مع جماعة صغيرة من أهل بيته من نساء وأطفال. وفي طريقه وصل لعلمه أن الخيانة قد حدثت وأن قادة الثورة العشرة قد ألقي القبض عليهم وأعدموا. وبدون أن يحبطه هذا، واصل مسيرته ووصل الى حيث كربلاء على الفرات. واجه أربعة آلاف رجل، مصطفين على طول النهر. أرسلهم الخليفة الجديد، يزيد أبن معاوية، لأعتراضه. وبالتأكيد فان الأخير لم يعط أوامره بالقتل، ولا كان راغباً في ذلك، بل يود أما أن ينسحب الحسين، أو يستسلم، لكن الحسين إختار القتال. وبقراره هذا غير تاريخ الأسلام. لم يتحرك لمساندته اي ممن كان في حسبانه، وكانت الأعراف والتقاليد تقول بأن الشجاعة هي من يقف الى جانب الزمرة الصغيرة. وفي العاشر من شهر محرم العربي 680 ب م تقدم الحسين وجماعته الصغيرة من أعدائهم. وقد روي بعدئذ شاهد عيان ليزيد: أن الواقعة لم تأخذ زمناً أكثر مما يأخذه نحر ناقة، ونومة قيلولة.

وصل رأس الحسين الى الكوفة ووضع أمام والي يزيد عليها، فأخذ هذا بعصاه يوخز الفم والشفتين، فخيم سكون مرعب على الحاضرين، لكن صوت رجل طاعن منهم تعالى يقول " واحسرتاه أن أعيش حتى هذا اليوم، فقد شاهدت رسول الله يقبل هاتين الشفتين! " بدأت الشيعة كحركة سياسية بين العرب تدعو الى أحقية علي وسلالته في الخلافة. ولكن بعد إستشهاد الحسين، رسخت نفسها كحركة دينية، وسرعان ما أصبحت ذات قوة في العراق وفارس، مجسدة الأستياء الأجتماعي لعموم الشعب البسيط أمام الأرستقراطية العربية القادمة، وفي وقت أدت الحركة الشيعية الى شق الأسلام بحسم، كما قسم الأصلاح الكنيسة الكاثوليكية*. وفي الوقت الذي يعرف السنة التقليديون علياً بأنه رابع الخلفاء ومن سلالة محمد، يعتبر الشيعة الخلفاء الثلاثة مغتصبين، ويؤمنون بقداسة الأئمة الذين تلوا النبي. وأكثرهم يؤمنون بأثنى عشر من هؤلاء الأئمة، وأن علي والحسن والحسين أولهم، والآخرون هم من سلالة الحسين. وحسب معتقدهم، فأن آخر أمام

* هذا راي خاص للمؤلف ولمستشرقين كثيرين- المترجم

هو محمد المهدي الذي إختفى بصورة غامضة في سامراء، وهم بأنتظار عودته في الوقت الموعود به ليكون المهدي، أو المنتظر.

نمت المدينة المقدسة، النجف، على حافة الصحراء حول قبر علي، وبنى المؤمنون عليه جامعاً ضخماً مع قبة ذهبية، وحتى الآن لا يسمح لغير المسلمين دخوله. ومن أماكن بعيده، وحتى من الهند، يرسل الناس موتاهم ليرتاحوا في هذه الأرض المقدسة، لأن علي، عند الكثيرون، قديساً ذو صفة شبه إلاهية، اكبر حتى من النبي نفسه. وللمسلمين الأصوليين فأن الشهادة تنص على : " أشهد ان لا إله ألا الله، وأن محمد رسول الله " ولكن الشيعة أضافوا " وأن علياً ولي الله ". أما الحسين فقد دفن في كربلاء حيث سقط، وسرعان ما أخذ الناس يزورون هذا المكان للصلاة فيه، ثم نمت المدينة حول جامع رائع يحوي بقايا أعظم شهيد عند الشيعة. وكلا النجف وكربلاء أصبحتا هدف الحجيج من كافة أنحاء العالم.

كان سكان الأهوار عندما زرتهم لاول مرة يرتابون بكل ما يتصل بالعالم الخارجي. وقد يذهبوا من كباب الى المجر الكبير للتسوق، وقلة الى العمارة التي تبعد عشرين ميلاً بعدها، وربما واحد أو أثنان كان قد زار البصرة أو بغداد، لكنهم جميعاً يحلمون بزيارة كربلاء والنجف، وكل انسان هناك يتمنى ان يدفن بعد موته في النجف.

في طريقنا الى (الزاير) إقترح صدام أن نزور التاجر صاحب الدكان، فركبنا زورق صدام وجذف فيه عجرم، وذهبنا لأقرب مجموعة بيوت، إثنان منها كانا مبنيين بجزيرة واحدة، وقطعة قماش بيضاء تشبه الراية قد علقت فوق قصبة على سطح البيت الكبير. قال صدام " توضع علامة على الحانوت مثل هذه دائماً لترشد الغريب ويعرف المحل "

كانت بقرتان صغيرتان بنيتا اللون وثلاث خراف ملطخة بالوحل تأكل من كومة قصب أخضر. تقدم صاحب الحانوت نفسه الى حافة الجزيرة ليحينا وللأمساك بالزورق. غطس البردي الذي يقف عليه عدة بوصات تحت قدميه في الماء القذر بفضلات الحيوانات وبقايا أخرى. وبني بالقرب مرحاض فوق المياه من أرضية

قلقة من القصب محاطة بستار واهي من حصران ممزقة. كان هذا ما إعتبرته تطوراً مدنياً، فالعادة كانت أن يجذف الرجل بزورقه لأقرب تجمع للقصب، ثم يجلس القرفصاء على جانب زورقه، وهي طبعاً مهمة غير سهله، ويفرغ ما فيه.

عندما خطونا للساحل، قام ابن صاحب الحانوت بتهديد أحد الكلاب بضربه بمجذافه على رأسه، وطارت دجاجتان الى سقف الكوخ. كان باب الحانوت مصنوعاً من خشب صناديق، وبه قفل مع سلسلة. قدم لي التاجر (صاحب الحانوت) صندوق شاي فارغ لأجلس عليه وطلب الى إبنه تهيئة الشاي. لم يكن هناك الكثير لشرائه، كيسان، واحد للسكر وآخر للطحين، وعدة صرر للتمر، وصندوق للشاي ياباني رخيص، وصفيحة كيروسين، وعلب سكائر عراقية وكبريت وبعض قطع الصابون، وعقال مترب. تذكرت أنني شاهدت التاجر في مضيف صدام حيث كانت إحدى عينيه ملتهبة، وأراه الآن يمسحها بطرف غطاء رأسه بين فترة وأخرى. من خلال فتحة الباب شاهدت بريبة فتاة تملأ غلايتها بالماء من قرب زورقنا وهي تزيح الروث الطائف جانباً. لكن الشاي الذي قدم له طعم جيد. وعندما كنا بأنتظاره سألت صدام عن المواصفات المطلوبة ليسمى الشخص (زاير) فشرح لي بأن عليه أن يزور ضريح الأمام علي الرضا، الأمام الثامن في مشهد بخراسان شمال شرق فارس.

كنت محظوظاً لأنني زرت مشهد في الشتاء الماضي. شاهدت المسجد وطفت حول الضريح، وهو ذلك البناء الذي إعتبره روبرت بايرون اجمل بناية في فارس لما دخل متنكراً عام 1933. وحتى في عام 1950 كان من الصعوبة جداً أن يدخله غير مسلم. في نفس الجامع يوجد قبر الخليفة الشهير هارون الرشيد المقوت من قبل الشيعة لتسببه في وفاة الأمام علي الرضا. وعموماً فأن في جنوب العراق من زار مشهد أكثر ممن زار مكة، رغم أن المسافتين متساويتين تقريباً. وخلال سنواتي في الأهوار قابلت العديد من (الزاير) ولكني أتذكر ثلاثة حجاج فقط.

بالرغم من أن الشيعة يعتبرون كربلاء والنجف أكثر قدسية من مشهد، فأن من حج إليها لا يلقب بكنية. وقبل سنوات قليلة عندما كنت في وسط افغانستان

بين الهزار ، وهم أيضاً من الشيعة ، وجدت ان أي إنسان زار كربلاء (والنجف طبعاً) يدعونه (كربلائي) ولكن من حج الى مشهد القريبة إليهم، لالقب له. يبدو أن الأمر له علاقة بالمسافة. كان بيت الزاير واحداً من عدة بيوت تنفصل عن بعضها بخنادق فيها مياه قذرة بعرض عدة أقدام. وفي نهايتها المفتوحة توجد ساحة مزروعة طينية تغطي مساحة أكبر من البيت نفسه وأرضها خليط من نباتات متفسخة وسماد ، ترتفع بضعة بوصات عن مستوى الماء، محاطة بسياج من القصب بعلو أقل من قدم واحد، وخارج جدران البيت صفوف من أقراص الروث* تركت لتجف تحت الشمس، وأمرأة مسنة ترتدي السواد وصبيتان بملابس ملونة تحت الشمس في المدخل. توقفنا ثم ترجلنا عند الساتر، ودخلنا البيت بعد أن دفعنا الجواميس جانباً ، وقد أدارت رؤوسها دون ان تعيرنا أي اهتمام. كان أحد العجول يقف في المدخل. وكتاكيت صغار تعدو بين اقدامنا، وأمرأه اخرى ترتدي السواد ككل النساء المسنات في القرية قالت:

- " أهلاً صدام" وأزاحت جانباً طفلاً عارياً صغيراً لنمر.

كان داخل البيت حوالي ستة ياردات طولاً وياردتين عرضاً وثمانية أقدام إرتفاعاً ، وبسبعة أقواس. وقد علمت بعدئذ أن كل البيوت والمضايف هناك تعارف أن يكون عدد أقواسها فردياً. الغرفة مقسمة الى قسمين بتركيبة تشبه السرير، مصنوعة من سيقان القصب تثبت جنب الحائط الأيسر حيث كدست أكياس من شعر الماعز تحتوي حبوباً. وتشكيلة من اللحف وبقايا ملابس وقطع قماش بالية وعليها أعمدة مشاحيف. القسم القريب من البيت خصص للنساء حيث يقمن بالطبخ. إلتمسنا طريقنا للداخل، وعبرنا خلال أثاث بسيط من بينه هاون خشبي كبير، وممخضة لبن مصنوعة من الجلد ومعلقة بقاعدة أعواد ثلاثية، وقرصي مطحنة صخرية ذات مقبض خشبي، والعديد من الصحون والصواني والدلال مبعثرة بجانب نار صغيرة. في نهاية الغرفة كان الزاير يصلي صلاة العصر على عباءته المفروشة

---

* تسمى عند أهل الجنوب – المطّال- المترجم

بدلاً عن سجادة صلاة. وهذا هو النصف المخصص للرجال حيث يكرم الضيوف. وهناك بساطان رثان وقذران مفروشان على حصران القصب، وبضعة وسائد صوفية تلمع بطرازها الهندسي الملون. قال صدام متصرفاً كمضيّف " أجلس هنا وأعتبر نفسك في بيتك "

بعد طول إنتظار أنهى الزاير سجداته وجلس يدمدم بآخر صلواته، ماسحاً لحيته، وملتفتاً فوق كتفيه يميناً وشمالاً. نهض ورفع عبائته وقال : " مرحباً "

كان الزاير رجلاً طاعناً ومتميزاً، محدوب الظهر بوجه تكسوه مسحة من الزهد مع أنف كالمنقار ولحية شهباء. لم يكن يرتدي غير غطاء رأس إعتيادي، ورداء أبيضاً طويلاً وخفيفاً حتى تظنه شفافاً.

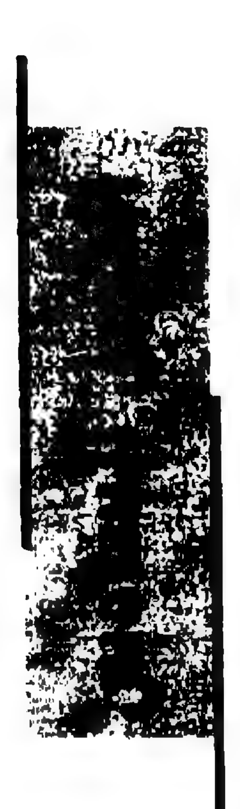
أخذ وسادة أخرى ووضعها فوق واحدة كانت بجنبي قائلاً " الآن إتكئ عليها وسترتاح أكثر " ثم أشعل ناراً في فتحة بالأرض بين الحصران فيها حشائش يابسة، وعندما إشتعلت النار أضاف إليها أقراص مجففة من روث الجاموس بإمالة كل واحدة أمام الأخرى كورق اللعب. إمتلأت الغرفة بدخان أبيض حريف أدمع عيني، فقال صدام معلقاً " هذه القطعة لا زالت طرية " وأخرجها من النار، إلا أن الدخان ظل على كثافته.

جلب الزاير أدوات الشاي وجلس قرب النار. غسل أقداحه وصحونه وملاعقه في سلطانية مطلية بالميناء. مسحوق الشاي كان في قطعة ورق ملولبة، والسكر بعلبة صفيح صغيرة. وبينما كان الأثنان يتناقشان حول حصة القصب التي طلبها فالح لبناء مضيف أبيه الجديد، عاد إبن الزاير داخلاً بعد أن أفرغ الحشيش وأطعم بعضه للجاموس وأدخل الباقي للبيت. كان يبدو في العشرين من عمره، عاري الرأس، وقد قص شعره كطاسة مقلوبة. عاري الجسم إلا من عباءة شدت الى خصره. أسند فالته عند الزاوية، وارتدى رداءً قبل أن يلتحق بنا. قال صدام " سأذهب الى بو مجيفات وأرى صحين غداً. عليه أن يرسل ملء زورقين من القصب من قريته. " هتف الزاير " نعم. والله يا صدام لقد أرسلنا حتى الآن كل القصب " أضاف إبنه "

إن أهل صحين يخرجون دائماً أنفسهم من كل شئ. وهذا ديدن الفريجات. كل ما يقومون به هو المشاكل ".

في ذلك المساء، وعند مضيف صدام ثانية، كنت أقف أراقب الشمس وهي تهبط خلف مناطق القصب الممتدة الى نهاية العالم. وفي العلو فوقنا هناك غيوم متراكمة تتلاعب بها أشعات ممزقة بألوان الأبنوس والذهب الملتهب، ولون العاج القديم الأخضر الباهت. ومن كل ما حولنا، وكما لو كانت الأهوار تتنفس، تتصاعد الأصوات الجماعية لنقيق الضفادع ونبض شامل للصوت مستمراً حيث يكف الفكر عن الملاحظة. وحتى في الشتاء: حيث صراخ الوز البري، كانت هذه الأصوات هي لغة الأهوار، كلب ينبح، رغاء جاموسة بصوت غريب كصوت البعير، ورجل يصيح بغموض .. وصمت.. وآخر يجيب... وجواميس أكثر تسبح في الماء نحو القرية ولا يرى منها إلا رؤوسها، تاركة ورائها أثراً على سطح الماء.. وتتصاعد أعمدة دخان كثيف فوق البيوت من نيران صغيرة توقد لتطرد البعوض عن قطعان الجاموس.. وصبي عائد متأخراً من مناطق القصب جاذفاً بزورق خلال ممرات المياه، حيث ترسل الشمس الغاربة أشعتها الذهبية، يشدو بنعومة وهو يتقدم نحوي، ولحن أغنية تنتشر ببطء في الهور.

صاح علي صدام ، وذهبت للداخل.



في مضيف صدام

الفصل السادس

في مضيف صدام

خلال السنوات الأخيرة قرأت كل ما وجدته عن المعدان، وكان قليلاً. ربما كان الكتاب الوحيد (الحاج ريكان: عربي من الهور) لفلانين (سي. إي. هجكوك) هو الذي وجدته يصف بتعاطف حياة رجال الأهوار في نهاية الحرب العالمية الأولى. وغير ذلك لم أجد إلا مصادر رسمية كلها لحساب حملة وادي الرافدين. وبالتأكيد ان لكلمة (معدان) وقع سئ لدى العرب والأنكليز على السواء. وحرفياً كلمة معدان في اللغة العربية تعني القاطنين في عدن أو السهل. ويستعملها البدو في الصحراء إزدراء ليعرّفوا بها القبائل التي تسكن على النهر في العراق. أما المزارعون على طول الأنهر فيكنون بها رجال الأهوار للحط من قدرهم. كل العرب متكبرون، وكلما زاد حجم أي قبيلة بأصالة منشأها، كلما إزداد إحتقار أفرادها لرجال الأهوار لأصلهم المشكوك فيه، وكلما زاد إستعدادهم لوصفهم بالغدر وكل صفات الشر. ويخافهم أيضاً أهل المدن المتقلين صعوداً ونزولاً بنهري دجلة والفرات، ويتجنبوهم لكل ما سمعوه عنهم. وسمعة المعدان سيئة حتى مابين الأنكليز في العراق. وجاء ذلك كما أعتقد منذ الحرب الأولى حين كانوا مستترين بالأهوار يقتلون ويغنمون من كلا الطرفين المتقاتلين دون تمييز.

وخلال السنوات القليلة التي كانت خلالها بريطانيا تدير العراق كان الضباط السياسيون مشغولين بأمور طارئة وجدوا أنفسهم متورطين فيها أكثر من اهتمامهم بالمعدان. والعديد منهم جابوا الأهوار بكثرة، إلا أن زياراتهم ماكانت لتطول أكثر من بضعة أيام. وفي السنوات الأخيرة جاء الى الأهوار عدد من الأوربيين من البصرة وبغداد لغرض صيد الطيور، لكنهم مكثوا عند الشيوخ الأغنياء على حافة الهور. أما بالنسبة للأداريين، فأنا على يقين بأن أي واحد منهم لم يذهب لعمق الأهوار إلا

عند الضرورة القصوى. ربما كنت الأجنبي الوحيد الذي عاش بين المعدان كواحد منهم لرغبتي أنا، وللفرصة التي سنحت لي.

كأكثر الأنكليز من جيلي ونشأتي، أتعاطف غريزياً مع حياة الآخرين التقليدية. كانت طفولتي في الحبشة التي لم تكن فيها سيارات وطرق، ثم بعد ذلك حين غادرت أوكسفورد، عشت ثمانية عشر سنة التالية في أماكن قصية من أفريقيا والشرق الأوسط. كل هذا جعل الأمر سهلاً أن أتناغم وأعاشر بشر القبائل، وأكيف نفسي لطرقهم في الحياة، وأجد الاهتمام في معيشتهم. ولكن يصعب عليّ في وطني أن أتلائم وأولاءك الذين نبذوا عاداتهم وحاولوا تطبيع أنفسهم بمدنية غربية. وفي العراق، وكما في أي مكان آخر، لايمكن تجنب هذا التغيير. وأنا أعلم أن آخرين لهم سعة فكر أكثر مني، وجدوا أن العملية مثيرة للأهتمام وآمنوا بقيمة نتائجها. وبكل الأحوال، فأنا أفضل أن ألقى أقل النتائج الممكنة. فمثلا أشعر بخيبة أمل عندما أضطر لأقضي ليلة عند إداريين عراقيين، وألوم نفسي، مادام مضيّفيني ودودين لآخر درجة، لأن إنهماكهم هو بالاهتمام بالسياسات العراقية التي لاأعرف عنها إلا القليل. والتي لا أعيرها أهمية، بينما كان أهتمامي بالقبائل قد لاح لهم مبهماً، وربما هدفاً شريراً. كنا نتكلم لساعات حول الامم المتحدة، وحلاوة الاجازة في باريس، وانواع السيارات، أو تقدم دولتهم. ولغرض إظهار الاسلوب الحسن، إضطررت للنفاق المطلق بالمجاراة. بيوتهم مريحة، بالمقارنة بأماكن عديدة نمت فيها، ذات بناء رخيص من طابق واحد وبذوق مقيت. لقد قادتهم ثقافتهم الى الحكم على المدنية بالكامل بمقدار التقدم المادي، وبالتالي فقد كانوا يخجلون من خلفية جذورهم، ومتلهفين لنسيانها. لقد كان السكن في ضواحي المدن بطول العراق وعرضه هو حلمهم للمدنية الفاضلة. ربما كان ذوقي قد ذهب بعيداً حتى الأفراط، مشمئزاً من السيارات والطائرات وأجهزة الراديو والتلفزيون. وبالحقيقة كل ما لدينا من مظاهر المدنية في الخمسين سنة الماضية. وكنت دائماً سعيداً في العراق وفي أي مكان آخر أن أشاطر راعياً في كوخه المملوء دخاناً، مع عائلته وبهائمه. كان إعتمادهم الكلي على الذات يجعلني مطمئناً ومفتوناً بالشعور

بالتواصل مع الماضي. أحسدهم على قناعتهم النادرة في العالم هذه الأيام، وعلى مهاراتهم المتنوعة، رغم بساطتها، التي لا أمل لي في الحصول عليها.

قضيت سنوات عدة في الاستكشاف، ولكن لم يعد الآن هناك مكان لاستكشافه، على الأقل في البلدان التي جذبتني إليها. وعليه فقد أصبحت أميل للأستقرار بين ناس من إختياري. في الجزيرة العربية كنت قريباً جداً من رفقائي، ولكن السفر الدائم منعني من التعرف على الواقع الأجتماعي كما أرغب، ان القليل الذي رايته حتى الآن عن رجال الهور، قد راق لي، فقد كانوا مرحين، ودودين. أحببت سيمائهم. وطريقتهم في الحياة، التي لم تتأثر بعد بالعالم الخارجي، فذة. والأهوار نفسها جميلة. وهنا، وشكراً للاله، لاتوجد أي علامة للعصرية الرتيبة التي تبدو ببزة ملابس أوربية مستعملة، والتي انتشرت كآفة في مناطق العراق الاخرى.

كان صدام وحده في الغرفة يصنع القهوة. وعندما جلست قدم لي فنجاناً، ودفع الطرف المشتعل لحزمة قصب للعمق تحت الدلة وقال:

- " صاحب، ماذا تعتزم أن تفعل ؟ "

وباللغة العربية فان كلمة (صاحب) تعني ببساطة: صديق ثم أردف " أرسل لي فالح يقول أنك ترغب في زيارة الأهوار. هل تعمل من أجل الحكومة ؟ "

- " كلا. انا أتنقل لأنني اتمتع بمشاهدة أماكن عدة وأنواع مختلفة من البشر."

- " من يدفع مصاريف سفرياتك؟ وكم تحصل مقابل ذلك؟ "

- " ليس لي راتب، وانا أصرف من مالي الخاص لرحلاتي ".

- " كم هو غريب. " ولم يقل صدام شيئاً بعد ذلك لدقيقة أو دقيقتين. كنت واثقاً أنه لم يصدقني فقلت:

- " لقد تجولت في عدة بلدان، في أرض الحبشة، في السودان، في الجزيرة العربية. لقد جئت هنا مباشرة من كردستان. أنا أبحث عن المعرفة. "

وأملت أن أكون قد أقنعته، لأنه بالتأكيد لن يصدق اذا قلت له أنني أسافر لمجرد اللهو. نظر إلي بريبة وتسائل:

-" هل تبحث عن المعرفة عند المعدان ؟ "

أجبت باختصار – " المعرفة توجد في كل مكان "

وبعد سكون سألني " هل تعرف كرملي؟ لقد كان القنصل بالعمارة "

-" نعم كنا سوية في الحرب "

-" كان صديقي، ويحب المؤانسة. أين هو الآن ؟ "

-" لا أعلم "

-" هل تعرف وشبورن في بغداد ؟ "

-" إلتقيت به مرة في سوريا "

-" هل تعرف إدموند ؟ "

-" نعم في إنكلترا "

-" نعم إدموند رجل جيد. صديقنا، كان حكيماً. هل هو بخير ؟ "

-" نعم والحمدلله هو بخير. يرسل تحياته "

في العراق ذلك الوقت كان لايزال للأنكليز ميراث جدير بالأعتبار من الأدارة الجيدة * نتيجة للأتصال القوي مع البلد بين الحربين العالميتين عندما عمل الأنكليز هناك كضباط إداريين ومستشارين. والعديد من السكان القدامى إستمروا بشعور الأحترام للأفراد. ورجال القبائل عموماً يحاولون الحيلولة دون إرباك الضيف، ولكن أحياناً أهاجم بمرارة من بعض رجال المدن أو موظفي الحكومة على السياسة البريطانية- فلسطين والسويس مثلاً. وفي مناسبات كهذه فأن ذكر إسم لأنكليزي يعرفونه قد ينقلب من ذكريات ودية الى مرارة، قال صدام – " ماذا تضع في هذه الصناديق ؟ "

* هذا رأي المؤلف، وبالتأكيد لا يؤيده فيه أبناء العراق – المترجم

- " أدوية "

- " هل أنت طبيب ؟ "

- " أعرف شيئاً من الطب "

- " هل لديك دواء لرأسي؟ إنه يؤلمني "

- فتحت صندوقاً وأعطيته حبتي أسبرين فقال:

- " أعطني أكثر، صاحب، فهذا قليل "

فناولته ستة اخرى وحذرته من أخذ أكثر من حبتين لمرة واحدة

- " ولمعدتي ؟ لدي ألم هنا أيضاً " و أشار لبطنه. فاعطيته بعض حبوب صودا منت.

- " ماهذا ؟ " وأشار الى قنينة

- " هذا يود "

- " وهذا ؟ "

- " هذه صبغة جنشين البنفسجية، للحروق " وأغلقت الصندوق بأحكام.

وساد بيننا صمت وهو يناولني القهوة مرة أخرى وسأل:

- " الى أين ترغب التوجه ؟ "

- " أود أن أقطع الأهوار الى الفرات والعودة خلال منطقه الفرطوس حيث كنت قد أجتزتها السنة الماضية مع القنصل "

- " هل إلتقيت جاسم الفارس ؟ "

- " كلا لم يكن هناك عندنا زرنا قريته. أبنه فالح أستضافنا "

- " أنا لا أعرفه. أبق هنا، فهذا أحسن. سنذهب للصيد معاً، طيور خنازير، أي شئ ترغب. "

- " شكراً لك ياصدام، سأعود حتماً، ولكن أود أولاً رؤية الأهوار "

- " صاحب، الأهوار كبيرة، وبعد دجلة تمتد الى فارس، ليس بأمكانك رؤيتها في سنة. "
- " لايهم. أنا آمل أن أرى ما أتمكن رؤيته. "
- " حسناً جداً. سنذهب غداً الى بومجيفات، فلدي عمل هناك. ونتناول غداءنا عند صحين. وفي اليوم التالي سأذهب بك الى الفرات عن طريق (زجري)، وهي بحيرة عظيمة لكنها سيئة عند هبوب الرياح، والكثير من المعدان غرقوا فيها ".

وفي الغداء الذي تناولناه وحدنا، قدم صدام لي سلطانية من حليب الجاموس، ولم أكن قد جربت شربه قبلاً، وكنت أفضل عليه حليب البقر. بعدئذٍ إمتلأت الغرفة، وكنت أجلس مستنداً الى الحائط خلفي استمع الى الأحاديث. كان أكثرها ليس عني، فقد تحدثوا أيضاً عن مزارع الرز، مستعملين مصطلحات لاأعرفها. تساءلت : " هل تزرعون الرز في كباب ؟ "

- " نعم كنا في الماضي، ولكن الفيضانات لم تعد تجلب الغرين. وكباب إنتهت من زراعة الرز، فأنت ليس بأمكانك إنماءه بدون غرين جديد، وهذا العام سنطلب من مجيد أرضاً لزراعته قرب مدخل النهر "
- " تعني أنكم ستتركون المنطقة هذه ؟ "
- " بالطبع لا، هذا وطننا. نحن معدان. وأولئك الذين يرغبون بزرعه سيفعلون عند حافة الهور، ولكنهم جميعاً سيعودون الى هنا "

بدأ أثنان جدالاً غاضباً حول مقدار مهر عروس لم يبت به بعد. إشترك الكل فيه. حاول والد عجرم أن يؤكد القانون. إلتفت إليه صدام قائلاً " حسين: غداً أنا والأنكليزي سنأتي إليك لتناول طعام الغداء معك. ونأمل أن يكون غداءً رائعاً " فكانت هناك فترة صمت اخرى، ونظر الجميع نحو حسين الذي قال بتمهل " مرحباً " ولكنه قالها بدون أقتناع، ثم أسرع يقول " وحليب أمك صدام، عليّ أن أذهب غداً

للمجر " إبتسم بعض الحضور، وشعرت بأن حسين قد تضايق، وعلمت بعدئذٍ أنه مشهور بالبخل.

- " إذهب للمجر بعد غدٍ. غداً سيشرفك الأنكليزي في بيتك " أجاب حسين " نعم. أنا أتشرف " قال صدام " عند الظهر. لحم وحليب ورز "

إستنجد حسين بالآخرين " كلكم تعرفون أن عليّ الذهاب غداً للمجر لأن لي موعداً مع أبن عم زوجتي. "

تساءل صدام " ذاك الذي توفي العام الماضي ؟ "

- " لا. حقيقة يا صدام. أقسم بعمرك. بالعباس يا صدام "

- " والله ياحسين اليوم الذي تستضيف فيه ضيفاً سيكون يوماً لن ينسى. إنه مخزي "

وشعرت بأسف لعجرم. وعندما غادر الضيوف أخيراً، أوكل صدام عجرماً وصبياً آخر لقضاء الليل في المضيف قائلاً: - " ضع حاجيات الانكليزي بينكما والمصباح فوقه. أحدكما يبقى مستيقضاً، وسأقتلكم إذا ما سرق منه شئ. بندقيته سآخذها معي لبيتي للمحافظة عليها أكثر. " وقال لي: " ستكون هنا في أمان، ولكن المعدان لصوص. قام بعضهم الأسبوع الماضي بسرقة مشحوفي. يحرقهم الله. وحتى الآن لم أستعيده. وقبل شهر دخلوا حانوت التاجر ليلاً وسرقوا كل مافيه. عندما تكون في الهور، نم فوق بندقيتك، وإلا فستسرق حتماً. ليس من أهل البيت، بل من آخرين، وربما من قرية آخرى. قبل سنوات جاء الوصي الى المجر وكان هناك كل الشيوخ مع رجالهم، لقد كان تجمعاً حاشداً. كان لدي أحد رجال مجيد برنو جيدة، دفع ثمنها مجيد أكثر من مائة دينار، وكان الرجل فخوراً بها، وأراها لكل شخص. طلب أحد المعدان ان يشاهدها فأعطاها له، وفجأة غاص المعيدي في الحشد الكبير ولم يُر ثانية ولا البندقية، لقد إهتاج مجيد حينها ".

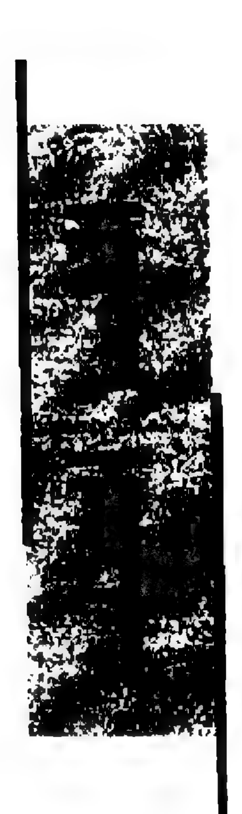
جلب خادم صدام حصيرة، ولحافاً وقال له صدام : " ضعها هنا، لاهناك يا أبله، وأجلب الوسائد "

قلت له أن لدي بطانيات، فقال " أنت لا تحتاجها هنا ، انت في بيتك " ثم رتب الوسائد ، ودعى لي بليلة سعيدة ، وحذر عجرم " اذا نمت سأسلخ جلدك ". وهو إنذار كان يبدو أنه قادر على فعله.

ذهبت الى الخارج قبل النوم. لم يكن هناك قمر تلك الليلة والظلام حالك. صاح عجرم " إحذر من الكلب ! "

كانت النجوم تلتمع كبريق الماس، وانعكاسها على سطح الماء عند قدمي. وكان الهواء هادئاً بلمسة شتائية. في بضعة بيوت كانت أضواء النار لا زالت تتوهج من فتحات أبوابها. وحط أحد طيور البط عن قرب، وسمعت صوت رشق الماء.

ومرة أخرى كنت واعياً لنقيق الضفادع الإيقاعي.



بوجحيفات: قرية في الهور

الفصل السابع

بومجيفات: قرية في الهور

عندما إستيقظت، لم تكن الشمس قد إرتفعت بعد. وكان عجرم قد أعاد إشعال النار باقراص روث الجاموس المجففة. ودوامة الدخان الحريف قد ملأت الغرفة.

- " صباح الخير صاحب. هل نمت جيداً؟ "
- " صباح الخير عجرم، نعم نمت جيداً، وأنت ؟ "
- " أنا لم أنم. كنت أحرس حاجياتك "

طوى الفراش، وأخذ ابريقاً، وفي زاوية في الغرفة أخذ يصب الماء الفاتر على يديّ مضمومة أصابعها كي أغسل وجهي وامضمض فمي. وأستدعاه صدام للمجئ إليه وحلب الجاموس، وذهبت لأراقب.

كان دخان نيران عديدة قد علق بالهواء كضباب فوق القرية. وللبحيرة سطح كالزجاج ولون الطبيعة وكل شئ، لطيف. الهواء بارد ورطب. كان سطل الحليب قد قطع من كتلة خشب واحدة ودبب من القاعدة الى حد لايجعله يستقر عمودياً اذا ترك. ناول خادم صدام الدلو الى عجرم، الذي أقعى جنب الجاموسة واضعاً السطل بين ركبتيه. كانت هناك أربع جاموسات وعجل. وتساءلت مع نفسي: لماذا طلب صدام من عجرم إداء هذا العمل بدلاً من خادمه، ولم أدرك حينها أن هناك القليل من الرجال من يعرف حلب الجاموس: وهو نقص في ناس تتمركز حياتهم حول جواميسهم. تمتلك بعض العوائل في كباب حتى خمسة عشر منها، ولكن العدد الاعتيادي يتراوح بين ستة وثمانية، وتقف عادة أمام كل بيت واحدة على الأقل.

لم أندهش عندما وجدت أن النساء لايسمح لهن بحلب الجاموس، فقد وجدت أيضاً ان البدو في الصحراء العربية لايسمحون أبداً لهن بحلب الأبل. وبالعكس،

فعند قبائل الرعاة خارج الأهوار وكذلك الأكراد لا يقوم الرجال أبداً بحلب النعاج والمعز، لانها مهمة المرأة تحديداً. كما أن الرجل في الأهوار لايقوم بعمل سحق وطحن الحبوب، ولايصنع أقراص روث الجاموس وتجفيفه للوقود ولكننه قد يجلب الماء إن لم تكن هناك إمراة تقوم بذلك. وهذا التحريم شائع بين الناس البدائيين، فقد فقدت إرسالية كاثوليكية في بلاد الشيلوك في جنوب أفريقيا مريديها عندما إستخف القس بأحتجاجات الشباب لأن النساء فقط يقمن بطلاء داخل البيت بالطين.

عندما إنتهى عجرم، تناولنا الأفطار شرائح من خبز مسحوق الرز وحليب الجاموس الحار والمحلى بالسكر. ثم أرسله صدام لجلب المشحوف مع ثلاثة رجال ليوصلونا الى بومجيفات. هنا في كباب، يمتلك صدام قوة الأستبداد، ويغرم ويضرب بالسياط القرويين ساعة يشاء. ويفرض الضرائب على التجارة المارة بأراضيهم. لقد كان ممثلاً لمجيد. وفي الأهوار تقتنع الحكومة ببقاء السلطة بيد الشيوخ.

كان مجيد أحد أعظم شيخين لعشيرة البو محمد التي عدد أفرادها عشرون ألف، والمستوطنة على دجلة وفروعه العديدة التي تصب في الأهوار من العمارة وحتى العزير. والشيخ الآخر هو محمد العريبي المسن والذي تقع أملاكه في الجهة الشرقية لدجلة. وأيام الترك، كانت العشيرة تعتمد على زراعة الرز الذي يبذر على أرض تغرق في فيضان الربيع كل عام. وحديثاً جداً، وبدخول المضخات الميكانيكية، بدأ كثير منهم زراعة المحاصيل الشتوية من شعير وحنطة. ورغم أن كل عائلة تقريباً تحتفظ ببعض الجاموس، فأن أفراد العشيرة، ألا بعض أقسامها التي تعيش داخل الأهوار، يعتبرون فلاحين وليسوا معداناً. عائلتين أو ثلاثة من البو محمد عاشت في كباب نفسها، أما باقي القاطنين فيها، فهم من الفريجات، شغانبة، أو الفرطوس. وهذه العشائر، مع من يعيش من البو محمد في الأهوار، تعتبر من المعدان رغم حقيقة أن أكثرهم يزرعون الرز.

إن الشيوخ في لواء العمارة الذين تحاذي أراضيهم الأهوار، إكتسبوا الحق بملكية القرى في الداخل، حتى لو كانت القرى قد سكنها ناس من قبائل أخرى. ويأخذ الشيخ حصةً من محصول الرز، اذا كان هناك منه، ولايسمحون لأحد بالأتجار فيه إن لم يدفع لهم. ويصرون على القرويين ان لا يبيعوا السمك ألا لهم ولمن يرخصونه. والمعدان مطالبون بالقصب اليابس لبناء بيوت ومضائف الشيوخ. وفي بعض الحالات يفرضون عليهم رسوماً عن الجواميس. ويفرض ممثلوهم بالطبع رسوماً أخرى لأغراضهم الخاصة. ويتذمر القرويون من هذا النظام ولكنهم يرتضونه صاغرين.

بالمقابل، فأن على الشيوخ وممثليهم، الحفاظ على السلام وبسط العدالة التي يعرفونها. فرجال العشائر يرهبون قضايا المحاكم، حيث عليهم أن يدفعوا الأجور الغالية للمحامين والرشاوي. وقد يضطروا للبقاء بعيداً عن بيوتهم مهما طالت القضية. واذا ما أدينوا، فقد يسجنوا في المدينة بعيداً عن أقربائهم، وهو وضع مرعب، فقلة منهم كانت قد ذهبت لبضعة أميال خارج الأهوار. قد يغرمهم الشيخ أو يجلدهم، وربما يسجنهم لفترة في قريته، ولكنه سيتعامل معهم في مضيفه بين ما يعرفونه حولهم وبحضور زملاءهم. وقلة قد أدينوا، ولكنهم في الحقيقة لم يستحقوا ذلك.

كان صدام أبن عم مجيد. وبصورة عامة، فأن الشيخ عادة يعطي هذا المنصب لأحد عبيده المخلصين. ان كل العبيد في العراق أحرار. ولكن رجال القبائل يعتبرون الرجل عبداً إذا كان أسلافه كذلك*. ولكن هذا لايعني ان يعامل بشكل سئ أو ان يحتقر. كثير من العبيد سجلت أسماؤهم كتابعين للشيخ. والبعض لديه القوة والأحترام، وكثيراً ما سمعت من يتحدث عنهم بحسد. بعضهم قد يكون أخاً بالرضاعة للشيخ أو لأبنه. وكثير منهم، من له دم عربي أكثر، لايمكن تمييزه عن رجال القبائل المحليين باللون والمظهر. ولكن بالرغم من أن للعربي الحق في أن يتزوج

* المقصود بالعبد هنا صاحب البشرة السوداء وواضح ان صدام لم يكن كذلك - المترجم

فتاة عبده، يكون الموت بأنتظار العبد إن هو لمس أمرأة حرة، وللثأر من هذه الأهانة، فان على أقربائها مطاردته وقتله، حتى لو كان قد تزوج بها.

لقد تحقق لي ان صدام هذا لم يكن محبوباً، فقد كان متغطرساً واستبدادياً ولايمكن ضبط طبعه عند الأثارة. والقرويون يشكون من أنه يستغل موقفه ليعتني بنفسه. إلا أن كل واحد منهم سيعمل الشئ نفسه لو وجد الفرصة. لقد سلموا بسماحته، وأعجبوا بطبعه القوي، كذلك يستمتعون بظرافته التي قد لا تطاق أحياناً. وفي إحدى المناسبات تصرف بشكل لا أخلاقي تجاه جيرانه بأن طلب من قائد زورقه أن يغني مقطعاً شعرياً وهم يمرون بقرية كان قد مات فيها حديثاً أخ لرجل يكرهه صدام، ومراسيم العزاء لازالت تجري فيها. والمقطع كان بهذا المعنى " الله يحرق أخاك الذي مات أمس يا أبن الكلب ".

لكن صدام في النهاية أخفق، وأنهى نفسه. فقد مر زورق كبير محمل بأكياس التمر بقرية كباب في طريقه من القرنه الى العمارة، فخرج صدام من بيته، وبعجرفته أمر مالكه بالتوقف وتسليمه ثلاثة أكياس قبل إستمرار الزورق. فأجاب الرجل أنه يسره أن يعطي صداماً بعض التمر كهدية، ولكن يلعنه الله إن هو تخلى له عما يريد الآن. إندفع صدام للداخل وجلب بندقيته واطلق ثلاث رصاصات فوق رأس الرجل مباشرة. إشتكى الأخير عند مجيد، فطرد صدام في اليوم التالي بخزي. وقد إلتقيت به عدة مرات بعد هذا الحادث وكان فقيراً، إلا أنه استمر مضيافاً ومرحباً كما كان عند حكمه في كباب.

تقع بومجيفات على بعد ميلين عن كباب. بدأنا رحلتنا من مضيف صدام في ممر مائي ضيق، كطريق عام، يربط القريتين. وسألت صدام إن كانت مثل هذه الممرات بين القصب من فعل الانسان أم الطبيعة، فاجابني بأنه عندما يكون الماء منخفضاً، يسوق المعدان جواميسهم خلال القصب فيتكون درب يظل في الأخير مفتوحاً بذهاب ومجئ الزوارق. وصلنا الى مكان وقفت فيه بضعة جواميس مغمورة في المياه وسط الممر المائي. قام الرجل الذي في مقدمة الزورق بلكزها بعموده

الخشبي لعلها تتحرك بعيداً، لكنها لم تعره إلا القليل من الأهتمام، حتى عندما حاذاهم الزورق وحك جوانبهم. سألت هل تلمس الجواميس قعر الماء هنا؟.

- " ليس في كل الأمكنة، ولكن عليها أن تتمكن من الوقوف في الماء لغرض الأكل، إضافة الى أنها تحب أن تكون في الماء كتلك التي شاهدناها قبل قليل. وأحياناً، أثناء الفيضان العالي، عليها البقاء على الأرض أمام البيوت، إلا أن الذباب يزعجها فتثور. وكذلك ان لم تكن ترعى بنفسها، سيجد صاحبها صعوبة في توفير الغذاء الكافي لها. لذا فان المعيدي يقضي طوال نهاره بقطع وجلب الغذاء للجاموس ليأكله ليلاً. هذه حياة المعدان. قطع قصب وجلبه للجاموس ليأكل. "وقد علمت أنه عندما ترعى تتغذى على الكات (Polygonum senegallense) والجولان (Jiussiae diffusa) ولسان الثور (Poxamogeton lueens)، وكذلك السيجال وهو نوع من البردي، (Cyperus rotundus)، وانواع من الحشائش التي تنمو في المياه الضحلة على حافات قنوات المجاري.

في بومجيفات ثمانية عشر بيتاً، مجتمعة معاً، تحصرها مناطق قصب. توقفنا عند أكبرها وتسلقنا جرفاً أسوداً لزجاً. ومن خلال شق ضيق حشرنا لندخل البيت. في الداخل عدة رجال محشورين على بساط وبينهم وسائد. قال مضيّفنا، صحين، الذي يعني أسمه حرفياً (صحن صغير):-

- " مرحباً. مرحباً صدام. مرحباً صاحب "

وتزاحم الجميع ليصافحونا. وكغالب المعدان، كانت أرديتهم أما بيضاء وأما غامقة، إلا الأطفال، فيرتدون ألبسة ذات ألوان مبهجة. داخل البيت مشابه لما شاهدته أمس عدا فرق واحد شرح لي صدام أهميته. المدخل كان في جداره الشمالي، مما يدل على أن المسكن هو (ربعة) ، وهي بناء مشترك تحت سقف واحد، كسكن خاص ومحل للضيوف. يحق للغريب عند المعدان والعشائر الأخرى أن يقف أينما يحل لتناول الطعام مجاناً، أو للمبيت لليلة، ولايجوز صرفه. واذا كان هناك مضيف فله أن يدخل إليه، إلا إذا كان لديه أصدقاء في القرية، اما في القرية

التي لا مضيف فيها، فله التوجه الى الربعة. ويمكن لأي فرد في القرية أن يحول بيته الى ربعة، أو يبني مضيفاً، ولكن عليه أن يكون لنفسه منزلة في القرية. وحدثوني عن شاب كان قد جمع مالاً عن عمل له في البصرة، ، وعاد لقريته وبنى على أرضها مضيفاً. إلا أن هذا يعتبر جراة ووقاحة. وعندما مات إبنه، وبعد ذلك زوجته في نفس السنة، لم يتعجب القرويون وقالوا:

- " لم يكن لأبيه مضيفاً، ولاحتى ربعة، واذا أراد أن يبني له منها فكان الأجدر به أن يذهب للسيد ليبارك هذا العمل وإلا فسيبقى الحظ بعيداً عنه."

لي تعليق على ضيافة العرب. روى لي صحين أن ثلاثة من المعدان من قرية كبور القريبة، زاروا البصرة قبل عدة سنين وكانوا أحداثاً ولم يسبق لأحدهم أن ترك الأهوار قبلاً. ساروا في أحد شوارع المدينة الرئيسية، باحثين عن مضيف، وفجأة برز لهم من احدى الدور المفتوحة رجلاً مرحاً ذو كرش قائلاً:

- " مرحباً وألف مرحبا. تفضلوا من هنا "

وأدخلهم الى غرفة كبيره، ، يجلس فيها ناس كثيرون على مقاعد ويأكلون من على مناضد صغيرة.

- " إعتبروا أنفسكم في بيوتكم. ماذا تحبون أن أقدم لكم؟ شوربة خضروات، سمك، لحم، حلويات؟ هل تشربون شربت؟ فقط أطلبوا وسأجلب لكم ما تشتهونه. مرحباً .. مرحباً "

واعتقد الثلاثة أن هذه الطريقة الغريبة للتصرف هي عادة أهل المدن، فمن سمع مضيّفاً يسأل ضيوفه ماذا يريدون؟ على كل حال يبدو أنه صدوق مضياف وهذه طريقة المتمدنين بلا ريب. قالوا له " نريدها كلها. "

- حسناً حسناً. شوربة، سمك، خضروات، دجاج، أيكفي هذا؟ بالطبع حلويات وشربت. دقيقة واحدة من فضلكم "

وإلتفت أحدهم لزملائه قائلاً: " والله إن أهل المدن هؤلاء خيرون. اين تجدون ضيافة كهذه في الأهوار؟ ماذا يقصد آباؤنا عندما أفهمونا بأن أهل المدن أشرار؟"

وجاء مضيّفهم حاملاً أعداداً من صحون الطعام غطت المائدة، ثم جلب ماء للغسل، إلا أنهم رفضوا أن يسكبه لغسل أيديهم، ثم قال : " هيا كلوا. إعتبروا أنفسكم في بيتكم "

ووجد الثلاثة أنه لم يسبق لهم أن ذاقوا وجبة شهية كهذه. وأكلوا وأكلوا .. وكان يردد لهم : " دعوني أجلب لكم شوربة أكثر. دجاجة أخرى " ويقولون له " شكراً.. شكراً لك " وأعلنوا لأنفسهم عندما جلب لهم أكلاً أكثر " أي رجل رائع هذا ؟ "

أخيراً أكدوا له أنهم راضون.. وغسلوا أيديهم وجلب لهم القهوة والشاي، ونهضوا للذهاب قائلين " يشكرك الله ويجازيك خيراً " فجأة تغيرت سحنته وصرخ:

- " هي ! قفوا ! إنتظروا دقيقة. جازاكم الله، أين فلوسي ؟ عليكم ديناران "

- " ماذا تقصد؟ نحن مدينون لك؟ هذا مضيفك. كنا نسير وأنت خرجت منه لتدعونا للدخول "

- " أيها الكلاب. أعطوني فلوسي. معدان. أولاد الكلب. حرامية، انتظروا حتى أدعوا الشرطة "

وفي النهاية إضطروا لدفع دينار ونصف، ولم يبق لهم ما يدفعونه للباص، وأضطروا للسير عائدين الى القرنه.

قال أحد مستمعي صحين " نحن معدان. ماذا نعرف عن المدينة " و قال صحين " كنت في البصرة. الناس في كل مكان. وألوف السيارات واحدة بعد الأخرى " وتسائل أحدهم: " هل حقيقة لايوجد هناك مضيف؟ كيف يعيش الغريب ؟ "

- " عليك أن تدفع عن كل شئ كما نفعل في المقهى بالمجر. " ثم دارت اقداح الشاي بيننا، وقرويون آخرون كانوا قد وصلوا مزدحمين في طرف الغرفة. وفي الطرف الآخر، كانت النسوة يطبخن الأكل. قال صدام لصحين بأن على بومجيفات أن تتبرع بحمل زورقين من القصب الى مضيف مجيد الجديد. وفي الحال سمعت إحتجاجات وجدال حول من سيجلب هذا القصب. كانوا حشداً من البشر

البدائيين، والصبيان منهم أكثر صخباً من الكبار. و صدام الذي كانت أصابعه تتلاعب بحبات مسبحة عنبر، قاطعهم بهدوء ورقة قائلاً: " وأريدها بعد يوم غدٍ" وأثار قوله هذا إنفجاراً، قطعه وصول وجبة الطعام. صحنين كبيرين من الرز الدبق ودجاجتين.

بومجيفات هي إحدى قرى الفريجات. وكان صحين كليط أو زعيم جزء العشيرة التي يعيش فيها. وهو منصب وراثي مهم. كان في الأربعين من عمره، يتميز بسيماء من ثبات البنية. وخلال الجدال قبل الأكل، كان الوحيد الذي لم يستثار. وتنزل من طرف ذقنه لحية مشذبة مع الشارب القصير المعتاد. وأخوه حافظ، في حوالي الثامنة عشر، هو من جلب الطعام مع صبيين آخرين.

في السنة الماضية، وعندما كان حافظ يحرس محصول رزه ليلاً، سمع ماظنه خنزيراً، فأطلق النار، وذهب ليرى فوجد جثة أمرأة اصيبت في رأسها، وكانت من الفريجات أيضاً ومن قرية قريبة. ووافقت عائلتها على حل الموضوع بدفع تعويض، علمت بعدئذٍ أنه أحتسب بالنساء. وعند الفريجات، يكون الثمن ستة نساء، الاولى وتسمى فجيرية، يجب أن تكون باكراً وفي عمر الزواج، أي مابين الرابعة عشر والسادسة عشر، والخمس الأخريات: طلاوي. والفجرية يجب ان تكون من عائلة القاتل أو من أحدى قريباته إن لم يكن له أخت أو بنت لائقة. وهي دائماً تزوج لأخ الضحية أو أبن عمه. والعائلة الثكلى تختار عدد الطلاوي الذي تطلبه أو المبلغ المالي الذي يعوضهن. وهو عادة يحدد بخمسين دينار لكل من المرأتين الأوليتين، وعشرين دينار لكل من الثلاث الأخريات. والنساء أو المبلغ المالي يقدم من مجموع قسم العشرية التي ينتمي إليه القاتل. وعندما علقت ان ستة نساء غير مكافئ لحياة إنسان واحد، قال صدام: " التعويض عند إلبو محمد للشخص الواحد من عائلة الشيخ هو خمسون أمرأة مع إبعاد لسبع سنين"

الكلمة العربية الدارجة لتعويض الدم هو : (الفصل). أن درجة الجرم لا تؤثر على مقدار الفصل. وسمعت عن قضية حادث جرح كان مطالباً بها لعشرين سنة، ثم دفعت. وفي حالة جريمة قتل يرفض أقرباء القتيل دائماً القبول بالفصل، ويكون الدم

مقابل الدم. والفصل يحدد حسب نوع الأصابة. فالعين ثمنها نصف حياة، والسن أمرأة وهكذا وتعوض كل أصابع اليد عدا الأصبع الاوسط. لسبب ما لا أدريه. ويدفع تعويض لصفعة على الوجه أمام الملأ ايضاً. وحتى أن صدام حدثني ان قتل كلب عن عمد له ثأر لا يسدد إلا بثلاث نساء.

كنت شديد الرغبة لمعرفة أصل البو محمد. وقد شرح لي صدام كيف أنه قبل أربعة عشر جيل مضت قتل أحد افراد قبيلة زبيد- عزة، يدعى محمد، أبن عم له، فذهب مصطحباً أخته باشه يلتمس اللجوء عند الفريجات. عاش بينهم خمسة عشر عام وأحب محناية، الأخت الجميلة لشيخ الفريجات. لم يعارض أخيراً الشيخ في أن يعطيه أخته زوجة على أن يسمح له بالزواج من باشه. فوافق محمد، إلا أن الشيخ أبدل يوم الزواج الجميلة محناية بأختها الخرقاء كوشة. جرت حفلة الزواج بالغناء والرقص كالمعتاد، وسلمت العروس الى بيت محمد. وعندما أزاح النقاب عن وجهها إكتشف الخديعة، ولكنه بدلاً من أن يطلقها، اتخذها زوجة له قائلاً " هذه إرادة الله وبركاته. هذه هي من ارادها الله لي " وأعطته كوشه ولدين، سعد وعبود الذين إنحدر الفرعان الرئيسيان لعشيرة ألبو محمد الكبيرة منها: المملة والبو عبود.

وأضاف صدام " نحن البو محمد لدينا هوسة الحرب: آنه أخو باشه ". وواضح ان هذه العادة، كمثيلاتها الاخرى، ذات منشأ بدوي من الجزيرة العربية حيث يهتف الرجل عند القتال بأسم أخته أو ناقته المحببة إليه.

قبل مغادرتنا دخل (سيد) في متوسط عمره، بلحية قصيرة خشنة عائداً بعد قيامه بقطع العلف. وكان يرتدي رداءً رثاً قديماً. وقف له الجميع وسارع سائق زورق صدام ليقبل يديه. يوجد في جنوب العراق (سادة) كثيرون، كما هو الحال في أكثر أجزاء العالم العربي. وفي الأهوار هناك القليل من القرى التي لا تتفاخر بوجود عائلة واحدة على الأقل إنحدرت من سلالة النبي. وهناك قرى تتكون بكاملها من (سادة). وقد إلتقيت بمجاميع من المعدان القرويين يدعون هذا الأصل. ويبدو أن الحاجة قليلة لتقديم ما يثبت هذا الأدعاء. ومؤخرا عشت مع عائلة من هؤلاء (السادة) وسط الفرطوس. وقد قال لي البعض من أهل القرية أن هؤلاء ليسوا من السادة

إطلاقاً، وأنهم يعرفون من أين جاءوا. وأن كل ما في الأمر أنه في يوم ما صبغ الأب الكبير كوفيته باللون النيلي الأزرق. ورغم هذا فالقرويون يدعونه عند المخاطبة بـ (مولانا) وهو الاصطلاح الذي يستعمل لمخاطبة (السيد). ومن المحتمل وخلال بضعة سنين، أن لن يسأل أحد عن إدعاء هذه العائلة.

بني بيت صحين على جزيرة، أفترض أنها أما طبيعية أو موقعاً لقرية اثرية. إلا أني لاحظت، ونحن نغادر، أنها تتكون من طبقات متتالية من تربة وقصب متحلل. وفي الحقيقة هذا تطوير لنفس النوع من المنصات المتكونة من حشائش البردي التي شاهدتها في أساس بيت الزاير في كباب. وطريقة البناء هي بإحاطة منطقة من الماء كافية لمساحة البيت بسياج من القصب، ربما بارتفاع عشرين قدم، ثم يحشر القصب والبردي داخل السياج، وعندما ترتفع الكومة فوق الماء، يكسر القصب المكون للسياج، ويحنى ليطرح فوق الكومة المتكونة. ثم يقوم المعدان بدعم الأرضية بحشائش أكثر وتضغط للأسفل بكل قوة. وعندما يقتنعون بهذا الاساس، يبنون البيت عليه بدفع القصب لتشكيل الأقواس منفردة ومثبتة بالأرضية قبل أن تشد الى بعض كحزمة. واذا فاضت أرضية البيت بسبب تشبعها بالماء، أو أن مستوى الماء قد إرتفع، فما على صاحب البيت إلا أن يفرش كميات أخرى من قصب مقصوص حديثاً. ومثل هذه الموقع يسمى (جبيشه).

ولموقع اكثر ديمومة وثباتاً، يغطي المعدان الاساسات بطبقة من الطين، يجرف من تحت الماء في فترة انخفاض مستواه عند الخريف، عندما لايكون عميقاً جداً. ثم يغطون الطين بطبقات اخرى من البردي، وتصير الجبيشة عندئذ ما يسمى (الدبن).

واذا تركت العائلة البيت الذي بنته فارغاً لأكثر من سنة، يحق لأي شخص إستعماله. وخلال سنوات فان الطبقات المتعاقبة من طين وقصب، تكون جزيرة مشابه لتلك التي ينتصب عليها بيت صحين.

ظهرت ونحن في طريق عودتنا لكباب بعض طيور البط البري طائرة من القصب المحاذي لنا. ولسوء الحظ لم أكن اتوقع الصيد وبندقيتي كانت فارغة. كان واضحاً ان صدام قد خاب أمله ولما عدنا عند المساء، طلبت البحث عن

بعضها، فقال " جيد. سأرسل معك عجرم، وهو يعرف أين يذهب... لاحظ أن الانكليزي لايرتاح للمشحوف الصغير، فهو لم يتعود عليه " وكان ذلك تعليقاً غير ضروري مادام نقص خبرتي قد لاحظه عجرم بوضوح.

صادفنا عدة مشاحيف محملة بالحشيش عائدة الى القرية.

- " الى اين أنتم ذاهبون ياعجرم ؟ "

- " للبحث عن البط "

- " حاول عند حافة البحيرة. هناك الكثير منها "

بعد قليل قال عجرم " هل بندقيتك جاهزة؟ هذا هو المكان "

وفي الواقع كان هناك كثير من البط في خلجان صغيرة مستورة بالقصب، وكانت الطيور متوحشة. وبالتشبث بحافة القصب والتحرك ببطء، نجحنا أخيراً في مطاردة مجموعة من الطيور البرية. أصبت أثنين منها في الماء بالأطلاقه الأولى، ولكني أخطأت في الثانية. جذف عجرم بسرعة، وإلتقطناها. قال " إنتبه. هناك الكثير قادمة ".

ولأن صوت الأطلاقات قد أقلقها، فقد طارت بعض طيور البط حائمة فأطلقت على واحدة، فسقطت عن بعد داخل منطقة القصب. خلع عجرم ردائه وقفز الى الماء وأزاح القصب ودخل وسطه. لم أندهش عندما عاد خالي الوفاض. كان يخوض في الماء حتى صدره، وتسلق الى الزورق، ولو كنت أنا من يحاول ذلك، لأنقلب المشحوف حتماً. لكنه لم يسبب إلا تأرجحاً بسيطاً فيه، ولم يهتم ليرتدي ملابسه، مسك مجذافه بسرعة وجذف بإتجاه آخر. كان جلده الذي لم يتعرض للشمس ابيضاً كجلدي.

إصطدنا طيرين آخرين قبل عودتنا الى كباب، فوجدنا مجموعة من الرجال والنساء ينتظرون خارج المضيف، وفتاة ترتدي الأسود تحمل طفلاً في يديها غطته بخمارها. وشرح صدام: " هذا المسكين الصغير تعرض لحرق شديد، يريدون دواء. هل تساعدهم ؟ "

ازاحت المرأة الغطاء عن الطفل، ورفعته نحوي، فكان طفلاً في السنة الأولى من عمره، وصدره وبطنه ورجله اليسرى والذراع طليت ببراز الجاموس وسألت:

- " متى حدث هذا؟ " أجابت الفتاة

- " الان. قبل دقائق. كنت أطبخ الرز للعشاء، وكان الماء على النار، والتفت للحظة، فمسك الطفل بالقدر وأسقطه عليه. صاحب، إنه طفلنا الوحيد، يحفظك الله. صاحب، أنقذه صاحب، أنقذه يحميك الله "

أخبرني صدام أنهما متزوجان منذ سنتين. وجدت أن الرؤيا في الخارج أفضل، فأخرجت صندوق الادوية من المضيف. وطلبت من المرأة أن تجلس على الأرض وتمسك بالطفل الذي كان يأن بخفوت. وبأكثر حذر مستطاع مسحت السماد عن الجروح فبدأ الطفل يرفس ويصرخ. وقبع الأب بجانبي ماسكاً بقدميه. كان الحرق شديداً، ، في أماكن كان الجلد قد سلخ من مكانه وأصبح متغضناً كمنديل ورقي على اللحم العاري. وفي أماكن أخرى فقاقيع جلدية كبيرة. نثرت معجون الجنشن فايوليت برقة على السطح المعرض، وقلت:

- " لاتضع أي قماش عليه الآن، وعندما تجف ضع هذه عليه برفق "، وأعطيته قطعة كبيرة من الشاش وحبة أسبرين طلبت إليه أن يذيبها بالماء ويعطيها للطفل ليشربها، ثم صعدوا لزورقهم وذهبوا لبيتهم.

سأل آخرون طالبين أدوية. واحد لديه جرح قاطع ملوث في قدمه وإثنان يشكوان الصداع وآخر من بواسير. وصاحب الحانوت الذي كنا قد زرناه طلب دواء لعينه المحتقنة. وكان الوقت مساءً عندما ذهب آخر الرهط.

البط الذي آكلناه في العشاء كان رائعاً. بعد ذلك إنقسمنا الى جماعتين، خمسة في كل جانب لنلعب (المحيبس) أخفاء الخاتم. جلس الجانب الذي كان عنده الخاتم بصفٍ واحد وأيديهم تحت عباءة. وأحد الخصوم من القسم الآخر يواجههم ويحاول التخمين عمن يخفي الخاتم في يده وبأي يد، وذلك بتقليص عدد المشبوهين بإخفاء الخاتم، شيئاً فشيئاً، محافظاً على سيل من الثرثرة والصراخ بصوت عالي: "

أنا أراها بيد هذا وذاك. أنا أراها بيد هذا وذاك " ولعدم معرفتي بكل هذه الثرثرة، وجدت ان اللعبة مملة بصورة تامة. لكن الاخرين استمتعوا بها جداً. كان عليَّ الأشتراك بهذه اللعبة في مناسبات عديدة وفي قرى مختلفة، ولاتختلف نهايتها إلا كما إنتهت الآن: إتهامات بالخداع والغش، وفقدان المزاج العام.

أخيراً قام صدام بطردهم جميعاً قائلاً: " ان الأنكليزي قد تعب، ويروم النوم. " وهي حقيقة.



عبور الأهوار الوسطى

الفصل الثامن

عبور الأهوار الوسطى

في الصباح التالي، وكما وعدني صدام، بدأنا عبور الأهوار الى الفرات. كان الوقت باكراً ولم تكن الشمس قد إرتفعت إلا منذ ساعة. أعداد من المشاحيف تغادر القرية للبحث عن الحشيش، وفي مقدمة كل منها فالة صيد السمك وقد طرحت نحو الأمام. كنت وإياه نركب زورقاً واحداً، وصحبين في آخر، وفي كل منها يقوم بالجذف ثلاثة، وجميعهم يحملون بنادق، ففي الأهوار لايرغب الرجال المرور خلال مناطق قبيلة أخرى بدون سلاح.

عندما غادرني الأخرون عند الفرات، بقيت وحدي دون أن يمتني احد بأشيائي، ولا من سيقوم بتقديمي عند الوصول الى قرية جديدة. ولقد حاولت إقناع عجرم للمجئ معي كمرافق واعداً اياه بالعودة الى كباب خلال ستة أسابيع إلا انه رفض، فعلق صدام

- " هو خائف. لايذهب معك أحد. المعدان جهلة. يعيشون هنا في الأهوار مثل جواميسهم. يخافون من الحكومة. لقد إلتقيت بأنكليز ووجدتهم طيبين، لكن المعدان يشكون في الغرباء. يعتقد عجرم أنك ستأخذه بعيداً و تجنده في الجيش "

ولما لم أكن أتوقع صعوبة في ايجاد مرافق، ثبطت همتي وشعرت بخيبة أمل. كان هناك صبي في الخامسة عشرة من عمره يجذف في الزورق المجاور لنا هتف: " خذني معك ياصاحب. إعطني فلوساً وخذني معك، وسوف لن أهتم بعد الآن بقطع الحشيش طوال اليوم في الماء البارد "

وصاح آخر " لا. لا تأخذه معك فهو غير جيد وغبي، خذني أنا " وهتف صبي أصغر يبدو أنه في الثامنة عشر، ويجذف في زورق في الجهة الاخرى " هراء. إنهما غير جيدين. خذني معك فأنا أغني وأرقص. سأليك دوماً "

وكان الأخير أفطس الأنف وذو فم كبير وعينين ضاحكتين وهزيلاً جداً. قال صدام " إنهم يمزحون فقط " وتوجه الى الصبي الصغير: " هيا حلو. غني لنا "

-" صدام لا أعرف "

-" هيا. غني لنا يا حلو، ودعنا نتسلى حتى نصل القصب "

-وصاح صحين من زورقه " حلو. غني "

وقال لي صدام " ان للصبي حلو صوت حلو " مستعملاً نفس الكلمة التي هي اسم الصبي ايضاً. نظر إلينا الصبي، ولاحت على وجهه أبتسامة خفيفة وبدأ بالغناء بصوت واضح وعالي الطبقة:

كالولي العرب عنك...... ظالم من صغر سنك*

كان للأغنية لحن ساخر ذو إيقاع حزين. وشرح لي صدام مسرعاً، كما ظننت، بأن من نظمتها هي زوجة شيخ فيما وراء دجلة، كان يعاملها بقسوة، وطلقها. ربما كان صدام يخشى أن أظن الأغنية تدور حوله فله قصة مشابهة. في الأهوار، تروج الأغنية لستة أشهر، وبعدها يملها الناس وتكون أخرى قد حلت محلها. وعادة هناك بضع أغاني شائعة في الوقت الواحد. وحينها كانت هذه الأغنية هي المفضلة. وخلال السنتين التاليتين سمعتها في كل مكان، في احتفالات الاعراس وفي الليالي حيث الرقصات المرتجلة، وكالآن، في الطريق نحو مناطق القصب.

-" أستمر حلو. واحدة أخرى. إعطنا أخرى "

وغنى حلو مرة ثانية. وكانت عدة زوارق تنتظرنا لندركها، إثنا عشر أو خمسة عشر، تتصادم فيما بينها لتحاذينا، منحدرين في الممر المائي. صبيان كانا يجذفان في مقدمة الزورق وقد لاحظت أخيراً ان المعدان يفعلون ذلك اذا كانا وحدهما بالزورق. وكلما كان حلو يتوقف عن الغناء، تتصاعد دعوات " إستمر يا

* وهو مطلع أبيات شعر ريفي " كالولي العرب عنك ظالم من صغر سنك. بهجرك عذبت حالي، والله ينتقم منك. سويت الكلب نصين " - المترجم

حلو، واحدة أخرى ". وفتاة جميلة في الرابعة عشر من عمرها تجلس وحدها في أحد المشاحيف، وعباءتها السوداء تتدلى لتستر رأسها وكتفها. وعندما مس أحد الصبيين أنف زورقها بيده دافعاً إياه نحو القصب، إلتفتت إليه غاضبةً، ولم أسمع ماقالته، لكن الآخرين ضحكوا، وشجعوها على عدم الخضوع للسفاسف. وفي زورق آخر كانت هناك صبية أصغر تجذف مع أخيها جالسة خلفه، كما يجب على النساء عادة، وسألت ان كان يسمح للمرأة المساعدة في قطع الحشيش فأجاب صدام:

- " نعم ولكن فقط اذا لم يكن لدى العائلة أيدي تعمل "

بعد ذلك إنحرفت الزوارق الى القصب واحدة بعد أخرى وهتف حلو مازحاً وهو يبتعد عنا: " الا تريدني معك ياصاحب ؟ ". إنبسط أمامنا إمتداد من الماء لميلين، يعكر النسيم سطحه الداكن، فيتلألأ بالزرقه. قال صدام أنها تدعى (ديمة)، والمعدان المحليون يصفون بأسماء منفردة كل قطعة من المياه المنبسطة، حتى ولو كانت بركة صغيرة، أو مجرى مائي أو منطقة قصب، إلا ان معلوماتهم بصورة عامة محدودة لما يجاور بيوتهم.

سأل صدام حسين " أندور أم نقطعه مباشرة ؟ " فأجاب بعد النظر الى البحيرة والسماء لبضعة ثواني " نقطعها. سنجري مع الريح، وسنكون بخير "

كانت تحلق فوق رؤوسنا في السماء الخالية من الغيوم ثلاثة نسور. وشاهدت مجموعة من البط تطير عند الطرف البعيد للبحيرة، بعضها كان يحوم في الأعالي. تلك التي اقتربت منا، عرفت منها البط البري والنهري، وأخرى طيور الحذاف. كانت مجاميعها تختفي وتظهر طائرة بحركة واحدة، فباطن اجنحتها أبيض وريشها المغطى لظهرها داكن. وتساءلت عما يقلقها، فلاحظت زورقين عند القصب. استفسرت عما اذا كانوا يطلقون النار عليها فقال صحين: " كلا. انهم يسممون السمك لصيده. هم من كبور، القرية التي سنذهب للغداء فيها. إجذف بسرعة، نريد أن نعبر قبل إشتداد الريح "

كنا في منتصف المسافة عندما هتف " صاحب. هيا بندقيتك " وأشار الى يسارنا فلاحظت بضعة مئات من طيور الغراء تحتشد مع بعضها بكثافة. وفجأة إنقض احد النسور إلا أن الطيور أبعدته بضرب سطح الماء بأجنحتها، فتطاير الرذاذ من الموجات المتكسرة.

أخذت الريح تشتد، والماء بدأ يتطاير على جانبي الزورق ونحن نتجه نحو الطيور. إنقض النسر مرتين أو ثلاث أخرى قبل أن نكون في مدى الطيور التي لم تعرنا إنتباهها حتى عندما صرنا على بعد أربعين ياردة منها. أطلقت إطلاقتين عليها، فانتشرت وإرتفعت للريح، تاركة أجساماً داكنة طافية. وبينما كنا نلتقط الميتة منها، كان الآخرون يصيدون من أصيب ولا يتمكن الطيران، فيغوص حالما يقترب منه الزورق. قام صحين وهو يقف وسط الزورق بجمعها واحداً بعد الآخر بالفالة، كلما ظهرت واحدة على سطح الماء، بطعن من يصل لها، أو يرمي الفالة على من كانت بعيدة المنال، وعندما جمعت كل الطيور، أخذ أحد الرجال بقطع رقابها متوجه نحو مكة مكرراً " بسم الله الرحمن الرحيم " وهو إبتهال يحل بعده أكل الطيور عند المسلمين، وإلا فحتى المعدان يعتبرونها جيفة لا تصلح للأكل، وترمى بعيداً. شرعاً يجب أن يكون الطير حياً عند قطع رقبته كي ينزف أكثر دمه. ولكن هؤلاء الرجال لم يكونوا دقيقين جداً في التأكد من الحالة.

قال أحدهم وقد أخرج لتوه طيراً كان رأسه متدلياً في الماء لأكثر من عشر دقائق " هل هذا ميت ؟ " فاجابه آخر " طبعاً لا. هيا إستعجل واقطع رقبته "

يحرم عند كل المسلمين أكل الميتة والدم ولحم الخنزير. وكذلك هناك بعض المحرمات التي تتغير من مكان الى آخر ومن قبيلة الى أخرى. مثلاً، بعض المسلمين لا ياكل الطيور ذات الصفاق بين أصابع أقدامها، وفي العراق لايأكل الشيعة الأرانب، بينما السنة يفعلون. والمعدان يأكلون طير الغاق والزفة، أما البجع فلا. أبو منجل ومالك الحزين والكركي نعم، اما اللقلق فلا. الطير الغطاس الصغير، يأكلوه، لكن انواع الغطاس الأخرى فلا. وهم لا يأكلون سمك السلور (الجري).

وعندما جمعنا كل الطيور الميتة، طلب صدام من النوتية الأسراع فأن زورقنا براكبيه وصناديقي قد تجمع في قعره ماء كثير. وحمدت الله عندما وصلنا ساتر منطق القصب. حاذانا زورق صحين وحسبنا غنائمنا فكانت ثمانية عشرة وقال صدام برضى واضح:

- "هذا يعطينا الكثير للغداء"

في الوقت الذي وصلنا فيه الى قرية كبور، إنتشرت في السماء غمامة رمادية، وتعالى صفير رياح من خلال قمم نباتات القصب، وتحول الجو الى برودة. القرية تشبه كباب وبسعتها تقريباً. توجهنا الى أكبر البيوت فيها، حيث مدخله الضيق على قمة منحنى لزج أسود إرتفاعه خمسة أقدام. في الداخل صبيان يدفئان أنفسهما بنار صغيرة. سأل صدام:

"هل أبوك في البيت؟" فأجاب الكبير "نعم، لكنه ذهب لتوه للدكان" ثم إلتفت للثاني قائلاً "اذهب بسرعة وأخبر علوان ان لدينا ضيوف"

كنت أشعر بالبرد رغم إرتدائي معطف وقميص سويد وملابس داخلية طويلة، وسعدت لأن أجلس قرب النار. كان ابن علوان طويلاً، نحيفاً، في السادسة عشر، يرتدي رداء قطنياً مهلهلاً. ذهب للطرف الآخر من البيت، وجلب بساطاً ووسائد، سلمتها إياه فتاة. قال لصدام: "دعني أحمل عنك حاجياتك"

- "كلا. نحن في طريقنا الى (أبو شجر) بعد أن نتناول الطعام"

- "لايمكنكم ذلك. توقفوا لهذه الليلة فالطقس سئ للسفر، وعلى كل حال فقد مر وقت طويل لم تشرفنا بزيارتك"

ارسل صدام أحد رجاله لجلب أثني عشر طيراً وأعطاها للصبي، ثم وصل علوان بعد دقائق، وهو متوسط العمر ويبدو عليه الود والترحاب، وألح علينا هو الآخر أن نجلب متاعنا، ونبقى هذه الليلة، لكن صدام أصر أن علينا المغادرة، وتسائل:

- " أما زال المعدان في أبو شجر ؟ " أجاب علوان " نعم، فالفيضان تأخر هذا العام، ولهذا لم يتحركوا "

ثم جلب لوازم الشاي ولاحظ " لقد إصطدتم الكثير من الطيور " وعندما أخبره صدام عن النسر، قال " لقد عشعش أحدها في القصب هذا العام، وظل يهاجم كل من يمر بالممر المائي. الاولاد يذهبون دائماً لقطع القصب والحشيش، ولهذا أشعلوا ناراً في القصب، وأحترق العش "

وعندما كان يتكلم، كانت أصابعه تتلاعب بمسبحة ذات تسعة وتسعين خرزة صغيرة سوداء، وهي مسبحة دينية، أما تلك ذات الثلاث وثلاثين خرزة، وبلون العنبر التي يتلاعب بها صدام، فهي لمجرد العبث بها والتسلية. وأكثر الناس يحملون مثلها في جيوبهم، وتتلاعب بها أصابعهم بدون ملل عندما لايجدوا ما يفعلوه. رمى صدام مسبحته إلي، ولما حاولت بعدئذ إعادتها له، قال:

- " كلا. إحتفظ بها، فهي لك، وعندي غيرها في كباب " ومنذ ذلك الحين إنتقلت تلك العادة إلي أيضاً. أكلنا تسعة طيور بالغداء. وأنا أعتقد ان اللحم كان لذيذاً كالبط، وربما كان ذلك بسبب كوني أشعر بالبرد والجوع. كان صدام وصحين، ورغم إحتجاجاتي، ما إنفكا يعطياني قطعاً من حصصهم. بعد ذلك سكبنا مرق اللحم فوق الرز، ونقع ما تبقى من الرز باللبن الخاثر. وقد وجدته صعباً أن أتناول هذه الخبطة من الأكل بأصابعي بينما أخذ الآخرون يأكلون دون تكلف. ولما رفعت الصحون بعدئذ، كان هناك بعض الرز المتناثر وجب جرفه. جمع علوان بقايا الطعام والعظام في صحن واحد، وجلب ابناؤه لبناً أكثر، وجلسوا بدورهم للأكل. بعد الشاي، ركبنا زورقاً وودعنا علوان، ولم يقم أحد بشكره على وجبة الطعام، فليس من العادة أن يشكر احد على ذلك. سرنا في ممرات مائية، بالكاد ترى نهاياتها خلال قصب تضربه الرياح، وفوقنا مشرشبات رؤوس نبات القصب، باهته أمام سماء أكثر شحوباً، تتلاعب بها الريح كأعلام في عاصفة. أحد نوتية الزورق، وبتشجيع من صدام، غنى أغنية شعبية. كان له صوتاً قوياً أجشاً، وبرزت حبال خنجرته، بينما أصبح وجهه محتقناً بشكل مرعب، أما الأغنية، فطويلة

وتدعو للسأم ويدون إيقاع واضح. وكان من الجلي ان معرفة كلماتها ضرورية، إلا أن ذلك كان خارج نطاق قدرتي.

بعد ساعة ونصف وصلنا الى (أبو شجر)، وهي جزيرة من أرض عارية غامقة اللون، عرضها حوالي ثلاثمائة قدم، وربما كان أعلى إرتفاع لها عشرة أقدام، وتحيط بشاطئها مناطق قصب. أنتصب ثلاثون او أربعون بيتاً قرب بعضها عشوائياً على طول حافة الماء. والجواميس تقف أينما كان هناك مكان، وسلسلة من الحفر حول كل بيت لتمنعها من حك أجسامها بالجدران. الناس هناك كانوا من الشغانبة.

بعد نقاش حول أي بيت يبدو أكثر ملائمة، أوقفنا الزورق أمامه. خرج رجل وصبي ورحبوا بنا وساعدونا في رفع حاجياتي، فالآخرون ليس معهم غير بنادقهم. وأخذنا معنا الأعمدة والمجاذيف للداخل، فقد تعلمت بعد الخبرة بأن أي عابر سبيل قد يجدها فيأخذها. فالأعمدة هي مجرد سيقان قصب قوية ملائمة ويصعب إيجاد مثلها، وينشأ الرجل وهو معتاد عليها. أما المجاذيف فقد صنعت من قطع خشبية تشبه المجرفة، مسمرة الى قطعة خيزران، يصعب إستبدالها محلياً.

كالعادة، إزدحم البيت الصغير بسرعة. سألني صاحب البيت بضعة أسئلة، أما الآخرون فقد جلسوا لمشاهدتي بهدوء وصمت بعيونهم السود. شعرت بأرتيابهم " من هو ؟ من أين اتى ؟ لماذا جلبه صدام الى هنا ؟ ". وبعد برهة، عندما أخذني صدام ومضينا حول الجزيرة بجولة، أرتفع لغط من النقاش خلفنا.

التربة كانت مشبعة بالملح، ولم ينمو فيها نبات. ولم تكن هناك قطع حصى ولا قطع من الصخر، في الحقيقة لم أشاهد أي منها في الأهوار. ومما ما لاحظته من وجود بعض الآجر وكسر فخار منتشرة على الأرض، بدا لي أن ابو شجر موقعاً لمدينة منسية. قال صدام:

- " يقال أن هناك ذهب مدفون في هذه الجزيرة، والمعدان فتشوا عنه. انظر: هل ترى أين حفروا ؟ " وأشار الى حفر غير عميقة، وأضاف " ولكنهم لم يجدوا شيئاً ". وقاطعه مضيّفنا " في السنة الماضية كانت عائلة من الشغانبة تحفر لبناء بيتاً لها في العكر، فوجدت جرتين مملوءتين نقوداً " سألت أين تقع العكر ؟

- " هناك الى الغرب وهي جزيرة كهذه، وكثير من الشغانبة يعيشون فيها "

- " ماذا حدث للنقود ؟ "

- " لا أعرف، إلا أنهم أخفوها كي لايأخذها الشيوخ " قال صدام " قبل بضعة سنين كنت أبني مضيفي في قرية الكبيبة عندما وجدنا آلهة حجرية، بصورة أمرأة، ترى ثدييها، وكانت بهذا الطول " وأبعد مابين يديه لمسافة تسعة بوصات تقريباً.

- " هل لازالت لديك ؟ "

- " كلا فقد أخذها مجيد "

عندما كنت في الأهوار، لم أحاول أن أجمع حاجيات أثرية، ولكن أعطاني مرة أحدهم ختماً يعود للحيثيين. وفي مرة أخرى لوحاً من الرصاص مغطى برسوم تدل على أسلوب فينيقي. وقال الرجل الذي أعطانيه أنه جزء من أسطوانة كبيرة اذابوها ليستعملونها في عمل الأطلاقات. وفي مناسبة ثالثة أخذوني بسرية الى بيت وأروني تمثالاً طينياً لكلب، وفي أسفله كان مطبوعاً (صنع في اليابان)

كانت الشمس قد هبطت، والرياح قد خفتت، وللقصب اللامتناهي، منظر مقفر وسط النور الرمادي. وفي عدة أماكن في الشمال والشرق، ترتفع غيوم الدخان الكثيف مشيرة الى ما يحرقه المعدان من قصب ليهيئوا نمواً جديداً للكلأ لجواميسهم. سألني مضيّفي:

- " هل سمعت (بالحفيظ)* ؟ "

- " نعم. ولكن خبرني عنها أكثر "

أشار بيده نحو الجنوب الغربي قائلاً: " الحفيظ هي جزيرة في مكان ما هناك، فيها قصور ونخيل وحدائق رمان. والجواميس هناك أكبر. ولايعرف أحد بالضبط اين هي "

---

* أخبرني بعض الثقات من اهالي المنطقة ان الحكومات المتعاقبة منذ الأتراك اشاعت هذه الخرافة للحفاظ على جزر ذات آثار قديمة قيمة ريثما تتوفر لها الفرص للتنقيب وكشف كنوزها- المترجم

- " وهل شاهدها أحد ؟ "

- " نعم. البعض. ولكن كل من شاهدها فقد عقله وجن، ولا يفهم بعد ذلك منه شئ ولايعود ينطق، أحلف بالعباس أنها حقيقة. رآها أحد الفرطوس قبل سنين، وكنت طفلاً، عندما كان يبحث عن جاموسة له، ولما عاد كان كلامه قد تلخبط، ولا يفهم منه شئ، ولكننا علمنا أنه شاهد (الحفيظ) "

قال صدام " حاول صيهود، شيخ البو محمد الكبير، البحث عن الحفيظ باسطول زوارق أيام الاتراك، ولكنه لم يجدها. وقيل ان الجن يخفيها من أي شخص يدنو منها. " وقد علقت مرتاباً إلا أن صدام قال بتأكيد:

- " لا صاحب. الحفيظ موجود فعلاً. أسال أي واحد، الشيوخ والحكومة. الكل يعرف عن الحفيظ. "

عدنا الى القرية ماشين بمحاذاة حافة الماء، على بساط هش من اصداف ملتوية بيضاء بحجم البوصة أو نصفها. وعندما فحصتها وجدتها فارغة. تساءلت مع نفسي إن كانت تعود لقواقع المياه العذبة التي تنقل صيفاً طفيلي البلهارزيا، تلك الديدان المسطحة الدقيقة التي تعيش في الماء خلال الطقس الحار، وأذا ما وجدت الفرصة تدخل جلد الانسان، وتجد طريقها الى كيس المثانة، حيث تتكاثر مسببة فقدان الدم عن طريق البول، وأحياناً الام شديدة. وفي آخر الامر تذهب بيوضها بالبول الى الخارج لتبدأ دورة حياتها مروراً بالقواقع الحية. والبلهارزيا هي بلاء الأهوار، وكل المعدان يشكون منها كنتيجة صحية لطريقة معيشتهم.

كانت عدة فتيات يجلبن الماء، حاملات الجرار الفخارية على رؤوسهن وقد خضن في الماء لبضعة أقدام قبل ملئها. كان الشاطئ يستعمل كحمام عمومي، ولابد أن كل جرة تحتوي على نماذج ممتعة للجراثيم والطفيليات المحلية. نظرياً، كل انسان في الأهوار لابد وان يكون ملوثاً بالدزنتاريا وعدد من الأمراض المتوطنة، ولكن في الحقيقة أكثر المعدان إكتسب بعض المناعة. وعلى كل حال فأن أشعة الشمس القوية ربما تقتل عدداً من الجراثيم. وأنا شخصياً وجدت أن من غير العملي أخذ الحيطة، عدا إجتناب الخوض قرب القرى في موسم الصيف، لقد أكلت

أكلهم وشربت من نفس الماء، وكثيرا ما إستعملت افرشتهم، ودائماً أتعرض للسع البعوض، والبق، والناموس. وطوال السنوات التي قضيتها هناك، أصبت مرة واحدة بالجيوب الأنفية، ومرة بالدزانتري وشفيت منها بعد أربعة أيام. وغير ذلك لم أشكو من شئ عدا الصداع. كان القلق من الأمراض التي قد تصيبني غير مجدي، وأحياناً يكون أكثر صعوبة من الشعور بالغثيان من الأكل والماء. وبالذات كانت مناسبتان قد سببتا لي الازعاج والقلق، وكلاهما في منتصف الصيف عندما كنت أتنقل ممتطياً الحصان في الحقول شمال الأهوار. في المرة الاولى كنت أسير متتبعاً خندق سقي ضحل لعدة أميال نحو إحدى القرى حيث مقصدي. كان الماء في الخندق يجري بتكاسل بإتجاه سيري وبعمق قدم أو قدمين. عبرت جثة كلب ميت فيه. وبعدها جثة عجل جاموس ميت، إلتصق جلده بأضلاعه. كانت الرائحة العفنة تتصاعد من الجثتين زاكمة أنفي. وقرب القرية وجدت حافة الخندق نتنة فان العرب يقضون حاجاتهم دائماً قرب الماء لفرض التمكن من الأغتسال بعدها. كان المضيف يقع على حافة الخندق، والماء هناك راكد دائماً تحت غطاء من الوحل الأخضر. وظننت انهم لا يشربون منه. وصلت عند منتصف عصر لاهب محرق. وجلبوا لي ماء من إبريق في نهاية الغرفة، وكان طعمه مستساغاً وجيداً وبارد. ولما سمعوا بوجودي جاء كثير من الناس الى المضيف، بعضهم عن ميل إجتماعي لمشاهدتي وبعضهم للعلاج. بعد المجاملات الاعتيادية توجهت خارجاً الى ظل البناية حيث أقوم بالعمليات البسيطة وزرق الأبر وتوزيع الأدوية. هبت نسمة خفيفة، إلا أن الحر كان لايزال غير محتمل، ففي الصيف عند تلك السهول تصل الحرارة الى أكثر من 120 فهرنهايت في الظل. ولأحتياجي لماء أكثر أعطيت كاسة لصبي لملئها بالماء. شاهدته يتوجه الى الخندق، فصحت بدون صبر:

- " لاليس من هذه القذاره. هات لي ماء نظيفاً من المضيف " وقد فعل بعد أن نظر إلي مندهشاً. بعدئذٍ لاحظت أن الأبريق الموجود داخل المضيف قد أعيد ملئه من ماء الخندق. وفكرت بحزن لأنني وافقت على البقاء يوماً آخر.

في المناسبة الثانية، كنت أجلس عند أحد الشيوخ من أصدقائي، وصلت قريتهم المساء السابق، والزحام الاعتيادي للمرضى قد ظهر مبكراً منذ الصباح التالي. كان الجو حاراً خانقاً ورطباً دون حركة، وقطرات العرق تسيل على وجهي وجسدي. كان الشيخ العجوز قد ذبح شاة لطعام ضيوفه الذين زادوا الآن على المائة. دخل أربعة رجال الى الغرفة، أحدهم عبد أسود ضخم، يترنحون وقد أحنوا ظهورهم لثقل ما حملوه في صينية نحاس عرضها أربعة أقدام وقد كوموا فيها رزاً وفوقه خروف مسلوق تدلى لسانه وجحظت عيناه ... وبينما كانوا يحملون الصحن الكبير هذا، كانت قطرات العرق تنحدر من على انفوهم وذقونهم ساقطة على الرز، وكنت اعرف أنهم حملوه هكذا من مسافة مائة ياردة أو أكثر. سكب الشيخ كاسة كبيرة من الزبد فوق الرز والتفت إلي يقول:

- " مرحباً. مرحباً بضيفي. هذا اليوم مبارك "

وعندما جلست للأكل قال:

- " الآن، صاحب، كلما تأكل أكثر، كلما يعني أنك تحبنا أكثر "



في قلب الأهوار

الفصل التاسع

في قلب الأهوار

كانت الشمس قد هبطت للتو عندما عدنا أنا وصدام مع مضيّفنا الى بيته. صحين يؤدي صلاة المغرب. يصلي كبار السن من رجال المعدان بإنتظام، خصوصاً من كان (زاير)، والقليل، مثل صحين، يطبق حلاً وسطاً بالصلاة للفجر والمغرب فقط. والأكثرية لاتصلي ابداً. وعندما يفعلون، يضعون اولاً لوحاً طينياً دائرياً من تربة كربلاء المقدسة، حيث يمسونها بجباههم عند السجود. وهذه الألواح تحفظ في أكياس قماش صغيرة وتعلق على الحائط.

عندما أنهى صحين صلاته، أعاد اللوح الى كيسه، وأوقد النار بإقراص الروث، وطلب مني الدنو للتدفئة، وجلب صبي سراجاً، وهو بطل مملوء لنصفه بالبرافين مع فتيلة من قطعة قماش ممزقة، متدلية فيه، تثبت بعنق البطل بتمر رُص حولها. كان رجلان يتحدثان مع بعضهما بهدوء في البيت المجاور. وأستطعت بيسر سماع مايقولانه، فجدار كل بيت هو ليس أكثر من حصيرة، والمسافة بين الجدارين أقل من قدمين، وقد أكتشفت أن ليس هناك خصوصية بحياة هؤلاء الناس، ولايتوقع وجودها. وقد تقبلوا حقيقة أن ما يخص أحدهم، يخصهم جميعاً. وأذا حدث شجار ما بين عائلتين، انتفض الجيران لتقديم النصيحة، أو الوقوف الى أحد الجانبين المتخاصمين، وبهذا يزداد اللغط ويصل الى جلبة تامة. والطريقة الوحيدة للتحدث بخصوصية، هي أن يذهب المتحدثان بزورقهم الى مسافة بعيدة، وفي هذه الحالة ايضاً سينتشر موضوع المحادثة بسرعة، لأن لا قابلية للاثنين بالاحتفاظ بالسر.

بدأ الزوار بالتوافد بعد الغداء. ورغم أنه كان يبدو ان ليس هناك مكان لأي طفل آخر، فأن إثنين او ثلاثة تدافعوا للدخول وغرقوا في الزحام. وإنتفخت حصران

الجدران الى الخارج قليلاً، واتخذت شكل من في الداخل، ولم يبق إلا مكان صغير للنار. وبينما أخذ سائقوا زورقنا يغنون، كان كل شخص آخر يتحدث رافعاً صوته ليسمعه الجميع، ومضيّفنا يوزع السكائر على الحضور، وحتى الأطفال دخنوا ما وجدوه من أعقابها. وعمل شاي أكثر، وكوم وقود على النار أكثر، وارتفع منها دخان أزرق متصاعداً للسقف. كان وضع الحالة كلها بدائياً وغير مريح، إلا أنني كنت قانعاً تماماً.

كنت محصوراً في زاوية، نصف نائم، عندما تدافع الحضور أخيراً على أقدامهم، وخففوا الزحام، لأجد أمرأة ومعها طفل صغير قرب جمرات خابية لنار أخرى في البيت لم أكن قد لاحظتها. أعدنا ترتيب الحصران والبساط المهلهل، وأخذت البطانيات من على سرج حقيبتي. وجلب مضيّفنا افرشة من الطرف الآخر للغرفة، ونمنا جنباً الى جنب، بينما جلس هو قرب النار لحراستنا. كان هناك نتوء من طين يابس على أرض الغرفة يوخز جنبي. وحاول البعوض بإلحاح أن يبقى على وجهي وكثير من القمل يجري على جسمي تحت القميص. نبح كلب لسبب ما، وتحركت جاموسة غير مرتاحة، لا تبعد عن رأسي إلا بضعة ياردات، ثم نمت ولم أستيقظ حتى نهض رفاقي عند الفجر.

كانت الريح قد خمدت عند الليل. وفي الخارج كان الصباح مشمساً، والجاموس قد غادر بدون رعاية من أحد الى أرض المرعى. وعند المعدان، عكس البدو، يترك الحيوان بدون راعي، حراً في الذهاب والعودة متى شـاء. داخل البيت أخذ صدام وصحين يتناقشان عما إذا كان علينا عبور (زجري) ام تجنبها. وضغطت على أن نذهب عبرها، حيث أرغب مشاهدتها. فقال صدام " أنت سوف لن ترغب بذلك اذا حاصرتنا الرياح هناك. إن هذه البحيرات الكبيرة، خطرة. ففي العام الماضي، فاجأت عاصفة شديدة في بحيرة ديمه زفة عرس عائدة من قرية كبور. غرق على أثرها زورقان وثمانية أشخاص. انت سبق وأن شاهدت ديمة، وهي أصغر من زجري "

شاركنا صحين قائلاً " نعم صاحب. إنها خطرة. نحن نعيش هنا ونعرف. قبل أربع سنوات، في مثل هذا الموسم من السنة، غرق رجلان، وتشبث الثالث بجزيرة من القصب عائمة، وظل هناك خمسة أيام قبل أن يعثر عليه. ولمرتين شاهد زوارق، ولكنهم لم يسمعوا صراخه، وكان على وشك الموت جوعاً وبرداً "

بعد تناولنا الأفطار، وقف مضيّفنا وإبنه يراقباننا ونحن نحمل أمتعتنا الى الزورق. ولم يتحركا لمساعدتنا. وعندما علقت على ذلك بعدئذ لصدام، وأنا مستاء، شرح لي الأمر قائلاً بأن على المضيّف المساعدة يحمل حاجيات الضيف الى بيته عند وصوله، ولكن ليس عند المغادرة، حيث سينظر لها كما لو كان إستعجالاً للتخلص من ضيوفه. وقال:

- " سنقطع زجري ما دمت ترغب في ذلك، وسنمضي ليلتنا عند الأمارة في رمله. أما إذا إشتدت الريح فسنأخذ طريقاً طويلاً "

وصلنا البحيرة بعد مسير ساعتين طوال سلسلة من ممرات مائية غير واضحة المعالم، خلال نبات قصب طويل. وعندما شاهدت سطح الماء المفتوح أمامنا يلمع في ضوء الشمس، أصبت بخيبة أمل بادئ الأمر، فقد بدت لي البحيرة ليست أكبر من ديمه التي قطعناها أمس. خلف هذا السطح المائي هناك جدار من القصب، وكنا في منتصف المسافة قبل ان ادرك أنه ينمو على حشد من جزر صغيرة طافية، تبعد بعضها عن بعض مسافات. خلف هذا الحاجب من الجزر، تقع زجري نفسها. ومن على ألواح أرضية الزورق لم أتمكن الحكم: هل كانت تمتد أمامي ثلاثة أميال أم ستة. النسيم كان هادئاً جداً، لكن الآخرين توقفوا عن الجذف، وبدا عليهم الأرتباك. وكنت غير صبور، ولم أدرك كم خادعاً كان هذا السكون.

بعد أربع سنوات، وعند أعلى منسوب الفيضان، صادف أن كنت أقطع مسطحاً كبيراً لمياه الفيضان بعرض إثني عشر ميل وعمق ستة أقدام، وقد غطى الصحراء على طول الحافة الغربية للأهوار. بدأنا فجراً. كانت البحيرة هادئة، وليس هناك أي أثر لريح. وكنت قد تعودت على طرادتي بركوبها وسياقتها. وفي منتصف الطريق، هتف فجأة عمارة أحد نوتية زورقي بهلع: " إلهي. هل تسمعون ذلك

؟ " وانصتنا، وسمعت الريح تتجه نحونا من الشمال عبر سطح الماء الساكن. وبالكاد كنت أتبين أمامنا خطاً من النخيل ربما لستة أميال يشير الى القرية التي نحن متجهون لها. ولم تعد خلفنا مناطق القصب. صاح أحد الأولاد مهتاجاً: " أنظروا .. هذا الزورق. الحمدلله، بسرعة يا صاحب أطلق النار من بندقيتك لنلفت أنتباههم ". كانت طرادتنا على وشك الغرق عندما وصل الزورق، وقام نوتيته بحمل صناديقي الى سطحه، وقطروا طرادتي الفارغة لسحبها. عند وصولنا القرية، كانت أمواج عالية تضرب الشاطئ، وأشجار النخيل مالت من شدة العاصفة.

والآن، وأنا أنظر الى سكون سطح الماء في زجري، جادلت الآخرين لقطع البحيرة. أخيراً قال صدام " حسناً. لكننا سنسير حول حافاتها كي نلتجأ الى القصب حالما تبدأ الضربة، إنها أبعد، لكنها أكثر أمناً. "

كنت أفترض أن زجري، مثل ديمه، لها حدود واضحة من مناطق قصب ثابتة، ولكني، ونحن نجذف من مجموعة جزر طافية الى أخرى، تأكدت أن مالاح لي كحافة، كانت بالحقيقة سلسلة أخرى من الجزر، حجبت مياه مفتوحة اكثر، وبالتالي جزراً أكثر. كان الماء صافياً جداً بعمق ثمانية أو عشرة أقدام. وتحت السطح تتشابك الاعشاب بلون داكن وكأنها طحالب البحر، تهتز مع مجرى التيار، وهي من نوع حورية الأوراق المقدسة (Najas marina) والتي يسميها المعدان (السويكة) وقالوا أنها أحسن الاماكن لتفقيس السمك. كان عدد لايحصى من طيور البجع، نظيفة وناصعة البياض تحت ضوء الشمس الساطع، تسبح بعزم مبتعدة، ومناقيرها الصفراء مائلة، وهي تراقبنا. توسل صدام لاصطاد واحدة، فالمعدان يستعملون جراب مناقيرها كجلد لطبول العزف. ولكنها بدت لي ناقمة بسخرية. ولكي أبقيها هكذا، قلت له أنني إذا رميت فسأخيف البط الساكن كخط داكن على سطح الماء خلف طيور البجع. وأرتفع طير مالك الحزين بجلبة، من بعض القصب خارج مدى الرمي، وخفق بجناحيه مبتعداً بضربات أجنحة قوية، ببطء، وأرجله الطويلة تتدلى خلفه. قال أحدهم:

- " لو أصبته لكان لنا غداء كلنا، فلها كمية لحم بمقدار الخروف وطعم طيب ايضاً ".

كانت أمامنا عدة نسور تحوم بأجنحة غير متحركة. في الأهوار توجد النسور دائماً في السماء، كما توجد الصقور في أفريقيا. في الطرف البعيد لزجري، وفي خليج صفير، إقتربنا من ثلاثة مشاحيف، في كل منها صبي، وقربهم عدة سمكات طافية، وواضح انها ميتة. إقترح احد رجال صحين أخذها، لكن صحين أجاب برماً " لاتكن غبياً. نحن لا نعرف هؤلاء الناس، ولا نريد أغضابهم. سنسألهم وبالتأكيد سيعطونا شيئاً منه ". قال الأولاد انهم من رمله، قرب الفرات، وأعطونا عدة سمكات، وهي من نوع يسمى (بني) وهو أشهر انواع السمك النهري، ذات لون ذهبي، وبعكس الاسماك هنا، لم تكن لها مجسات إستشعار. في الشتاء يقوم المعدان بتسميم السمك لصيده، وكذلك في الربيع قبل أرتفاع المياه، وذلك بإستعمال مادة الداتوره التي يشتروها من التجار المحليين، ويمزجونها بالعجين وروث الدجاج على شكل حبوب أو تقحم داخل روبيان النهر. وتقوم الداتورة بتخدير السمك فيرتفع الى السطح حيث يسهل جمعه، كان هؤلاء الصبية يستعملون الروبيان، وعندما سألت صدام إن كان المعدان يستعملون الشباك في الصيد أجاب " لا ابداً. لايستعملها إلا البرابرة. رجال العشائر يستعملون الفالة "

- " من هم البرابرة ؟ "

- " أوه. هم برابرة فحسب. مستوى واطئ من الناس هنا، يصيدون السمك بالشباك ويعيشون بين العشائر، وهناك الكثير من البو محمد ".

ثم ترنم بمقطوعة شعرية قصيرة، فحواها ان البرابرة، كالحائكين والباعة المتجولين والحدادين والبستانيين المستأجرين والصابئة، هم خارج حضيرة المحترمين، ولا يليق معاشرتهم والأتصال بهم، لانهم قد إنشغلوا بالأتجار. وعند المعدان أنفسهم، وكذلك عند كل قبائل العرب، لايحسب للثروة التي جمعت هكذا إلا القليل من الأهمية، والتجارة اساساً تعتبر من النشاطات المحتقرة. ومنزلة الانسان تعتمد بالكامل على خلقه وقوته وعفته ونسبه.

بتركنا زجري، عدنا ثانية الى مناطق القصب الكثيفة. وقبل رمله بمسافة طويلة، بدأت ضحالة الماء، وجاهد الرجال لتحريك الزوارق. كانت عيدان القصب هشة، وعندما حاولت ضرب إحداها تهشمت من الضربة الاولى. ولكن هؤلاء الرجال كانوا يدفعونها بكل ثقلهم، وبوقت واحد، ليحركوا الزوارق خطوة واحدة الى الأمام. أما قضبان القصب العملاقة ذات العشرين قدم طولاً والتي يستعملها الشيوخ لبناء مضايفهم، فلا توجد إلا في بعض مناطق الأهوار. ويحمل المعدان دائماً بعضها أحتياطاً، وقد تبقى الواحدة عند أحدهم لبضعة أشهر. وفي ذلك الصباح، عندما نزلت الى الزورق بصورة عشوائية، تسببت بكسر ثلاث منها.

عندما وصلنا رمله أخيراً، كنا قد عبرنا الأهوار. ورغم ان القصب والاحراش نمت بجوار القرية، وان الرجال كانوا يأتون ويذهبون بالزوارق، كان هناك نخيل بين البيوت وخلف القرية في السهل المفتوح. توقفنا عند مضيف. وأخذني مضيّفنا بجولة حول القرية التي كانت مقطعة بخنادق عميقة مليئة بالماء وعليها جسور من جذوع النخيل. مررنا بدكان التاجر المختفي تحت أكوام من حصران القصب، وتوقفنا بعدها لمشاهدة عائلة تقوم بتصنيعها. كان رجل عجوز يجلس فوق ساقيه المتقاطعين على الأرض جنب كومة من قصب يابس طول الواحدة حوالي ثمانية أقدام، عرضها بعرض إصبعي الوسطى ويقوم بشطرها من الوسط طولياً بسكين معقوفة (منجل) قبل أن يرميها لتتلقفها أمرأة تسحقها بمضرب هاون خشبي ذو نهاية قصيرة ثقيلة فتجعلها مسطحة وهي تسحق حوالي عشرين منها في الوقت الواحد، ثم تضعها جنباً الى جنب. ويقوم أحد الصبية بضفرها على شكل عظام السردين. والحصران ذات طول حوالي ثمانية أقدام وعرض أربعة. وأخبرني مضيّفي انها تستغرق ساعتين لصنعها، وتباع بخمسين فلس، أي حوالي شلن واحد.

تجولنا في الأرض المنبسطة. ووجدت أن منظر الأرض المغطاة ببقايا البردي كالقش المنثور بعد حصاد مهجور، يدل على أن فيضاناً قد حدث قريبا. الأرض الآن صلبة جداً وعليها طبعات حوافر حيوانات. ارتفع الى الريح زقزاق صارخاً، إنعطف وإستقر ثانية. وتطايرت طيور مالك الحزين ودجاج الماء الأبيض حالما دنونا منها،

وارتفع صقر شاحب متمايلاً ومتقلباً بضعة أقدام عن سطح الأرض وفي البعد، حددت مجاميع اشجار نخيل وجود قرى على الفرات. أشار رفيقي الى هضبة بعيدة قائلاً " كان للأتراك مدفعاً هناك عندما حاربونا. قصفوا قريتنا وقتلوا العديد من أهلها. " ربما حدث ذلك أثناء حملة تأديبية قادمة من البصرة فقد كان للأتراك مشاكل عديدة مع هذه القبائل.

عدنا للمضيف وقت الغروب. غادر الضيوف مبكرين قائلين بأننا لابد وان نكون متعبين بعد رحلتنا. وهجعنا للنوم. في مكان ما من القرية كانت أمرأة تنوح لموت طفلها. وبدون توقف، ساعة بعد أخرى، كانت تعيد ترديد كلمات:

- "أواه ياولدي، ياولدي" نواح حزن عن كرب مبرح يتدفق في الليل.. ولا يجد راحة. كان على الآخرين العودة، وسأترك لوحدي بعدها.



الخلفية التأريخية

الفصل العاشر

الخلفية التأريخية

على حافة الأهوار بدأ تأريخ الأنسان في العراق. وقديماً جداً وفي ظلمة الزمن تحرك البشر الذين كانوا قد تقدموا إجتماعياً وثقافياً من نجد إيران وإستوطنوا دلتا الفرات، حيث بنوا في الألفية الخامسة قبل الميلاد بيوتاً من قصب، وصنعوا الزوارق وإصطادوا السمك بالحربة والشباك. عاشوا هناك كما يفعل الرجال الآن، في بيئة لم تتغير إلا قليلاً. وبعد حوالي ألف وخمسمائة سنة، كانوا قد ذابوا أو إستبدلوا بعرق آخر تحرك نحو العراق من الأناضول، وجلب القادمون الجدد معهم الجاموس الأليف والمعرفة بالصناعات المعدنية، وفن الكتابة. وترك كل عرق في فخارياته المتميزة تسجيلاً لرحلاته. ثم في حوالي 3000 ق.م. طغى الفيضان على وجه الأرض، وبطريقة ما بقي الأنسان على قيد الحياة، واسس السومريون مدنهم على مواقع القرى القديمة التي طمرت تحت الطمى، وربما هنا تطورت أول الحضارات في العالم.

مرت قرون، ونهضت بابل، وسقطت سومر. وفي عام 728 ق.م. أبادت القبائل الاشورية الرهيبة، بعجلاتهم التي تجرها الخيول وأسلحتهم الحديدية، العموريين، ودكت بابل بالأرض. وبدورهم أرهقوا بالحرب والفتح، وجاءت هزيمتهم على يد الميديين. وفي 606 ق.م. فتحت مدينة نينوى الآشورية العظيمة " وصارت قفراً ومكاناً للبهائم للنوم ". وعادت بابل للأزدهار ثانية تحت سيطرة الكلدانيين. وصمدت سبع سنوات بعد نينوى، حتى دمرت على يد (سيروس)، الذي ترك حدائق نبوخذنصر المعلقة الى النيران، وخلال ذات الألفي عام، غزا العراق أجناس أخرى من البشر: الغوطيون المتوحشون الذين قاموا بتخريب سومر، الكيشيون والحيثيون الذين نهبوا بابل، والميثانييون الذين جلبوا معهم بضائع غريبة من الهند، واخيراً العيلاميون.

بعد أن غزا (سيروس) بابل عام 539 ق.م، مر العراق تحت حكم اجنبي لاكثر من ألف عام، مرة كمقاطعة مهمة في أمبراطورية وأحياناً كأرض معارك لقوى متنافسة، الفرس، الأغريق، السلجوقيون، البارثيون، الرومان ثم الفرس مرة أخرى. ساروا بجيوشهم خلال أرض العراق، ناشدين مسكها أو أنتزاعها من آخرين. وفي بداية القرن السابع بعد الميلاد، عندما تدفق العرب خارجين من الجزيرة العربية، بموجة من الغزو، وإكتسحوا العراق، أضافوا إسماً آخراً لهذه القائمة من الفاتحين الغرباء.

كان الأمل في الغنيمة هو الباعث للدخول في الإسلام، دينهم الجديد* ، الرابطة التي جمعت القبائل البدوية معاً. وبعد الترحيب الفطري العام من الناس به وتقبله بدون تفريق، قام نظام الحكم الجديد بالأستيلاء على الأرض، لكنه ترك لأي من يعترف بنظامه إمتلاك ما يخصه. أضافة الى تعصب العرب لأنهم أول من إهتدى، واعتبروا الإسلام إمتيازاً لجنسهم. لم يسمحوا في البداية لغير العرب ان يغير دينه الى الإسلام، مالم ينتسب الى قبيلة عربية، وسمي هولاء، شبه العرب، بالموالي، وعلى غير المسلم دفع جزية خاصة. أما التحول الجماعي نحو الاسلام، فلم يشجع بادئ الأمر. وخلال المائة وستة عشر سنة التالية كان العراق مقاطعة من الأمبراطورية العربية التي حكمت أولاً من المدينة في الحجاز، ثم من دمشق. إلا عندما حكم علي رابع الخلفاء لفترة وجيزة في الكوفة. خلال تلك السنوات، أنشأ المستوطنون العرب أرستقراطية حربية في المدن، ووظف أكثرهم كجنود و إداريين للحكومة. وقد تعاملوا مع السكان المحليين بعجرفة وجور وإزدراء. وعندما ولدت الشيعة بعد مقتل الحسين في كربلاء عام 681 م، وأتهم الموالي بصورة خاصة بإنشاءها، عبرت بأصطلاحات دينية عن إستيائها من تصرف الطبقة الرسمية الحاكمة. وفي الوقت الذي أسس فيه الخليفة العباسي سلالة حكمه في العراق، وبنى عاصمته في بغداد عام 750 م، فأن إمبراطوريته، رغم أنها إسلامية، لم تعد عربية بالمعنى الصحيح. وكانت حياة البلاط العظيمة التي أحاطت بهارون الرشيد:

* هذا رأي خاطئ للمولف وللكثير من المستشرقين ينبع من تعصبهم الديني- المترجم

الأردية الفائقة الجمال، الأتيكيت المتقن، الطقوس، الخصيان، وجلادي البلاط، كلها كانت بالكامل عكس البساطة الخشنة التي عاش بها الخلفاء الأولون في الحجاز.

إستمرت الخلافة العباسية خمسة قرون، ثم أخذت بالانحطاط بعد أمجاد العهد الأول لها، الى الشلل في عهدها الأخير. وقد أعدم آخر خلفاؤها بعد أن إحتل هولاكو بغداد في 1258 م وكان مقتله قد أضيف الى 800000 شخص ذبحوا على يد المغول عندما إستبيحت المدينة. وفي عام 1401 م إستبيحت بغداد ثانية على يد تيمورلنك، آخر الغزاة المغول العظام. واذا كانت المذبحة هذه المرة أقل، فالفضل يعود الى قلة الناس الذين بقوا على قيد الحياة في المدينة. بعدها جاء التركمان، أولاً الخروف الأبيض ثم الخروف الأسود، وبعدهم الفرس عام 1509 م ليليهم في 1534 م الترك، حيث مسكوا البلاد حتى أزاحهم الانكليز في الحرب العالمية الأولى. وحتى ذلك الحين كانت حظوظ العراق قد غطست بالحقيقة. ومن مدن قليلة وصغيرة، حاول الأتراك الدفاع عن مظاهر سلطانهم على القبائل الضعيفة المراس في تلك المقاطعة المحرومة من الأمبراطورية المتداعية للسقوط.

لآلاف السنين، ومنذ زمن السومريين، كان للعراق أرضاً وطيدة المدن وزراعة ثابتة. وقد نهب الغزاة مدناً، وذبحوا قاطينها، ولكن حتى مجئ المغول كان مواطنوها يعيدون بناء مدناً حديثة، جاعلين مآثرهم من الحضارات التي ذهبت. وفوق ذلك إعتنوا بالقنوات التي تجري فيها مياه الري. إلا أن الفرسان الصفر، بطيئي الحركة الذين ظهر منهم جنكيز خان بصورة سحرية من صحاري آسيا البعيدة، وهزوا العالم، لم يسعدوا إلا بالقتل، وأنصابهم كانت اهراماً من جماجم البشر. وعندما هبت هذه الزوبعة من التدمير فوق العراق، كانت قرون من العمل قد دمرت، وشبكة الري التي يعتمد عليها رخاء أي بلد، قد أصيبت بضرر لايمكن إصلاحه. وكان اكثر هذا الخراب متعمداً، وبعضه للتأثير المتراكم من الأهمال المحض. كان التنظيم والجهد اللانهائي هو ما تحتاجه قنوات الري من كري وتصليح سداد على جانبيها، وبناء النواظم التي تنظم الحياة وقت الفيضان. وبعد أن

مرت قبائل المغول، كان الناجون قلة، ومعنوياتهم منهكة غير قادرة على تصليح الدمار. وتحولت الحقول الى صحارى، وتشتتت المياه النفيسة الى مستنقعات. وظل الرجال يزرعون على ضفاف الأنهر، وكف العراق عن كونه قطراً زراعياً، وصار بلداً للرعي. والمدن العظيمة التي كانت يوماً، إضمحلت الى قرى صغيرة.

نزح البدو العرب من صحراء ما وراء الفرات الى البلد، ورعت قطعانهم على الهضاب التي كانت يوماً قصور الملك. وعندما كان العرب الأصليون يستوطنون المدن المزدهرة، وقد ذابوا بالتدريج مع السكان الوطنيين، كان المهاجرون الجدد، بخيمهم السود وقطعان إبلهم وخرافهم وماعزهم قد قسموا الأرض الى مناطق رعي. وأستبدل نظام حكم بني على حياة مدنية، بقانون الخيم العشائري. وتحت ظروف كهذه، فان الامن لا يستوفى إلا بالالتجاء للقبيلة، وبالتالي فان الفلاحين المهددين غير النظامين ربطوا أنفسهم بأي بدو قربهم. وبتقبلهم لوضعهم الاجتماعي المنخفض، فانهم قلدوا العادات و الطقوس الخاصة بالطبقة الارستقراطية في الصحراء وبحثوا لغرض محاكاة مآثرهم واعمالهم. وفي وقت واحد ذابت الفوارق بين الطبقات، وامتزج الجنسان. إستوطنت بعض القبائل الأرض، وتخلت اخرى عن جمالها وحملت خيامها على الحمير.

كان عرب الصحراء الذين هاجروا الى العراق، قلة نسبة الى المستوطنين الاصليين، ولكن عاداتهم وقوانينهم هي التي سادت. ان أهل العراق ربما كانوا يفخرون بانتسابهم الى السومريين او البابليين، الى الآشوريين الذين غزت جيوشهم مصر، الى الفرس الذين تبعوا سيروس أو حاربوا مع داريوس أو زيروس، أو الى البارثينيين الذين هزموا فيالق روما. لكنهم بالعكس يتباهون بأن جذورهم من البدو. كان الاسكندر قد مر عبر هذا الطريق هو الآخر، وفي آسيا الوسطى لايزال إسمه متردداً في وديان الجبال حيث يقسم الرجال أنهم من أحفاد جنوده، اما في العراق فقد نسي إسمه. عندما كنت اسمع الرجال الكبار حول النيران يروون قصص الاساطير عن الشجاعة والسخاء، لم يكن هناك ذكر لأسكندر ذي القرنين، ولا للخلفاء الذين حكموا بغداد بعظمة وفخامة، ولكن عن الرعاة رئي

الثياب في الصحراء العربية. إن عرب الصحراء ولدوا دائما للشدة والصعاب وليس لديهم سهولة أو راحة بل أرهاق المسيرات الطويلة والكدح وراء منابع المياه. " نحن بدو " هكذا يتباهون، ولا يبحثون إلا عن الحرية التي هي لهم. وبرزانة وشجاعة، يشكون من الألم منتظرين من يغير عليهم ليغيروا عليه بأسلوب خلقي حسب القوانين السائدة دوماً ويروح فروسية كبيرة. ويشعرون بغرور شديد عند الخطر والشدة، و لايشعرون بعلو منزلتهم على القرويين وسكان المدن. واصفين أنفسهم بالبراعة، مستعملين نفس كلمة (أصل) لتعني النسل الدموي. وفي الواقع هم جاءوا من أنقى جنس في العالم، لا يتزوج الرجل إلا أبنة عمه، كما كانت عادتهم. ولقد إنقذوا من الأنحطاط والانحلال بسبب بيئتهم حيث أن البقاء للأصلح، وغيره يتم التخلص منه بدون رحمة. يعتاد المرء على تواصل الشكوى من الجوع منذ الطفولة، يصومون عند شحة المطر التي كانت دائماً، ويهملون العطش كازعاج يومي تافه. وأحياناً قد يخطئون في التقدير فيموتون. طوال أشهر الصيف الطويلة يتحملون الحرارة المشتعلة كلهب الفرن، فتكون أوقاتاً مقيتة لرعاة الماشية. أما في الشتاء فالامور أتعس حيث الرياح الثلجية تكتسح الرمال العارية، وتسقط مطراً فيبتلون حتى الجلد. وخلال أيام الشتاء الطويلة يفرشون أرض خيمهم بالخرق البالية، و يستيقظون متصلبين غير قادرين على الحركة. وللأكل، لديهم حليب الجمل صباحاً ومساءاً ان كانوا محظوظين. ودائماً هناك الخوف من الغارات، من ثار الدم، ومن الموت المفاجئ.

إن الحياة غير الحضرية للبدو سمحت لهم ببعض الامتلاكات، فكل شئ غير ضروري يعتبر عائقاً. وكل ما يمتلكونه هو الملابس التي يرتدونها، وسلاحهم وما يتعلق بخيلهم لركوبها، وبضعة أباريق وأوعية الماء الجلدية، وخيام من شعر الماعز، مع الحيوانات التي تنظم راحتها كل حركة لهم، والتي من أجلها يعانون برضى، من صعوبة حياتهم. لقد كانت العجرفة وحياة الوحدة والتفاخر الشديد قد جعلتهم لا يتقبلون ان يكون أي إنسان سيداً لهم، ويفضلون الموت على الحياة بخزي. وبأعلى ديمقراطية عند البشر يعطون قيمة عالية للنسل. ولقرون حرصوا على نقاوة دمائهم

بالخناجر. ومنحوا شيوخهم مقداراً من الاحترام لأصلهم، ولم يمطوهم اكثر حتى يجدوا أنهم يستحقونه. ورأس القبيلة هو الاول بين أعضائها. ليس لديه خدماً، ويدفع لوكلائه من ماله ليفرض إرادته أو لتنفيذ قراراته. ورجال قبيلته يتبعونه مادام يستحق احترامهم، ويحكم ماداموا يوافقونه، اما إذا أثار إستيائهم، فسوف يتركونه، ويتبعوا شخصاً آخر من عائلته. وستكون خيمة ضيوفه فارغة. ولتواجدهم مزدحمين معاً في الصحراء، لم يعد للسر مكان، فكل فعل سيعرفه الجميع، وكل كلمة تصار الى العلن. الكل يعرف ماضي أي شخص، والسؤال " ما الأخبار ؟ " يلي كل تحية. من يبلي بلاء حسناً، تفاخر أصحابه به في معسكرهم صائحين من فوق الجمال " بيض الله وجهك يا فلان أبن فلان " اما اذا قام بعمل مخزي، فيقولون " سود الله وجهك يا فلان " ويصبح منبوذاً. وطمعاً للوصول، فانهم يذهبون لتحية ذوي الجاه، لهذا فان أكثر أفعالهم تتصف بالتزلف. ورغم حسدهم، فهم يوالون بأخلاص شديد إخوانهم من رجال القبيلة. وعندهم خيانة الصحبة هو من الأثام السود أكبر حتى من جريمة قتل الناس. يستخفون بحياة البشر، فيخولون أنفسهم أخذ الثأر حتى بطعن راعي غنم أعزل، وهم مبتسمين. وبينما هم أشداء تجاه ما يعانونه وما يعانيه الآخرون، نجدهم غير متعمدين القسوة إطلاقاً. إن شرفهم قد يمس بسهولة، وعندئذ سيردون الأهانة بسرعة، مهما كانت، حقيقة ام تخيلاً. ولكنهم عادة ضرفاء وذوي قلوب رقيقة.

هناك ميزات معاكسة لما ذكر، فرغم أنهم ثرثارون عادة، لكنهم حساسون نحو موضوع الوقار والشرف، وقد يبقون ساعات في صمت اذا تطلب الامر ذلك لمناسبة رسمية. ودون مبالاة للجمال الطبيعي، فأن لهم حباً عاطفياً للشعر. شهمين وأسخياء بشكل غريب، حتى أنهم قد يخلعون ما يرتدونه لمنحه لمن يسألهم ذلك. أما ضيافتهم فأسطورية، فأحدهم يذبح ناقته الأثيرة لغريب جاء به الحظ الى خيمته، ولكن في قرارة قلوبهم هم بخلاء بكل ماهو معروف عن الساميين من حب المال. وهم متدينون عميقاً، ومؤمنين بأن يد الله في كل شئ، لايتخليون عدم وجوده، ومن يقول ذلك فهو كافر. ومع ذلك فهم ليسوا متعصبين طبيعياً، ولا مؤمنين بالقضاء

والقدر بشدة. وفي حياتهم الصعبة يقاتلون الى النهاية المرة التي يتقبلونها بوقار كقدرهم، وإرادة الله.

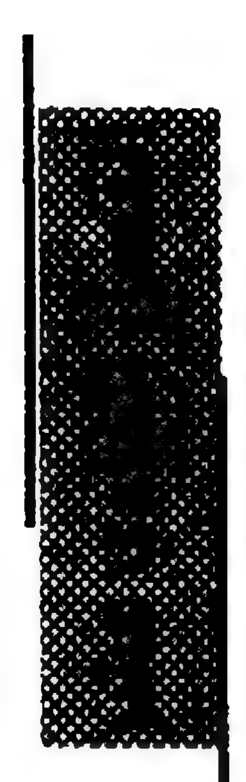
إن الأهوار نفسها مع متاهات مناطق القصب حيث لايتحرك الرجال إلا بالزوارق، قد هيأت الملاذ لبقايا الناس المطلوبين ومركزاً للثوار والخارجين على القانون منذ الأزمان الأولى. وسرجون، الملك الآشوري العظيم، هزمه الكلدانيون الذين عاشوا هناك. ثم عاد بعد عشرة أعوام بعد أن هزم مصر وغزا إسرائيل، ليربح معركة في الأهوار حوالي عام 710 ق.م. وسجلها في أقمشة أفرشة قصره في خورسابد. وبشكل رهيب إنتزع ثأره وأرسل الكلدانيين الى سوريا، وأسكن بدلهم الحيثيين الأسرى الذين جلبهم من جبال شمال العراق.

بعد ستة عشر قرن، كانت الأهوار معقلاً للزنج الذين هددوا مصير الخلافة العباسية. كانت هناك اعداد لاتحصى من العبيد، أكثرهم من أصول افريقية، يشتغلون في بزل الأهوار من حول مدينة البصرة، ويعاملون بوحشية لا توصف. فثاروا وقتلوا حراسهم وأرهبوا الجوار. وقد كان بالأمكان إخمادهم بدموية لو لم يجدوا من يقودهم. فبقيادة علي بن محمد، الفارسي الأصل، إنتصروا لأربعة عشرة سنة من 869 م حتى 883 م هازمين جيشاً بعد جيش أرسلها الخليفة ضدهم. دمروا وأستباحوا البصرة، واستحوذوا على الأهواز جنوب شرق فارس، ونهبوا حتى لمسافة عشرين ميلاً من بغداد نفسها. وفي النهاية كان النزاع مستفحلاً، ورفض علي الأستسلام، وهزم جيشه أخيراً، وحمل رأسه بنصر.

في القرن السابع عشر، أخذ النموذج القبلي في و حول الأهوار يأخذ شكله الحاضر. وتكونت المنتفك، وهو تحالف كبير لقبائل هيمنت على أسفل الفرات لأكثر من ثلاثة قرون، عندما إلتجأ أحدهم الى قبيلة بني مالك، وعرف نفسه إليها قادماً من مكة. وقد فصل في نزاع هناك، إنتهى بإغتياله عقوبة. وفرت تلك القبيلة الى عمق الصحراء آخذة معها رضيعه. وهناك ترعرع الصبي، وفي الوقت المناسب، قادهم للعودة للفرات ليهزم أعدائها. وإعترفت قبيلة بعد قبيلة بقيادته لها حتى شاع إسمه وتأثيره. كان بعضها من أرستقراطي بدو الصحراء وبعضها من الرعاة

المشكوك في أصلهم، وآخرون من المعدان المحتقرين. وفي أوج قوتها، كانت المنتفك عملياً ولاية مستقلة، قادرة على مقاتلة الحكومة التركية بكل معنى الكلمة. وأبعد الى جنوب الفرات، أسس بنو أسد لأنفسهم وطناً حول الجبايش، وهم أيضاً سببوا مشاكل للأتراك في ذروة قوتهم. وفي نفس الفترة كان الأمارة قد إستوطنوا غرب القرنة، وبنو كعب هيمنوا على الأهوار الشرقية. وعلى دجلة، كان محمد وولداه، نصف الفريجات، قد أسسوا حكمهم على خليط من القبائل، سمت نفسها بعدئذ البو محمد. والى الشمال أكثر أسس حفيد لام عشيرة بني لام، أو أولاد لام، وهي قبيلة رعاة ذات قوة كبيرة تعد الآن أكثر من مائة الف.

ان ما حافظ على بقاء دم الأجناس العديدة التي إحتلت العراق هو رسوخ الأهوار وبيئتها. لكن نظام حياة عرب الصحراء كان هو المثالي لتحديد حياة المعدان، ويشكل النموذج التام لتصرفاتهم من ثأرهم الدموي الى طباع المائدة عندهم.



الفوز بالقبول

الفصل الحادي عشر

الفوز بالقبول

تقع الجبايش على الساحل الشمالي للفرات حيث يكون عندها عميقاً وبطئ الجريان وبعرض مائة ياردة. وعلى هذا الجانب يمتد أخدود كثيف من النخيل لبضعة أميال، يقابله من الجانب الآخر مناطق قصب و مستنقعات سبخة. وخلف شارع مستوي مبلط بالأسمنت وصف من أعمدة النور، إصطفت بضعة دور قبيحة مبنية بالآجر، دائرة المقاطعة، نقطة بوليس، مستوصف صغير، مدرسة، نادي ودار للموظفين. بعضها كان جديداً، إلا أنها جميعاً تبدو متداعية. ومظهرها غير اللائق، ربما يعوضه ما تهيئه من مستوى أعلى قليلاً من الراحة وما توفره من رخاء، نسبة الى ما يوجد في القرى المجاورة. كانت بعض المروج والأزهار محاطة باسيجة رثة من القصب، وركام من القناني المكسورة وعلب صفيح صدئة، واوراق صحف ممزقة، بدت للناظر كمجاري تصريف نتنه مفتوحة للهواء. يتكون السوق من صف من حوانيت، أصغر ولكن أحسن من الاكشاك، في نهاية الشارع المبلط. وهناك جسر كونكريتي صغير يزين الطرف الثاني، بدت لي وظيفته غامضة، حيث أنه يؤدي مباشرة الى بحيرة واسعة من المياه العميقة. والمدير* الذي كان بالأصل نجاراً قبل ان يتوظف، هو الذي أشرف على إنشاءه. وبصرف النظر عن واجهتها المائية، فقد كانت الجبايش مكاناً جذاباً. وقد أخفت واجهة البنايات الحكومية شبكة من الجزر الصغيرة، مضللة بأشجار النخيل، تفصلها عن بعض قنوات غطت ببساط من نباتات مائية طافية، ذات أزهار بيضاء وصفراء، لها رائحة العسل. تحت النخيل بيوت عديدة من القصب، وبضعة مضائف سكنت في أحدها.

* بقي هذا في منصبه بالجبايش لاثنتي عشر سنه حتى لقب : حجي جبايش- المترجم

كنت قد استدعيت للجبايش بعد بضعة أيام من مغادرتي لصدام والآخرين في رمله، لغرض عرض رسالة وزير الداخلية للمدير، تسمح لي بالتنقل أينما أريد. ففي العراق، تدار كل مقاطعة (أو لواء) من قبل متصرف، وينقسم اللواء الى قضائين أو أكثر. وهذه تدار من قبل قائمقام، وهـي الاخرى تقسم الى نـواحي يشرف عليها مدير ناحية. والجبايش ناحية مـن قـضاء سـوق الشيوخ بلـواء المنتفـك الـذي مركـزه الناصرية.

حالما وصلت، زرت المدير الذي دعاني للعشاء معه في النادي الذي إتضح لي أنه بناية بسيطة من الطابوق، التي يبدو، ونحن في مثل هـذا الفصل مـن السنة، انها ستكون حـارة جـداً في الـصيف وبـاردة رطبـة في الـشتاء. وقفـت جنـب سـياج مـن الحـصران، تحتهـا نباتـات زينـة ذابلـة لـنقص المـاء. هنـاك كراسـي حديديـة مطليـة بالأخضر وبضعة موائد دائرية من الحديد وضعت على أرض نجيلية مبقعة. إثنـان أو ثلاثة من الموظفين كانوا هناك، وجاء آخرون، كنت قد إلتقيت بأكثرهم صباحاً. جلسنا حول الموائد وقام بخدمتنا رجل كبير في السن منهك، يرتدي سروالاً رثاً من الخـاكي كبيراً عليـه، وجاكيـت ضيق. جلـب أحـد المـوظفين جهـاز لاسلكي مـن داخل البناية وثبت هوائيته وقضى الساعات الاربع أو الخمس التالية يلعب بـأزراره. ومن خلال خلفيـة مـا يذيعـه الجهـاز مـن موسـيقى وأغـاني ومقـالات مـن كـل أنحـاء العالم، كان الجالسون يتناقشون حول بدلات رواتبهم، والسـياسات العربية، وآخر فـضيحة حـدثت في دوائـر الحكومـة في الناصـرية. ودون أعـارة اهتمـام (للعـرق)، شربت عدداً لا يحصى من أقداح الشاي الأسود، حلو المذاق، وهـو الـشراب الآخـر الوحيـد المتـوفر. أمـا مـضيّفي الـذي لم يـشاطرني الـرأي، فقـد أخـذ يـشرب العـرق مباشرة، ويجادل بحرارة، ويبدو أنه نسي أنه كان قد دعاني للعشاء. كانت هناك مولدة كهرباء خلف سياج الحصران تئن كالمصاب بـالربو، وتـنير مصباحاً وحيـداً معلقاً فوق رؤوسنا، وحشرات مزعجة جذبها الضوء، تنهمر على المناضد. والكرسـي الحديـدي الـذي جلست عليـه أضـاف سـأماً آخـراً مـن عـدم الراحـة الجسدية. بعـد

منتصف الليل تذكر المدير ان يطلب العشاء لنا، ولم ينفع كثيراً الكباب والرز بعد الانتظار الطويل.

لقد ولد أكثر هؤلاء الموظفين مئات الاميال بعيداً عن الجبايش. وثقافتهم ربطتهم بالشعور بالراحة البيتية في المدن فقط. وظلوا يحلمون للانتقال من هذا النفي في البيئة العشائرية غير الملائمة، وقضوا وقتاً طويلاً للتخطيط لذلك. وفي نفس الوقت سجنوا أنفسهم، ماداموا هناك، لبضعة مئات من الياردات التي تحتوي على دورهم ودوائرهم والنادي. وخلال السنوات التي قضيتها في العراق، لا أذكر أنني إلتقيت موظفاً لديه أي أهتمام حقيقي أو ميل بالناس القرويين الذين عليه إدارة أمورهم. وأكثر من واحد منهم سألني كيف أتحمل العيش بين المعدان، مضيفاً أنهم ليسوا أكثر من بهائم متوحشة.

في كردستان، في الصيف الماضي، قضيت يوماً مع ضابط شرطة شاب في واحدة من أجمل الأماكن التي شاهدتها. كان قد أرسل الى هناك منذ شهرين حيث تتواجد قبيلة بدوية كبيرة. جبال بارتفاع ثمانية الى تسعة الاف قدم، وفي وديانها وسفوحها غابات السنديان الخضراء، ومجاري المياه الباردة تتلامع متساقطة الى أسفل الوادي نحو حدود أخرى لجبال أرجوانية. وتوجد الدببة في الغابات والوعول على القمم النائية. الطقس كان رائعاً. وعندما قلت للشاب، وهو يجلس في خيمته حيث جهاز راديو ومطفأه سجائر ممتلئة بالأعقاب " أنت محظوظ أيها الشاب لحياتك هنا " وقلتها بحماس، أنفجر قائلاً " محظوظ ؟ أي والله. لولا هذا الجهاز لجننت. ماذا هناك لشخص متمدن ليفعله في موقع مرعب كهذا ؟ الرجل الذي قبلي، غادر بعد أسبوع واحد فقط. لقد دفع فنقلوه. وأنا فقير ليس لي القدرة لفعل هذا غير أن أجلس واستمع الى راديو بغداد ".

إستوطن الجبايش والقرى المجاورة لها بنو أسد، وهي قبيلة عربية، بعد تأريخ متذبذب من غزو وهزيمة، فاضطروا للأنطواء الى الأهوار قبل ثلاثة قرون، وفي ذروة عصرهم الذهبي ذاب الكثير من الناس الضعفاء معهم حتى أن أصول بعضهم لم تكن عربية، باحثين عن الحماية، وقد زاد في قوتهم هذا الألتصاق. ومن الأهوار

شنوا عدة حروب متقطعة ضد الاتراك، كان بعضها مكللاً بالنجاح. وحتى بعد الحرب العالمية الأولى أستمروا في خلق المشاكل حتى هزمهم البريطانيون، وازاحوا شيوخهم عام 1924 م. ومنذ ذلك الحين تلاشى الهيكل القبلي لهم.

إن الزراعة في الجبايش غير ثابتة ولايمكن التنبوء بها. وفي السنوات الاخيرة، فان العشيرة التي وصل تعدادها حوالي عشرة الآف، تعتمد بأزدياد على صنع الحصران من القصب. وحتى بعد ثلاثة قرون من التواجد في الأهوار، فأنهم يعتبرون أنفسهم متميزين عن المعدان. ان بني أسد يحتفظون بالبقر، لكنهم يزدرون تربية الجاموس.

كان الطقس في الجبايش غير مريح، وسعدت بمغادرتي لها مرتحلاً نحو الشرق حتى وصلت حافة الصحراء عند الخميسية ثم عدت ثانية. كنت أصل إحدى القرى صباحاً، فأتناول طعام الغداء، ثم يأخذني مضيّفي بعد الظهر الى القرية التالية. ومهما كان صاحب البيت فقيراً، وبعضهم كان فقيراً جداً في الحقيقة، فقد كنت أستقبل بترحاب. ولكن لشهر كامل، كانوا يلتقون بي بارتباك وحذر، وأراقب بصمت بوجوه محدقة. لم تكن هناك سرية في أي مكان، وكل حركة لي كانت مراقبة. وحتى عندما أذهب لأقضي حاجة، كان يتبعني صبي بحجة حمايتي من الكلاب، كنت أتخيل التخمين الذي يبدأ حالما أترك غرفتي " ماذا يريد ؟ لماذا جاء ؟ واضح أن لا أحد من أهل المدن يرغب في لسع البعوض والاكل من اكلنا إلا اذا لديه سبب قوي، لابد وان الحكومة ارسلته ليتجسس علينا، ليحصي شبابنا او التفتيش عن جواميسنا "

كان مضيّفيني دمثي الاخلاق تماماً، ولكنهم تواقين للتخلص مني بشكل واضح. وعاملوني كانسان غير نظيف. يعتبر الشيعة نقاوة الشعائر واجباً دينياً، والملتزمون منهم لايشربون بنفس القدح الذي شرب به غير مسلم. ولما كان هؤلاء الناس مهملين لشعائرهم الدينية الاخرى، فيكون هذا التفريق إهمال متعمد للتعليمات الحقيقية. وأخذت أتسائل مع نفسي عما اذا كان بأمكاني، وانا المسيحي الاوروبي، أن أصل الى علاقة حسنة معهم كما كنت أتوق، أم لا.

حـدث وأنـا في طريقـي شمـالاً نحـو الفرطـوس، أن أقـف عنـد (ربعـة) في قريـة كبيره بمنطقة الأمارة.

لم يكن صاحب البيت موجوداً، إلا أن شاباً طويلاً حسن المظهر رحب بي. عاد الرجال الذين أوصلوني الى قريتهم حالما شربوا الشاي. ووصل مضيّفي الذي كان اسمه عبد، إختصاراً لاسم عبد الله، عند مغيب الشمس.

سألني بعد العشاء " ماذا تحمل في هذه الصناديق ؟ "

- " أدوية "

- " هل أنت طبيب ؟ "

- " أعرف عن الطب "

- " هل بأمكانك الختان ؟ "

لم أكن قد أجريت هذه العملية، لكني راقبت العديد منها في المستشفيات، وبين العشائر، فانتهزت الفرصة وأجبت:

- " نعم "

- " هل بأمكانك ختان إبني خريبط؟ لقد مرت سنوات منذ أن قدم من يختن، وأنا أريد عملها له كي يتزوج "

وأشار الى الشاب الذي إستقبلني، والذي كان حينها مشغولاً بصب القهوة. ويقيناً كنت قلقلاً عندما وافقت على إجراء العملية صباحاً.

بالرغم أن الختان لم يذكر في القرآن، لكنه عموماً ملزم لكل مسلم بعد أن ختن النبي ﷺ نفسه طبقاً للعادات العربية. ولا يجوز شرعاً لغير المختون ان يحـج الى مكة. وعند العشائر في جنوب العراق، معداناً أو رعاة، فأن العملية تؤجل عادة الى عمر الرجولة، كما في هذه الحالة، ونادرا ما أجريت قبل عمر المراهقة. ويجريها عادة ذوي خبرة بها ينتقلون من قرية الى أخرى في الصيف. وأجرتهم التقليدية ديك، وربما يأخذون أحياناً خمسة شلنات. وأمثلة عملهم التي شاهدتها كانت مرعبة فهم يستعملون موس حلاقة قذر وقطعة سلك أو خيط وبدون مادة مطهرة. وبعد الأنتهاء

يذرون على الجرح مسحوقاً خاصاً مكوناً من مجموعة الجلد المقصوص من عمليات ختان الضحايا السابقين، ثم تجفف وتطحن. ويربط العضو بشدة بخرقة، قذرة طبعاً. إن الناس الذين يعيشون في ظروف كهذه، إكتسبوا مقاومة واضحة ضد الالتهابات، ولكن ليس بامكانهم مقاومة هذه. وقد يحتاج الصبية احياناً الى شهرين لأكتساب الشفاء، معانين من الآلام مبرحة بين حين وآخر. وقد جائني مرة شاب للعلاج بعد عشرة أيام من ختانه، ورغم أنني تعودت على المناظر والروائح المزعجة، ولكن نتانة ما وجدت، أدت بي الى التقيؤ. كان كل عضوه الذكري وخصيته وباطن فخذية متقيحة بشدة. والجلد قد إنسلخ و القيح يسيل على ساقيه. عالجته أخيراً بالمضادات الحيوية. وبالرغم من الوصمة الاجتماعية كونهم غير مختونين، فأن رفض بعض الصبيان للختان ليس بغريب. وفي حالات أخرى لا يسمح بعض الأباء بأجراء العملية لأولادهم لعدم وجود غيرهم من يمتني بالجاموس. وقلة منهم يؤكد أنهم مختونون من قبل الملائكة بالولادة، وهو معتقد ساري في مصر أيضاً. ومؤخراً زرت قرى في منطقة السواعد، والكولبه خصوصاً، حيث سمعت انه يندر أن يختن أحد، وهو أمر لا يصدق عند المسلمين.

عند الصباح، إقترح عبد أن أجري العملية خارج البيت كي لا يدنس بالدم. كان جمع صغير من الناس بين الجواميس في الساحة، وهو مكان غير مثالي للجراحة. وعدد من الشباب بعمر خريبط قدموا لأعطائه الدعم والتشجيع المعنوي كما خمنت. وإخترت صبياً، يبدو مظهره ذكياً، ليساعدني. أخرج خريبط من البيت هاوناً خشبياً كبيراً، وقلبه وجلس عليه.

كنت أرغب بعملية أبسط من هذه لتكون الأولى، فقد فحصته ووجدت أن لديه إلتصاقاً بجلد الضلفة. هيأت حقنه للتخدير، إلا أن خريبط قال بسرعة " لأي شئ هذه ؟ " فشرحت له ان الحقنة ستوقف شعوره بأي ألم، فقال " لا. لا. لاأريد أي أبرة تدخل جسمي. إقطعها فقط. " ولا شئ يمكن أن أقوله لتغيير رغبته. كنت أتسائل في قرارة نفسي إن كان في حالة نفسية قلقة كالتي كنتها أنا، ولكنه لم يظهر أي علامة لذلك. وخلال إجرائي للعملية، التي أستغرقت في هذه الحالة بعض

الوقت، كان هو جالساً بدون حركة تماماً. وعندما إنتهيت قال " شكراً لك " ونهض. اما مساعدي الذي كان يمسك الكلاليب المتعددة، فقد رماها، وأزاح أحد الصبيان جانباً، وجلس على الهاون الخشبي قائلاً " إن الدور لي " وتحقق لي فجأة أن أصدقاء خريبط التسعة قد جاءوا لغرض الختان. أصغرهم كان في الخامسة عشر، وأكبرهم في الرابعة والعشرين. وعلمت بعدئذ أنهم شفيوا منه خلال بضعة أيام. من الواضح ان لمسحوق السلفاتومايد والبنسلين أكثر تأثير من مسحوق الجلد المجفف. وقد وصلت الأخبار الى القرية المجاورة في الوقت الذي وصلت إليها، ووجدت حوالي عشرين صبياً ينتظرونني.

في الوقت الذي كان هؤلاء قد هيئوا ليقوم الختان المتجول بختانهم، فضلوا الانتظار حتى أزور قريتهم، أو يأتوا ليجدونني أينما كنت. وفي مناسبة مرهقة، جاء مائة وعشرة وعملت بجهد من الفجر حتى منتصف الليل. كانوا يعتقدون أن رائحة الخبز، أو بعض الروائح الطبيعية الاخرى قد تلهب الجرح بعد الختان، لهذا فقد كانت عادتهم أن يحشوا أنوفهم بقطعة صغيرة من القماش، ويعلقوا بصلاً حول أعناقهم، اذا وجدوا منه في الحانوت المحلي القريب. ولايأكلون اللبن الخاثر ولا السمك والرقي، ولا يشربون أكثر من رشفات قليلة من الماء، حتى يشفى الجرح. ومزاولوا الختان المحليون يستغلون هذه الخرافات كأعذار جاهزة لعدم أهليتهم. فعندما يعرج أحد الشباب التعساء من الألم المبرح، مباعداً مابين ساقيه، يشرحون السبب بحكمة " طبعاً. فالغبي لم يعتني جيداً بغلق منخريه. و لابد أنه إشتم خبزاً، أو شرب الكثير من الماء "

لم يزر طبيب المعدان، واذا ذهبوا للمستوصف المحلي في الجبايش، حيث يدفعون مقابل العلاج، يؤكدون أنه لم يسعفهم. وأينما كنت، كانت جراحاتي تنمو عدداً كل يوم. ومنذ ذلك الحين، كان من النادر أن يمر يوم وانا في الأهوار دون علاج أحدهم. أحياناً خمسة أو ستة، وأحياناً مائة أو اكثر. كثيرا ما أكون لازلت نائماً عندما يصل أول مريض، وأستيقظ على هزة، ربما من رجل عجوز ينحني فوقي ليعلمني بصوت يئز أنه يشكو من سعال. وبعضهم لا يشكو أكثر من

برد، صداع، إمساك، أو جروح بسيطة. وأتعامل مع هذه الأمور ببساطة، ولكن قد تأخذ وقتاً طويلاً. وآخرون، من ناحية أخرى، تكون شكواهم خطيرة، وربما قاتلة. قد أساعد في علاج بعضها، ولكن بعضها الآخر قد لا أتمكن، وبحاجة الى ممارسة طبية صحيحة.

يشكو المعدان من التراخوما ومشاكل العين الأخرى، ومن الجرب، والبواسير، ومن الحصى، وديدان الأمعاء بكل أنواعها، ومن الدزانتري بنوعيها الأميبية والعصوية، والبلهاريزيا ومن البجل، وهذا بعض مما يصابون به. كان البجل واحداً من الأمراض الشائعة وأكثرها إزعاجاً، وهو شبيه بالسفلس ولكنه غير زهري وشديد العدوى. وقروحه التي تظهر في أي مكان بالجسم، واسعة وأحياناً متعفنة بفضاعة. وكثيراً ما أشعر بالغثيان عندما يكون عدة مرضى مصابين به في غرفتي، وبلا ريب فأن بعض الحالات التي ظننتها بجلاً، كانت بالحقيقة سفلس. إلا أن حقنة بنسلين كانت مؤثرة بالحالتين. السيلان لم يكن معروفاً، وفي خلال سبع سنوات عالجت ثلاث حالات فقط ولكنها جاءت من العمارة. لم يكن في إستطاعتي عمل أي شئ بالنسبة للبلهارزيا التي يشكو منها الكل. ومجموعة الحقن اللازمة لعلاجها، تصل لفترة شهر، وهي فترة لم أبق فيها بمكان واحد أبداً. ولكني عالجت رفاقي سائقي الزورق، إلا أنهم دائماً يصابون بالمرض ثانية. يحدث أحياناً وباء للحصبة والجدري الكاذب والنكاف والسعال الديكي. وحدث عام 1958 وباء الانفلونزا الاسيوية التي أصابت أكثر المعدان، وأدويتي أفادت العديد ممن أصيبوا بذات الرئة نتيجة للأنفلونزا. وبالرغم من أننا كنا محاطين يوماً بعد يوم بمن يشكون ويطلبون الدواء، إلا أنني ورفاقي كنا نهرب بصورة ما وكنت أرتعب من إصابتي بها صيفاً تحت هذه الضروف.

وللغرابة، إلتقيت بحالات مثالية قليلة من الملاريا، وأكثرها ربما التقطت من خارج الأهوار. ومن ناحية ثانية فكثير من المعدان يشكون من حمى راجعة خفيفة، وعدد كبير من الأطفال يتضخم عندهم الطحال. والبعوض المنتشر هناك (Anopheles pulcherrimus) هو ناقل ضعيف للملاريا، والنوع الآخر الأكثر

خبثاً في نقل الملاريا هـو (Anopheles stephensi) لكنـه نـادر نسبياً في الأهوار نفسها.

ثـم هنـاك الحـوادث، فبعض الضحايا يـصابون بحـروق مرعبـة عنـد إحـتراق دورهـم، ودائمـا يـصاب الأطفـال بحـروق لانقـلاب أبـاريق أو قـدور الماء المغلـي علـى أجسادهم. جُلب إليّ رجال هاجمتهم الخنازير ومزقت لحومهم، أحياناً هوجموا أثناء خـروجهم للـصيد، ولكـن أكثـر الاحيـان عنـد قيـامهم بقطـع القـصب أو جـني محاصيلهم. أحدهم كان عنده جروح في يديه وفخذيه وشق بطول ثلاثة بوصات في بطنه فخرجت أمعائه التي، لحسن الحظ، لم تثقب، فعملت على إدخالها لجوفه ثانية وخياطة الجرح. ولدهشتي فقد أُنقذ. وفي مناسبة اخرى أخذت الى بيت لمشاهدة صبي قد أنفجرت بندقية بيتية الصنع وهشمت نصف يده. كل ما عملته هو بتر ثلاثة من أصـابعه. وفي مـرة أخـرى أيقـضني صـبيان خـلال الليـل، وذهبـت معهمـا بـالزورق لمسافة ثلاثة ساعات لقريتهم ووصلنا فجراً فوجدت والدهما يتلوى على الأرض ويديه على عينيه. واخبرني انه ضرير في إحدى عينيه نتيجة لضربة منذ سنين. ويبدو الآن أن ضغطاً داخلها يدفع مقلة العين الى خارج محجرها. كان الأمر الوحيد الممكن إجـراءه هـو خلعهـا. كانـت لـدي بعـض المعرفـة بتركيـب العـين مـن ممارسـة سـلخ الحيوانات لتحنيطها. فاعطيته مورفيا وقمت بأخراج العين وولداه يمسكان به. ورغم المورفيا فأنه كان يئن ويتلوى وشعرت بقليل من الرجفة. عندما أفاق أشار الى أن الألم قل كثيراً. بقيـت معهـم ليـومين، ولمـا إلتقيتـه بعـد سـتة أشـهر كـان قـد شـفي تماماً.

لكن كان هناك الكثير الذي لم أحاول التدخل فيه، كمـا كانـت عنـدي حالات فشل عديدة، فلايزال يلازمني شبح وجه طفل صغير مات بالدزانتري. وفي كثير من الأحيان كان يصعب إقناعهم بأن ليس بإمكاني عمل شئ. ربما يكونوا قد جلبوا لي من مسافة بعيدة رجلاً عجوزاً ينازع الموت لأصابته بالسرطان، أو بنتاً تـسعل مـن رئتهـا نتيجـة للتـدرن، واثقـين انـني سأشـفيهم، ومتوسـلين بأسـلوب يـثير الـشفقة: " فقـط إعطنـا الـدواء ". كـان بالأمكـان شـفاء بعـضهم لـو ذهبـوا الى

المستشفى في العمارة أو الناصرية، لكنهم كانوا يتهيبون من المستشفى ومن النادر أن يوافقوا.

ربما كان الأطباء في المجر والجبايش والعمارة، مستاءين من نقص كفاءتي، لكنهم لم يظهروا لي ذلك أبداً، بل العكس، فان بعضهم ساعدني بالنصيحة والأدوية. ووزير الداخلية في بغداد وافق على ممارسة عملي الطبي في الأهوار، ولكنه حذرني اذا ما مات أحدهم نتيجة لخدماتي الطبية، وقامت عائلته بالمشاكل، فسوف لن يجديني أي شئ للمقاضاة الجرمية. وكانت هذه مخاطرة إرتضيتها. عالجت الكثير من الذين كانوا في طريقهم للموت ولم يتهمني أحد بعد ذلك أنني قتلتهم.



بين الفرطوس

الفصل الثاني عشر

بين الفرطوس

بعد مغادرتنا لقرية عبد، بقينا في بيت صغير على جبيشة، وأغطس ثقل مرضاي جزءاً من أرض البيت. أنهيت علاجهم وانا غاطس في الماء حتى الركبة تقريباً. وأكد لي مضيّفي أن هذا لايهم، وبدا لي بكل الأحوال انه ارتاح لمغادرتي لهم.

في القرية المجاورة، مبرد، كان أربعون أو خمسون بيتاً، كل على دبن منفصل، بنيت على كلا جانبي قناة مع ممرات مائية ضيقة وضحلة تفصل بينها. ومرة أخرى تجمع حشد صاخب وجاهدت معهم لثلاث ساعات حتى الظلام. بقيت مع رئيس القرية، رجل كبير لايبهج المرأى، يدعى محسن. سألت ولديه مساعدتي، إلا أنهما فضلا اللهو وإزعاجي بطلب أدوية لايحتاجاها. كانا نسخة مصغرة لأبيهم مع نفس الأنف الطويل والعينين المتقاربتين، وصوت كالأنين. وأخيراً وبعد أن شبعا من الأكل، أعطيت أنشطهما حبتين من الكوينين ليمضغها، وحالاً سمعته يتقيأ خلف البيت.

لم يتحسن مزاجي وأنا انتظر ساعات الغداء الذي كان عند وصوله يتكون من صحن رز ذو كتل باردة، ووعاء من الزبد القذر. ثم إنتظرت طويلاً ليعمل لي محسن شاياً، لكن أي بادرة لذلك لم تظهر. وفجأة أدار أحد الاولاد رأسه وصرخ " حلو ! ما هذا ؟ " وخرج من الباب وسمعته يصرخ " النار. النار " وتزاحمنا خلفه متدافعين بين الجواميس. كان البيت الذي خلفنا بأتجاه الريح، يشتعل. وبينما أنا أراقبه غزت النار سقفه وارتفع لهب برتقالي اللون، وتطاير شرر في الظلام. تكدسنا في الزورق، وأندفعنا بإتجاه الحريق. وقبل ان نصل، أدركت النار البيت الذي يليه، وتعالت الشرارات من كليهما تنقلها الريح القوية لتتساقط على بيوت أخرى. جاءت

زوارق عديـدة مـسترشدة بـضوء اللـهب. كـان أصـحاب البيـوت يـنـدفعون داخلـين وخارجين لبيوتهم، يرمون ما حملت أيديهم الى الزوارق المنتظرة، ثم يسرعون للعودة لانقاذ شي آخر. امـرأة تنتحـب، رجـال يصرخون، كـلاب تنبح، جـواميس أخـذهـا الخـوف فشقت طريقهـا الى الظـلام. وفـوق هـذا الـضجيج والهـدير الخـائف، ترتفـع فرقعه الـنيران. ومـا أن نـزلنا الى قـرب البيت التـالي حتـى تعلقت النـار ببيـت ثالـث. إلتـصقت بـي أمـرأة ذاهلـة وبيـدها رضيع وتعلق بردائهـا طفـل آخـر يبـكـي. ناولـت الرضيع الى فتاة في زورق، تمسكت بالطفل واقتحمت البيت ثانية لتظهر بعد ثواني حاملة ربطة من أغطية النوم.

عند بـاب البيـت اصـطدمت بـشيخ طـاعن مـع صبي يناضـل مـع كـيس حبـوب. سـاعدته في شحنه بـالزورق، وبحثنـا عـن كـيس آخـر، فقـد كـان هنـاك الـكـثير، ولـكنهـا ثقيلـة. وكـانـت النـار الآن قـد التهمـت البيـت المجـاور بالـكامـل. وبظلالهـا الأسود وسط ضـوء النار الساطع، كانت أمرأة تحدق في السقف الملتهب لاطمة على ثدييها. أنهار السقف وتطاير الشرر الى الأعلى ورمى بعض النـاس أنفسهم الى المـاء المحـيط. كنـا نطـرح كيـساً آخـراً خـارج البيـت، عنـدما صـاح أحـدهم " ان النـار فوقكم " ورأينا السقف فوقنا يشتعل. ارتفعت الحرارة بشكل رهيب واطراف اللهب تمسنا. كان قد بقي كيس واحد، لكننا لم نتمكن من البقاء، وصاح العجوز " هيا تعالوا " فقفزنا الى الخندق، وخضنا في ماءه الى البيت المجاور، ولكي لا تلتهمه النيران، كان الناس يرمون المياه على سقفه، ولكن كان واضحاً أنهم لن ينقذوه.

تلك الليلة، إلتهمت النيران أثني عشر بيتاً في مبرد. والتهب الاخير كالمحرقة، منيراً المـاء الداكن بلون أحمـر ذهبي. عبرنـا الى الجهـة المقابلـة نراقبـه وهـو يشتعل. كانت الليلة داكنة، والنجوم صافية، والرياح قارصة بعد حرارة النيران. وفي كل مكان اكوام من الرماد تلتهب بين لحظة واخرى بهبوب الريح. والرجال مهتاجون بمعركتهم، متحدثين بصخب عن مآثرهم وبعيداً كانت أمرأة تندب ناحبة فقدانها بيتهم وممتلكاتهم. جاء رجل غريب وقال " تفضل وأشرب الشاي معنـا، صـاحب " وعندما عدت الى حيث محسن، وجدت عائلة البيت الاول الذي إحترق. وقد فقد

الأب غطاء رأسه، وأكلت النار بعض رداءه الأبيض. كان قميئاً، تبدو عليه العصبية، وذو شعر رمادي مع ندبة في وجهة وكسر في أحد أسنانه الأمامية. وجدته رابضاً أمام الموقد مع ولديه. الكبير في حوالي السابعة عشر، وقد أصيب بحرق شديد في كتفيه. وفي الطرف الآخر من الغرفة، جلست عجوز شمطاء، ربما جدته، تنوح بصوت عالي، وجلست قربها، بصمت، امرأة أحدث ورضيع في حضنها وطفلين آخرين جنبها. قال محسن الذي عمل أخيراً الشاي " كان الحظ ان النار بدأت والناس لم يناموا بعد، وهذا ما حصل عند (السادة) الشهر الماضي عندما ماتت زوجة السيد وطفلها حرقاً. "

حدثنا الأب انه وابنه كانوا في البيت المجاور عندما بدأت النار " أنقذنا الأطفال، وحاولت جلب بندقيتي التي كانت تحت الفراش، لكني لم أجدها. كان ذلك عندما إحترق علي. ذهب كل شئ، البندقية، ثمانية دنانير في الصندوق، الفراش، الملابس.. كل شئ، كل الحبوب. كل شئ. على كل حال إنها ليست المرة الاولى التي يحترق فيها بيتي. هذه الليلة أثنا عشر بيت تلاشت، هكذا. الله كريم " وقالها بتسليم كامل. الجدة كانت تنوح الليل كله. لم يبالي بها أحد. ونام الأب وولديه قربي، وأحدهما شاركني البطانية. على الأقل كانت الجواميس والمشحوف سالمة، وهي بالواقع ما يبالى له. فالعائلة تتمكن من بناء بيت آخر متى ما بردت الأرض، فهناك الكثير من القصب الجيد. الآخرون في القرية سيساعدون بتعويض الحبوب والأفرشة وأواني الطبخ. أهم شئ فقد هو البندقية. عند الصباح أعطيتهم بضعة دنانير للمشاركة في المساعدة.

تطلب الامر ساعتين للوصول الى العويديه، وهي قرية صغيرة تعود للفرطوس، حيث كنا أنا ودوكالد ستيوارت العام الماضي. وللوصول الى هناك، جذفنا خلال بحيرة صغيرة محاطة بالقصب العالي، ثم خرجنا الى ممر مائي واسع وضحل. ولبعض الوقت، وقبل ان يلوح أول بيت فوق القصب، سمعنا عبر الماء الأصوات التي لاتنسى لقرية في الأهوار. ضجيج من مختلف الأصوات، الضربات البطيئة لأمرأة تطحن الذرة، رغاء الجواميس، نباح الكلاب، صياح الديكة الحاد، كانت

القرية تنتشر بين مناطق قصب. والمضيف الصغير لجاسم الفارس كان في الطرف البعيد، مرتفعاً على دبن فوق الماء قليلاً. كان المكان ملائماً للرسو. وقف جاسم بنفسه عند المدخل، وهو رجل نحيف برداء أبيض. أعجبني مرآه من النظرة الأولى. وجه مكسو بالشعر، وأنف مستقيم وفم مكتنز. عينان رقيقتان. أسرع فالح، ابنه الصغير الذي إستقبلنا العام الفائت، بالدخول ومعه بسط ووسائد. إنه الآن بعمر خمسة عشر، وسيم مع أنطباع مشاكس يشكو من إلتهاب فطري في الرأس وكل فروة رأسه كانت كتلة مقرفة من القشور الجافة. مع ذلك كان يحافظ باستمرار على تغطيتها بعناية، ولم أشاهدها إلا مؤخراً عندما سألني العلاج. كان مثل هذا الألتهاب منتشراً تقريباً بين الأطفال، ويبدو أنه يختفي مع النمو وحتى السن الرابعة عشر. ولكن بعضهم يضل يشكو منه دائماً، فيصاب بالصلع نتيجة لذلك. بقيت عند جاسم أسبوعاً، وسرعان ما شعرت أنني في بيتي مع الفرطوس الذين عاملوني كواحد منهم. فهنا، ومنذ البداية، شربنا من كأس واحدة، وذهبت مع فالح صباحاً ومساءً، جاذفين بالمشحوف للبحيرة القريبة، للبحث عن البط، الذي كان خائفاً دائماً، فكان علينا الاقتناع بطيور الماء، مالك الحزين، والفاق، التي يأكلها المعدان، مؤكدين لي أنها لذيذة كطعم السمك. إلا أنني ما أن أخذت منها ما ملأ فمي، حتى بقي طعمه السمج لساعات.

في صباح يوم ذهب بنا فالح وابن عم له اسمه داود، الى اليابسة وحالما تركنا القصب، ولجنا أرضاً من عدة أميال مربعة، مغطاة ببقايا أحراش متكسرة. كانت النباتات النامية حديثاً ترتفع من بين الأكوام الرمادية لنبات السوسن للعام الماضي، إلا أنها لم تكن عالية بعد لتحجب الرؤية عني، حتى وأنا في قاع الزورق. كان المكان زاخراً بالطيور. إنطلق طير شنقب بأتجاه الهور خلفنا متعرجاً بطيرانه، وأسراب من طيور خائضة إندفعت بعيداً. وطيور ذات الطوق الليموزية، والكروان والطيطوي والنكات وغيرها مما لم أميزها، تتغذى على بقع الطين. وكانت هناك أيضاً طيور أبو ملعقة، وأبو منجل والبلشون الأبيض ومالك الحزين الرمادي والأرجواني، ومرة سمعنا صراخ الوز من بعيد. كانت كلاب الصيد تصطاد مابين

نباتات الخيزران والبردي. والنسور العادية تحوم فوق رؤوسنا. جذف فالح وداود ما أمكنهما، ثم شمرا عن سيقانهما برفع أرديتهما الى الخصر، وإنطلقا بالزورق خلال الوحل، كنا نأمل أن نصل اليابسة، ولكن كانت هناك بضعة أميال من أرض طينية جافة تفصلنا عن السهول المفتوحة الكبيرة التي تعيش فيها قبائل الرعي التابعة للمنتفك في خيامها السود. سماهم فالح (العرب). ووعدني بالذهاب إليهم في وقت آخر قائلاً " سنزور محسن ابن بدر، وهو أعظمهم وصديق لوالدي وقد أخفاه أبي في أيام كان الأنكليز يبحثون عنه. ألم تسمع عن بدر ؟ لايزال العرب يقولون (شهم ونبيل مثل بدر) وأبنه مثله. عد إلينا ثانية عندما يكون الفيضان عالياً وسنذهب إليه".

اثناء رحلة العودة، أصطدت عدداً من طيور الفرفر الأرجواني التي ألح فالح أن لها مذاقاً طيباً عند الأكل. وهي تشبه طيور الماء بالشكل والحجم إلا أنها ترتفع من بين القصب وأرجلها الطويلة تتأرجح تحتها. وفي الصيف، تكون هي وطيور البط المعرق (الرخامي) التي تصل في الربيع، الوحيدات الصالحة للأكل. سألني داود بخجل، وهو الذي لم يتكلم كثيراً، إن كان بأمكاني أخذه معي للعمارة لزيارة أبيه المسجون قائلاً " كان يخدم عند شيخ العيسى في الصيكل. وفي أحد الأيام أرسله الشيخ للقبض على ثلاثة من الأزيرج كانوا يسببون مشاكل. جلبهم أبي للشيخ فقام هذا بجلدهم. وبعد ذلك هاجم هؤلاء أبي، وضربة أحدهم بهراوة على رأسه فسقط مغشياً عليه. وعندما أفاق والدي جلب بندقية ورمى الرجل فمات. وبدلاً من أن يقوم الشيخ بحماية والدي، سلمه للحكومة، لعنة الله عليه، فقضوا عليه بالسجن عشر سنوات. وجئنا أنا وأمي للعيش مع عمي جاسم. كان ذلك منذ ست سنوات. وأريد الآن زيارة والدي "

كان داود هذا غلاماً غريباً. فهو عادة مرح وكثير الثرثرة، وأحياناً يهبط الى حالة من الأكتئاب والسكون. وعندما علم جاسم أنه سيأتي معي للعمارة، قال أنه سعيد " لقد نذر نفسه لأبيه ولم يشاهده منذ سجنه، ويومها لم يتكلم ولم يأكل.

وفي العام الماضي عاد ثانية الى غرابته، ولم يعرف أحد ما الذي كدره. كان يتجول ويقول (داود ميت) وكان علينا أن نذهب به الى مقام (فوادة)، لكي يشفي "

كل مساء يتوجه رجال وصبيان جاذفين الى مضيف جاسم ثم يتركون زوارقهم عند المدخل ويجلسون متراصين متكئين على جدار المضيف. في المرات القليلة الأولى كنا نتجاذب أطراف الحديث فقط، ولكن في أحد الأيام إقترح جاسم أن يكون هناك بعض الغناء، فوافق الجميع مهللين " إي والله. غناء ورقص ". " دعونا نمتع أنفسنا. أين خيال ؟ لقد جاء هذا اليوم من مبرد. أين الطبول ؟ سنري الأنكليزي كيف يسلي المعدان أنفسهم. إذهب فالح وأجلب الطبول والمزامير. داود إذهب واستدع خيال "

عاد فالح بطبلين، وجلب مزمارين. الطبول مصنوعة من الفخار وعلى شكل مزهرية مدببة بطول اثني عشر بوصة وعرض ثمانية في الجزء العريض الذي يغطيه جلد رقيق، والطرف الآخر كان مفتوحاً. وصل خيال وكان بعمر داود. غنى عدة أغاني ورافقه فالح على الطبل. ودعا الصوت آخرين للجذف بالزوارق بإتجاه المضيف الذي كان ممتلئاً بالاصل فاصبح مزدحماً بشدة. كان لخيال صوت جذاب وذخيرة واسعة من الأغاني، بعضها إيقاعي ومرح، وبعضها حزين ونواح. وبعد ذلك شكل خيال وفالح وداود وبضعة شباب آخرين دائرة صغيرة. وسحب لداخلها صبيان نحيفان تبدو عليهما الشيطنة، وهما يحتجان رافضين، وطلب إليهما الرقص*. كانا أخوين، الكبير في حوالي الثالثة عشر. أخذ خيال طبلاً وفالح الطبل الآخر، وبدءا بالعزف مستعملين أطراف أصابعهم بالضرب بسرعة وبإيقاع متقطع. وأخذ إثنان آخران بالعزف بالمزامير. وقام كل واحد من الآخرين بمسك يديه معاً والأستمرار بفرقعة الأصبعين الوسطين لكل يد معاً بصوت حاد مع الضرب على الأرض بعقب قدمه الحافية.

---

* استقصيت عنهما فعلمت انهما اخوين: خزعل ومزعل، وقد طال بهما العمر حتى ماتا قبل بضعة سنين- المترجم

قام الأخوان بادئ الأمر بالدوران بفتور، ثم تمايل جسداهما وأرتفعت أيديهما وأصبح مرفقيهما بأرتفاع الأكتاف وعندما إزداد الأيقاع سرعة، تدلت إيديهما، وتلوت أجسادهما وتحركت أقدامها أسرع إلى الأمام والجوانب والى الخلف. كان الآخرون يغنون دون تحفظ. ووصل الرقص لذروته، ثم فجأة وقف الصبيان وقد باعدا أرجلهما وأجسامهما تهتز الى الأمام والى الخلف في إندفاعات سريعة من الورك، ثم تباطأت الحركات وأخذت الأجسام ترتجف، وتنتقل تقلصات كل عضلة الى التالية. ثم، وكأنه إتفاق تام، توقف الصبيان وإبتسما بتكشيرة واسعة للحضور وجلسا أرضاً.

إلا أنهما لم يتركا للبقاء جالسين، ومرة بعد مرة يقومان بالأداء نفسه بأختلاف بسيط. كان واضحاً أحياناً أنها محاكاة للعمل الجنسي بين الأطفال، ولكني لم أجدها فاحشه. وفي المساء بعدئذ، وبينما كان الحضور يرتلون ترنيمة دينية، قاما بتمثيل محاكاة غير محتشمة وكافرة لصلاة المسلمين، حيث يقوم احدهما بأيماءة إيحائية في عجيزة الآخر الذي أمامه. ولأنني تعودت على التصرفات السائدة بين المسلمين، فقد شعرت بقلق تجاه (سيد) وقور جلب ولديه لي لختانهما عند الصباح، وكان ثلاثتهم قد شاركوا بفعاليات ليلة أمس.

الثأر بالأهوار



الفصل الثالث عشر

الثأر في الأهوار

عندما حل الظلام في الليلة التالية، جلست أنا وداود في المضيف مع مجموعة من المرضى جاءوا للدواء، وليس للبقاء للمبيت. ومن خلال المدخل كنت أرى النيران التي أشعلت لحماية الجاموس من البعوض، وحجاب الدخان المتعاظم يتهادى الى الأسفل ليغطي سطح الماء. كان البعوض قد بدأ بالظهور، وكنت أتصور أن وجود مناطق القصب الملاصقة سيجعل هذا المكان غير جدير بالسكن في الصيف، حتى للمعدان أنفسهم. فجأة تغيرت وتيرة الأصوات الخلفية لنقيق الضفادع التي كنت بالكاد أسمعها، بإقتحام لحن منفرد متكرر. ولاحظ الآخرون ذلك. قال داود " إنها حية مسكت ضفدعاً. هناك الكثير منها حولنا. وحديثاً قتلنا واحدة كانت على السقف " وظل الصوت المزعج الهزيل مستمراً لفترة طويلة.

بعد سنتين كنت في نفس المضيف صيفاً، محاولاً تحريك الهواء قليلاً بمروحة من القصب، عندما شعرت بشئ ما خلفي. كنت على وشك أن أمد يدي، لكن إيحاءً غريزياً حذرني من ذلك. إندفعت الى الأمام، ولمحت ثعباناً طوله قدمين ذي لون فاتح، فضربته على رأسه بمقبض المروحة، فقتلته.

كانت الثعابين كثيرة، خصوصاً في الصيف. وأكد لي المعدان أن الفصيلة الأكثر سـماً هي (العربيد) الذي قد يصل طوله الى أربعة أقدام، وبجسم مكتنز ولون أسود مع إحمرار معتم. ومع هذا فأنا لم ألتقه إلا بحالة واحدة في جنوب العراق، وكان ذلك في عيد رمضان الذي صادف صيفاً. رجل وإبنته التي كانت في حوالي الرابعة عشر، قاصدين زيارة الجبايش لشراء بعض الجبن المحلي. وللتخلص من الحرارة، ذهبا وقت الظلام الى الزورق. وأثناء صعود الفتاة، وطأت حية فلسعتها في قدمها، وماتت بعد نصف ساعة. وصار دمها أسوداً تقريباً. وعندما حركوا

الجثة، إنساب دم داكن من فمها وأنفها. وقد وصلت لقريتهم بعد الحادث بقليل. وكما لو لم يكن هناك ثمابين حقيقة كافية، يؤمن المعدان بوجود وحشين خرافيين: (الحنفيش)، و (الأفة). والمضنون عن الأول أنه مغطى بالشعر، والثاني له سيقان. وأن الاثنين يسكنان قلب الأهوار، وكلاهما مهلك جداً.

بعد أن قام فالح برفع صحون الغداء، دخل المضيف رجل طويل القامة، نحيف الوجه وقد ربطت يده اليسرى بخرقة غارقة بالدم، كان قد قطعها بعمق وهو يقص القصب. لاحت عيناه بلون العنبر الداكن، وحول بسيط في إحداها جعل منظره شريراً. وقد جاء من (الكبيبة) وهي قرية كبيرة للفرطوس تبعد ساعتين في الطريق الى الصيكل.

منذ سنين، كانت العيسى، وهي نفس قبيلة الرعي التي خيمنا عندها أنا ودوكالد ستيورات، على حافة الصحراء، قد نالت السيطرة على الصيكل الكبيرة، في الهور، وحقول الرز الغنية حولها. ومنها غزوا الكبيبة، وبنوا فيها حصناً من الطين صغيراً كحامية لهم، حتى ثار الفرطوس ونالوا إستقلالهم. كنت ودوكالد قد مررنا خلال القرية مسرعين في العام التالي للثورة. وكان سائقوا زورقنا من العيسى، لذا فقد ضلوا مهيأين بنادقهم، حذرين، ولم يبادلوا القرويين تحية لان هناك ثائر بينهم.

كان الرجل الذي عالجت يده في مضيف جاسم قد ظهر لنا بعدئذ أنه احد قادة هذه الثورة. وقد سألته عن ذلك القتال، فاوضح متقداً : " لاحق للعيسى بالبقاء هناك. هم ليسوا معداناً، بل رعاة من الصحراء. الكبيبة في الأهوار وتعود للفرطوس، وآباؤهم من بنوا بيوت الدبن. ومنذ إحتلال شيوخهم للكبيبة إستمرت المشاكل، وأغلبنا تركوا القرية وبنوا لهم بيوتاً هنا وهناك. لماذا علينا أن نترك بيوتنا ؟ " هتف آخر : " نعم لماذا حقاً ؟ الله يلعن العيسى "

- " لذا قررنا القتال. قمنا بالأحاطة بالحصن في الليلة الثانية من الشهر القصير، بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس. كان القمر لامعاً. كنا نعرف أن هناك ستة رجال في الداخل، وقائدهم فليج. أرسلنا الزاير علي للحصن ليطلب منهم

التسليم، لكننا سمعناهم يصرخون بأننا معدان، كلاب أولاد كلاب وأننا اذا تقدمنا سيقتلوننا. عندئذٍ هاجمناهم من كل الجهات بزوارقنا صائحين صرختنا القتالية " آنه أخو عليه ".

حتى الآن، كان المستمعون محنين ظهورهم الى الأمام، مفتونين بالاستماع الى قصة حرب القبيلة التي كان أكثرهم قد سمعها عشرات المرات.

- " كان لديهم مدفعاً رشاشاً ورصاصه يقطع أعواد القصب منهمراً كالحالوب. الله اكبر. كان الذي وراء هذا المدفع لايعرف الأصابة جيداً، وإلا لمات منا الكثير تلك الليلة. قفزنا من الزوارق، وإكتسحنا الحصن. وقبل وصولنا إليه قتلنا إثنين منهم برصاصنا، وإثنين آخرين بالسكاكين. تزاحمنا في الغرفة السفلية حيث كان أحد الباقين الأثنين من العيسى يرمي فأصاب أنف أحدنا الذي صرخ " لقد رميت من الأعلى "، فرمينا وأبلا من الرصاص نحو السقف وقتلنا آخراً. لم يبق غير فليج، فصرخنا عليه طالبين منه الاستسلام، لكنه رفض. لقد كان شجاعاً والحق يقال. وصعد بعض الفرطوس السلم قفزاً، فرماهم وأصاب إثنين منهم، وكانا أخوين. ثم هتف بصرخة الحرب عندهم، وقفز من السطح حيث سقط وقد أصابته عشرات الأطلاقات فجعلته كالغربال. كان معه إبنه الصغير الذي طلب الرحمة، فصفحنا عنه، فلم يكن يستحق القتل، وهو الآن في الصيكل عند شيوخ العيسى. لقد قتل من الفرطوس بتلك المعركة أثنا عشر ".

وحالما توقف عن الكلام، نهض فالح، وضرب الأرض بقدمه وأنشد:

" يا أم كريم لاتنوحي فأن كريم قد مات بحمى الحرب "*

وفي ثوان، كان الباقون قد نهضوا على أقدامهم، مكررين كلمات الهتاف، دابكين بأقدامهم ومنتظمين بدائرة. انتفض فالح، وذهب ليعود ببندقيته، وأطلق النار عدة مرات بأتجاه السقف. وأشتركت أنا، وأطلقت عشر إطلاقات ببندقيتي.

* توصلت الى نص الكلمات " يم كريم لاتبجين كريم طاح بشاط الملعب " والمعنى واضح - المترجم

وأنـدفع نـاس أكثـر الى الـداخل وازداد الهيـاج وارتفـع الـضجيج. وأخـيراً توقفـوا منهكين. وأرسل جاسم داود لجلب سكر وشاي أكثر من الحانوت. وتساءلت من كريم هذا الذي ذكروه، فقالوا انه قائد الهجوم على القلعة.

بعد ثلاث سنين ذهبت عند العيسى، على الأرض اليابسة. وعند المغيب رأيت الهلال الذي ينهي شهر الصوم الطويل. وفي اليوم التالي. تجتمع القبائل المتناثرة لتقديم ولاء الطاعة والبيعة لشيخهم، والاشتراك بمراسيم العيد في خيمة الضيوف الكبيرة. ومنذ الفجر بدأوا بالقدوم من جوانب السهل الواسع، بعضهم على ظهور الخيل، وآخرون على الأقدام، وكل فريق تحت رايته القرمزية. وفي الأخير، عندما أحتشدوا قاموا بأجراء الهجوم والهجوم المقابل وهم على أحصنهم. وأما من كان على قدميه فقد تجمع مع الآخرين مدبكين ومطلقين النار من بنادقهم ومنشدين:

" سنعود ثانية الى المياه الواسعة   سنعود لنجلب معنا فليج "

وتذكرت تلك الليلة التي سمعت فيها لأول مرة كيف مات فليج من فم أحد الذين قتلوه.

تركت جاسم مبكراً في الصباح التالي. جاء معي داود وإثنان من جماعة جاسم مسلحين ببنادق (لي – إنفيلد)، وتتبعنا ممراً ضيقاً بين قصب عالي، والماء ملئ بحشائش كثة وطحالب، مما جعله يبدوا ممراً فوق سائل لزج من طحلب وأشنات. كان الامر صعباً ومجهداً لقائدي الزورق لتسييره وسط هذه الكتل من النباتات. وفي تلك المناسبة مررنا بكبيبه، القرية الكبيرة ذات الثلثمائه بيت. ووصلنا شريطاً من مستنقعات صغيرة، خلفها تقع حقول الرز عند الضواحي القريبة للصيكل. وفي شرق القرية، بحيرة عرضها ثلاثة أو أربعة أميال، تفصل الأهوار عن اليابسة. وفي هذا الوقت من السنة قد لا تمتد لأكثر من خمسة عشر ميلاً داخل مقاطعة الأزيرج. ولكن عند إرتفاع منسوب الفيضان، تتصل حتى بأرض الصحراء التي تغمر بالماء.

الصيكل هي أكبر قرية كنت قد رأيتها حتى الآن، وهي مقسومة بممر مائي واسع، على كل جانب منه شريط ضيق من أرض يابسة عليها عدة مضايف

وحوانيت. أما أكثر الأربعمائة أو الخمسمائة بيت الأخرى، فقد بنيت بطريقة المعدان، فوق (دبن). ويشرف على المدخل الشرقي للقرية حصن من الأجر، شيده العيسى بسرعة عندما كانت القرية مهددة من قبل البو محمد، كانت الشقوق العميقة تملأ جدارنه. يقابله في الضفة الجنوبية بناية من الآجر أيضاً مسطحة السقف، أعدت أيضاً للدفاع في حالة الحرب، مكونة من غرف أنشئت حول قاعة صغيرة، وبعيد عنها بثلاثين ياردة وعلى لسان من اليابسة يمتد الى البحيرة، ينتصب مضيف رائع باحد عشر قوس، والأثنان يعودان الى عبدالله، عم مزيد وممثله في الصيكل. بينما الشيخ مزيد نفسه فيعيش مع عشيرته على اليابسة. أما من يعيش في الصيكل من العيسى فبعض من عائلته ومريديهم. وباقي مستوطني القرية فمن الفرطوس والشغانبة وقليل من البو محمد والأزيرج.

لم يكن عبدالله حاضراً، لكن إبنه طاهر بالبيت، وهو صبي في السادسة عشر، طيب المعشر بكل صفات عرب الصحراء الجيدة. قادني الى المضيف حيث يجلس عدة رجال مسلحين، متلفعين بعباءاتهم. وكانوا من العيسى في زيارة لهم قادمين من خيامهم هناك في أراضيهم الرئيسية على اليابسة. عاد رجلي جاسم الذين لايكنون حباً للعيسى، الى العويدية حالما شربا الفناجين الشكلية للقهوة – كان داود بأمان تام في الصيكل، لان أبوه هاشم لا ينتمي الى الفرطوس بل الى (جاره)، وهي قبيلة صغيرة متناثرة أثنين أثنين أو ثلاثة ثلاثة في قرى الأهوار. ربما كان في خطر اذا ذهب بين الأزيرج عبر البحيرة، لأن من قتله هاشم كان واحداً منهم. والان وقد شعر بأن عبدالله قد خان أبيه، فقد جلس صامتاً، تتلاعب أصابعه بخرزات مسبحة، غير معيراً أي أهمية لكل محاولات طاهر البشوشة معه.

أطلق سراح هاشم آخر الأمر من السجن، وذهب للعيش في العويديه عندما جئت هناك وعرفته. لقد كان واحداً من الشخصيات الجذابة التي عرفتها بين المعدان، وكان يبدو أكبر من سنوات عمره الأربعين. فالسنوات العشر التي قضاها في السجن، جعلت شعر راسه رمادياً، وزادت خطوط وجهه. ورغم فقره فقد كان دائماً يصر على الترحيب بي، وعرفني كثيراً عن المعدان وعاداتهم. كان لايزال

معتبراً مطلوباً بالثأر من الازيرج، فليس هناك بين رجال القبائل من يعتبر السجن مبطلاً لعقوبة القتل، التي في رأيهم لاتمحى إلا بقتل آخر او دفع جزية مالية. *

وعشيرة هاشم قليلة العدد ومتناثره، يصعب جمع المبلغ منها في حالة ان الأزيرج وافقت على الفصل المالي. كما أنه مادام بين الفرطوس في العويديه، فهو أكثر أمناً من الثأر. ولكن لسؤ الحظ كان عليه أن يترك المنطقة.

عندما كان هاشم في السجن، زوج نسيبه جاسم إبنته الى رجل من البو محمد مقابل خمسة وسبعين دينار كمهر لها، وكالعادة صرف جاسم المبلغ لشراء الأفرشة والأغطية ولوازم البيت الأخرى للعروس لتأخذها لبيتها الجديد. وبعد إطلاق سراحه طالب هاشم بالمبلغ لنفسه، بينما أدعى جاسم أنه صرف المبلغ لمساعدة عائلة هاشم. وحسب طقوس القبائل، فأن بأمكان الأب استعادة إبنته المتزوجة، حتى بدون رغبتها، وحتى لو كانت قد انجبت أطفالاً، لكن عليه أن يعيد مبلغ المهر كاملاً. وقد مارس الآن هاشم هذا العرف، بالرغم من أن إبنته ولدت طفلاً. وعندما طالب الزوج بمبلغ المهر، أجابه هاشم بأن عليه أن يستعيده من جاسم. ولعدم إستجابة الأخير، إشتكى الزوج لدى الحكومة التي أرسلت رجلي شرطة لجلب هاشم الى العمارة للسؤال. وهل كان سوء الحظ أم خطة مدبرة أن يكون الشرطيان من الازيرج والعائلة التي كان لها ثأر مع هاشم أستدرجتهما للمرور به خلال منطقتهم، لا أحد يعلم. عندما علم هاشم بالطريق المزمع المرور به إحتج بشدة، لكنه أذعن عندما أكدا له أن لديهما عملاً يجب قضائه في الطريق وأن لا خوف عليه مادامأ معه.

توقفوا لتناول الغداء في مركز شرطة سوق الطويل، وعندما خرجوا لمواصلة رحلتهم، كان بأنتظارهم جمع من الرجال، يقف أخو القتيل أمامهم، ورمى هاشم في صدره بمسدس كان قد إستعاره من الشيخ. سحب هاشم خنجره، إلا أنه تهاوى. وبعد ما رمى المغير إطلاقتين وتلاشى، تظاهر الشرطيان بمطاردته، وظل هاشم

---

* سمعت قصصاً عن جرائم قتل في الريف وكل أهل القتيل محامين لأطلاق سراح القاتل، كي يتسنى لهم قتله أخذاً بالثأر- المترجم.

ملقى حيثما أصيب، نازفاً حتى الموت، ولم يقترب منه أحد. عاد الشرطيان بعد ساعة ونقلاه الى نقطة البوليس وبينما كان واعياً، إتهمهما بالأشتراك بقتله، ثم مات.

إلتقيت داود بعد ستة أشهر من موت أبيه. كان قد أعد لنفسه مسدساً، ويقوم بأظهار نفسه عدة مرات منفرداً بمنطقة الأزيرج ليجد من قتل أباه. ويبدو أن الحادثة شوشت شيئاً من عقله، فعندما حاولت إثناءه عن الذهاب بنفسه الى هناك، كان يكرر فقط وبدون إدراك:

" داود مات منذ عشر سنوات "

ولم أشاهده مرة أخرى ابداً.



العودة إلى كباب

الفصل الرابع عشر

العودة الى كباب

عند المساء، أخذني طاهر بطرادته الى البحيرة، وقمنا بجولة في محيط ممتع، وأثبت لي أنه مرافق مطيع. كان معه صبي صغير دمث الاخلاق، يرتدي عباءة مزدانة بلون الذهب. وتصورت أنه قريب لطاهر، لكني علمت بعدئذ انه ابن فليح، نفس الصبي الذي كان مع ابيه عند مقتله في معركة الكبيبة. عندما عدنا الى المضيف عند الفسق، كانت أسراب خفافيش صغيرة طائرة من القرية باتجاه الأهوار. وكميات منها توارت في سقوف المضايف، ملوثة الغرف ببرازها. والعصافير الدورية هي الأخرى تشكل إزعاجاً داخل المضيف بتمزيقها للقصب الرابط للأقواس الكبيرة. ولكن كيف ولماذا، هذا مالم أكتشفه ابداً. في السنة التالية، جلبت معي بندقية هوائية من أنكلترا، فكانت لعبة مفيدة بين الغرباء الذين كان وجودهم اعتياديا. وحالما جلبتها، طالب الجميع باستعمالها حتى أكثر أصحاب اللحى الرمادية صرامة. وعادة ما تكتسب علاقات طيبة عندما تساعد الناس بقتل شئ ما. وفي بكرة الصباح التالي، أخذونا، أنا وداود، الى العكر. وبينما كنا نجذف عابرين البحيرة الفضية، كانت طيور الخرشنة الرمادية الرشيقة كالسنونو، تنزلق على صفحة الماء اللامعة. وأعداد من البط تجمعت بهجرة الربيع، تفر طائرة حالما نصلها. وخلفنا، في الصيكل، كانت حركة الزوارق هادئة وبدون جلبة بين البيوت المستيقظة. شيئاً فشيئاً أخذت القرية تغطس تحت الأفق، حتى لم يبق منها ظاهراً غير مضيف عبدالله. وعندها نكون قد عدنا الى عالم الأهوار المغلق، حيث القصب النامي حديثاً خلال الأيام الاخيرة، مرتفعاً على القصب القديم. وبعد ساعة وصلنا بصورة غير متوقعة الى مسطح ماء مفتوح، في وسطه جزيرتان. الكبيرة منها تعود للشغانبة، بمائتي وخمسين دار، متراصة مع بعضها بحيث لا يشاهد من الجزيرة شئ. أما الثانية، فتبعد عنها مائة ياردة، وبها ثلاثون دار، بينها

مسافات كافية، وتعود لبعض من البو محمد. والجزيرتان متحالفتان مع مجيد الخليفة. توقفنا عند الضفة، حيث سياج واطئ، وكومة من الحشائش النقعة، وعلى ربعة كبيرة، وقف يونس مرحباً، وهو ذو بنية نحيفة ووجه ناعم ذكي. ورغم كونه كتوماً بطبعه، إلا أنه يبدو مجاملاً ودوداً.

كانت الغرفة قد إمتلأت. و(سيد) شاب من القورنة قد جلس في مكان الصدارة. وبينما كان يقوم بجمع الفلوس بحجة بناء جامع مزعوم في القورنة، وجد الفرصة ليعلن للحضور أن يوم القيامة قريب. كان واضحاً انه إمتعض من إقتحامي. بعد ذلك ببرهة سأل مستمعيه كيف سيكونوا بأمان اذا سمحوا للكافر أن يدنس بيوتهم ؟ أما يونس الذي كان يصنع القهوة، فقد ظل صامتاً. وعندما صارت جاهزة، نهض والدلة بيده، وإلتفت الى (السيد) قائلاً " أنا معيدي بسيط، ولست برجل دين، ولكن يبدو لي دائماً أن الأنكليز أنقى منا، بعضنا إلتقاهم، وكلنا سمع عنهم منذ أن حكموا هذه الأرض بعد طرد الأتراك. لم يكذبوا، لم يتقبلوا رشاوي، ولم يضطهدوا فقيراً. نحن المسلمون كما تعلم، نقوم بكل هذه الأشياء. لكن هذا خارج الموضوع. هذا الأنكليزي ضيفي. " ثم قال لي " صاحب. مرحباً بك. في بيتي يشرب الضيوف من نفس الكوب. هذه عادتي. ومن لا يوافق، فعليه الذهاب دون قهوة " ثم تقدم نحوي وقدم لي القهوة من الكوب الوحيد الذي يحمله بيده. وعندما انتهيت من رشفها، ملأها ثانية وقدمها للجالس قربي، وشرب الجميع إلا (السيد).

بعد ذلك، دخل سيد آخر من العكر نفسها. رجل فقير، يقضي طول يومه بقطع الحشيش لجواميسه القليلة. كان يبدو كالمعدان الفقراء الآخرين، ماعدا غطاء رأسه الأخضر. جلس قربي واستعلم عدة مرات عن صحتي. وتوقعت أنه سمع عن تصرفات زميله، وأنه مهتم لتقديم ما يرضي تعويضاً. بعد الغداء قال ليونس " سمعت أن الصاحب يحب الغناء والرقص. دعني أريه كيف يرقصون في الحجاز، أرض أجدادي " ثم قام بجلال بأداء دوران على قدم واحدة، تختلف تماماً عن الوثب الذي إعتاد عليه المعدان. قدرت له هذه الأيماءة. أما السيد الآخر فقد إنسحب الى

زاوية حيث جلس يغمغم وتتلاعب أصابعه بمسبحته. لقد كان (السيد) الوحيد الذي وجدته جلفاً تجاهي. كثير منهم كان يتحفظ معي بادئ الأمر، لكنه مع الوقت يتخلى عن تحفظه. وعدد منهم صار من أعز أصدقائي وبعض المعروفين منهم جلب لي نسائه للعلاج واطفاله للختان، وهو شعيرة دينية يفضل أن يقوم بها زميل مسلم.

صباح اليوم التالي، إقترح يونس أن نشهد حفلة زواج في ربعة كبيرة بطرف القرية الآخر، وقد جلب لها ذكرينثة مشهور من المجر. ولبعض الوقت، كنا نسمع أصواتاً بعيدة لغناء وطبول. كان الصبي يرتدي ثوباً نسائياً قرمزي اللون مع خيوط من لألئ مزيفة وأقراط أذن ذهبية ثقيلة. أما شعره فقد مشط وعطر وتدلى على كتيفه كالبنت وحشى صدره ليماثل صدر امرأة. وجمل وجهه بالمساحيق. كان يبدو كفتاة متصنعه، ويتصرف باسلوب رقيق وغنج كمومس ولكنه بالتأكيد كان قادراً على الرقص بمهارة. كان يستعمل في كل يد زوجاً من الصنج، علامة المهنة، لأن لا أحد يستعملها في القرية. وبغرابة تامة، كانت إيماءاته أقل إثارة للشهوة الجنسية بكثير من تلك التي كانت للصبيين الذين شاهدتهما في العويديه. كان أكثر رقصه عرضاً بهلوانياً من طراز عالي. وكانت التعليقات التي سمعتها لم تدع شكاً لنزعاته السيئة الأخرى.

بين القبائل، في القرى، لا توجد امرأة خفيفة، ولا من تمارس البغاء أو أي شئ آخر. وإن الأمر لا يحتاج كثيراً للأثبات حتى تدان البنت وتنهى حياتها. والاشاعة عادة تكون كافية. وتقوم عائلتها بقتلها دون رحمة لتسترد شرفها. ويناط الاعدام عادة بأخيها الذي لايصفح عنها آملاً أن يبقى في عشيرته. وبهذا لايمكن لشاب أن يعاشر أو يلاطف فتاة حتى يتزوجها شرعاً. لهذا ينفس الشباب عن رغبتهم الجنسية بممارستها مع الآخرين من الذكور سراً، مع عدم إظهار أي علامة غير طبيعية في تصرفاتهم الخارجية. والذكرينثة يعتبر بغياً مهنياً في المدن، ويتحدث عنه المعدان كهذا. ولكني لم أسمعهم يوماً يتحدثون عن الشذوذ الجنسي، لامظهرياً ولا تلميحاً في مجتمعاتهم. وكتناقض أكثر، تجدهم يتحدثون بصراحة عن العادة السرية، بل وحتى عن المداعبة والاتصال مع الحمير.

بعد الرقص، أخذني يونس الى ساحة، حيث كان هناك زورق يماد طلائه. فالقير لايبقى أكثر من سنة، وبعدها يأخذ بالتشقق والسقوط بالماء. ومن الممكن علاج هذه الشقوق مؤقتاً بأذابه القير بشعلة من قصب محترق. ويؤكد المعدان دائما ان الطلاء الذي يجري في الجو البارد لا يدوم لفترة أطول من ذاك الذي يجري في الحر. داخل سياج القصب عدة زوارق قد سحبت من الماء. أحدها قلب على ظهره، واربعة من صبية صغار على وشك الأنتهاء من تقشير طبقة القير من على قعره وجوانبه. وصبي أكبر يقوم بأذابة قطع كبيرة من قير طري داخل صفيحة معدنية فوق نار صغيرة. تبعثرت في الساحة قطع خشب مكسورة وزوارق خربة، ورائحة القير الحار اللطيفة تملأ الجو.

صاح الصبي " علي. يونس هنا " ومن أحدى الدور ظهر رجل كبير برداء قذر سأله يونس " هل انهيت زورقي ؟ " فأجاب علي " كلا. ليس بعد. سوف لن يأخذ وقتاً أطول. الفروخ على وشك تعريته " والفروخ هو تعبير اعتيادي للاطفال الصغار في الأهوار. ثم فرش حصيرة من القصب عند حائط بيته قائلاً " إجلسوا واستريحوا هنا ريثما ننتهي " ثم قال لاحد الصبية " ولدي حسين، اذهب واطلب منهم عمل الشاي لنا " فاعتذرت بأننا شربنا الشاي لتونا في بيت يونس ولعده مرات في حفلة الرقص، لكنه الح " لايهم. إشرب أكثر " وذهب ليراقب الزورق. كانت الألواح العارية مليئة بالحفر والثقوب والشروخ، فقام باختيار قطع صغيرة من الخشب المتناثر وأخذ ينجرها بمعول لتناسب الفتحات الكبيرة، ثم ثبتها بمسامير. بعد ذلك غرف الصبي الكبير بعضاً من القير المغلي بمجرفة وسكبه على قعر الزورق، وقام علي بنشره ليجعله بسمك ربع بوصة، ولما إنتهى من ذلك بدا الزورق كما لو كان جديداً، أسوداً ناعماً.

جاء علي وجلس قربنا وأشعل سيكاره قائلاً: " إنتظر قليلاً وخذ زورقك " وأرسل حسن لجلب المجاذيف. ولاحظت ان كل الزوارق تؤخذ ليلاً للرسو بعيداً عن البيوت بحوالي مائة ياردة داخل البحيرة. وشرح لي يونس ان ذلك كي تكون بعيدة عن وصول الجواميس التي قد تأكل القير، وهي عادة توجد عند جواميس بعض

القرى وليست موجودة في آخرى. وعند وصول المعدان لقرية غريبة يسألون عادة عما اذا كانت جواميسهم تأكل القير أم لا. وجواميس العكر لها سمعة سيئة من هذه الناحية. أخبروني أيضاً أن القير يجلب من هيت على الفرات غرب بغداد. وسبق وأن كنت هناك وشاهدت الأحواض حيث يظهر القير الذائب بفقاقيع من باطن الأرض. وبعد تبريده يرسل على شكل قطع صغيرة تشبه السطح المتكسر لطريق مرصوف بالحصباء. لايوجد خشب لائق لاستعماله للزوارق في جنوب العراق، وصانعوا الزوارق يفضلون أشجار التوت من كردستان للأضلاع، أما الألواح الأخرى فيستعملون خشباً مستورداً من الخارج. هناك صانعو زوارق مثل علي في العديد من القرى الكبيرة حول الأهوار. وفي الهوير على الفرات، بضعة أميال جنوب الجبايش، كل القرية الكبيرة تخصصت لهذه الصنعة، حيث لايصنعون المشاحيف فقط، بل الزوارق الشراعية مزدوجة الصارية ايضاً. والحاج حميد، الذي يعيش هناك، من أشهرهم، وطرادته مشهورة في هذا الجزء من جنوب العراق. ولكن أعمال بعض الآخرين معروفة أيضاً. ورجال الأهوار بأمكانهم معرفة صانع طرادة بمجرد النظر إليها.

أهل قرية الهوير مسلمون، ولكن، كما في كل مكان، أكثر صانعي السفن من الصائبة. ورغم أنهم مذكورون ثلاث مرات في القرآن مع المسيحين واليهود (كأهل كتاب) إلا أن الصائبة المعروفين (بالصبة) محتقرون بصورة عامة. والمسلم لا يأكل او يشرب معهم. ودينهم يحرم بتر أي عضو من الجسم، وبالتالي فهم لا يختتون. ولهذا فالمسلمون يستعملون كلمة (صبة) كتعبير سئ عن رجل بالغ لم يجر هذه العملية بعد. وهم يتميزون بلحاهم الكبيرة وغطاء الرأس الابيض والأحمر. وقد أحصي عدد الصابئة فكان بضعة الآف، أكثرهم في بغداد والبصرة وسوق الشيوخ والعمارة، حيث يشتهرون باعمال الفضة. بعض العوائل المنفصلة تعيش في قرى المسلمين حول الأهوار، وعلامة وجودهم البط الداجن المحلي، فالمسلمون يأكلون البط البري وليس الأليف. والصائبة يمارسون التعميد بالغطس بالماء كل يوم أحد، وكل مرة يتعرضون فيها للتلوث أو أي انتهاك لأي نقاوة لطقوس دينهم.

ولهذا يسميهم بعض قليلي المعرفة من الأوربيين (مسيحي القديس جون). وفي الحقيقة هم وثنيون، رغم أنهم يعبدون الكائن الأعلى. ودينهم، كما عرفت، يحتوي على عناصر من المانوية، ولكن ليس الإسلام. ولغة طقوسهم هي الآرامية.

يقوم الأطفال أحياناً في الأهوار بصنع طوافات صغيرة من حزم من أحراش البردي، وأحياناً يثنوها الى الأعلى في أحد أطرافها لتصبح مقدمة لها. ويجذفون بين القرى بواسطة هذه المراكب البدائية البسيطة. وقد شاهدت مرة نوعاً من الزوارق يدعى (زيمة) في فرع للفرات جنوب سوق الشيوخ. وهو مصنوع من القصب ومطلي من الخارج بالقير، وطوله عشرة أقدام، وعرضه في الوسط قدمين ونصف. وقال لي صاحبه ان الزيمة لا تدوم أكثر من سنة لان القير لا يمكن تجديده لوجود القصب. ثم وصف كيفية صنعه عملياً. فقام أولاً بعمل بضعة حزم مشدودة بقوة من خمس الى ست قصبات، أطول من الزورق المراد، ثم شدها بأحكام جنباً الى جنب لتشكيل القعر المسطح، تاركاً ثمانية عشر بوصة من كل حزمة حرة، ثم يقوم بثنيها الى الأعلى، بعد ذلك ثنى خمس قصبات طويلات بشكل حرف U ومرر الوسطى خلال النهايات الحرة للقعر المصنوع، وربطها ثانية بحزم القعر نفسه. وكرر العملية في كل نهاية بالتعاقب، حتى أنهى بناء الجوانب وأطراف بدن المركبة. وقوى هذا الهيكل بشد عدد من أضلاع مصنوعة من أثنين أو ثلاثة أعواد أغصان الصفصاف إليه. وحزم من بضعة قصبات قويت واحدة تحت الأخرى على جوانب الزورق، بحيث غطت النصف العلوي من الأضلاع، وشكلت الأرضية الداخلية. في النهاية، حصر ثلاث عصي سميكة عبر الزورق لتكون أماكن جلوس المجذفين مؤمناً نهايتها في محلها بكتل من القير. وأصبحت الزيمة الآن مهيئة للطلاء من الخارج بالقير. يمتلك الان أفقر المعدان زورقاً خشبياً، ولكن في الماضي، عندما كانت الأتصالات غير مستقرة، ويصعب الحصول على خشب، ربما كانت الزيمة ومثيلاتها هي التي يستعملها العديد من المعدان. هناك زورق دائري الشكل يسمونه (كفه) معروف حول بغداد، ولم أر منه جنوب بغداد إلا واحداً قرب الكوت – شيخ سعد.

من العكر قررت العودة الى كباب لأتمكن بسهولة من ارسال داود للعمارة. رافقنا إثنان من أولاد عم يونس. احدهم أمال الزورق بدون إتقان عندما صعد إليه

وسال الماء من الجوانب. وأضحكني سماع صوت الثاني مستهزئاً " انت عربي أم كردي ؟ " ملمحاً إلى أنه لابد من غير المعدان. وكان طريقنا الى بومجيفات يقع بين مناطق قصب كثيفة. وحالما بدأنا، مرت بنا عائلة بكاملها تنتقل. صبيان في زورق يستحثان مجموعة من الجواميس تتبع زورقاً يجذف فيه رجل اكبر مع صبي آخر كان يترنم بصرخات تستحث الحيوانات السابحة. أمرأة وأطفال صغار ثلاثة أحدهم لايرتدي غير ياخة فضية حول رقبته، ويشاركهم في نهاية الزورق زوج من العجول وقطة وعدد من الدجاج. أما الجزء الأمامي من الزورق فقد كان مكدساً الى الأعلى بمادياتهم، المتضمنة هيكلاً مفككاً لبيتهم، حصران قصب، دوارق للماء، أواني طبخ، أكياس حبوب، ورزمة كبيرة من اللحف. ووقف على كل هذه كلب بين أعمدة ممضخة لبن ويعوي علينا عندما حاذيناهم.

كان صدام الذي سمع أنني وصلت العكر، ينتظرني مرحباً بعودتي الى كباب. سألته عن إبنه عوده فقال " يقبل أياديك. لقد ذهب للحانوت وسيعود خلال دقائق. " وكالعادة، حالما وطأت رجلي الأرض، وصل أول مرضاي. شاب يئن ويتلوى في قعر زورق. كان الألم فوق كليتيه ويعود بتقلصات مؤلمة للغاية. إرتبت ان يكون السبب حصاة. ولمحاولة التخفيف عنه، مسحت جنبه برقة بمرهم فازلين كابسيكوم. وعندما مرت حالة التقلص، أعلن أنني شفيته. شعرت انني قمت بشعوذة أكثر من المعتاد. على كل حال فأن (دوائي المحرق) صار معروفاً تقريباً عند كل ناس الأهوار حتى الأطفال الصغار الذين لابد وأن شكوا من هذه الآلام التي يسمونها (خاصرة). وقد أراني مرة صبي في الثانية عشر بعض الحصوات، أكبرها بحجم حبة الفاصوليا، كانت قد عبرت لتوها. وفي مناسبة أخرى سألني (سيد) شاب ذو شأن أن أعطيه من الدواء المحرق لانه يشكو أحياناً من الخاصرة، فاعطيته قليلاً في علبة كبريت محذراً إياه أن لايقربها من عينيه، وان يغسل يديه بعد استعمالها. عاد ثانية بعد عشرة دقائق مهتاجاً، وبجمل غير مفهومة. فلأسباب وجدها عنده، مسح بهذا المرهم عضوه الذكري. كان يتراقص ملتوياً من الألم، وأقسم انه يقتله. فاقترحت ان يقوم حالاً بالاغتسال بالماء والصابون. أحد رجالي وجد الامر مضحكاً فاقترح ان يذهب (السيد) ويبرد نفسه في زوجته.

صباح اليوم التالي، وقبل ان يكون الضياء تاماً، أيقضني داود بهزة قائلاً ان هناك بعض الناس قد جلبوا صبياً مجروحاً. ودخل رجل وأمراة يسندون صبياً في الثانية عشر من عمره. كان قميصه المخطط بالازرق والأبيض ممزقاً وملطخاً بالدم، والنصف الأسفل من وجهه مغطى بقطعة مليئة بالدم. عيناه كبيرتان تحدقان بي من وجه شديد البياض. سالت ماذا حدث فقالا " كلبنا قد عضه ". كان الطفل يرتجف فغطيته ببعض البطانيات، وأشعلنا ناراً لتسخين ماء. ثم رفعت الضماد المدمي فظهر خده وقد تمزق، وقطعة منه قد تدلت، وبانت أسنانه الخلفية. وأثار عضات أخرى على يده وكتفه. لم يتكلم إطلاقاً، ولكنه كان ينظر اليّ بعينين لاتطرفان. نظفت الجروح وعقمتها برش مسحوق السلفا، ثم، وبعناية شديدة، خيطت القطعة المتدلية الى مكانها. ادار عينيه حول محورهما ولكنه لم يشكو أو ينشج. وعندما إنتهيت، غمغم " شكراً لك صاحب " وهي أول ماتفوه به من كلمات منذ وصوله. وزرقته حقنة بنسلين وتركته يرتاح قرب النار.

التحق بنا صدام، وبينما كنا نشرب الشاي، حدثنا الاب الذي جاء من الدوب، قرية في الأهوار الى الشرق، بأن ولده ذهب لخارج البيت قبل ان يستلقي لينام " كلبنا تعرفه يا صدام، وحش كبير وعظيم. هجم عليه ومسكه من ذراعه. هذه آثار اسنانه، أسقطه أرضاً وراح يحاول نهش حنجرته. الحمدلله لعدم تمكنه من ذلك، وإلا لكان قد مات، لكنه عضه من خده. الفرخ لم يصرخ ابداً. وبالحقيقة ياصدام، أنا ذهبت للخارج لأرى ماذا أزعج الجواميس، فوجدت أبني يناضل من أجل حياته. الله رحيم فقد سمعنا أن الأنكليزي كان في كباب، وهكذا جلبنا الصبي الى هنا في أول الضياء. رميت الكلب قبل مغادرتي فقتلته "

كنت أخشى أن يكون الكلب مصاباً بداء الكلب، لكن الاب اكد لي انه لم يترك الدبن العائد له ابداً ولم يلتق بحياته بكلاب اخرى. وعند العصر أخذوا الطفل معهم عائدين ويده الصغيرة تقبض على ورقة فئة دينار لشراء ثوب جديد له. شفي الجرح بصورة جيدة، وبالرغم من وجود ندبة هلالية الشكل على خده، إلا أنها لم تجعل فمه غريب الشكل. ويؤكد المعدان ان الكلاب لاتعض النساء ولا البنات، وأنا أيضاً لم أشاهد أي حالة منها.

عندما علم صدام باستمتاعي برقصهم، قرر أن يعد لي ليلة لن أنساها. فما إن تناولنا الطعام، حتى جلب الطبول والدفوف التي أدفأت فوق النار لشد جلودها. وعندما سمع الناس قرع الطبول التمهيدي للتأكد من رنينها، قدموا من كل أطراف القرية. جاء عجرم مع أبيه، والشاب حلو وأخوين أصغر وأنحف منه. وكان لهم أصوات هادئه ولكنها حادة، وسرعان مارافقوه في " ظالم من صغر سنك ". وجاء أيضاً صحين، رئيس بومجيفات مع أخيه حافظ ومجموعة كبيرة من قريتهم، مع الشابين ياسين وحسن، الذين صارا بعدئذٍ من سائقي زورقي.

كان هناك صبي من الفرطوس إسمه داخل، وهو يتيم ومعدم، ولكنه مشاكس ويتشاجر مع أي كان بالتتابع، ولهذا كان ينتقل من قرية الى أخرى باحثاً عن عمل كراعي. إلا أن سحراً غريباً رافق إسمه، بحيث أخذ الناس يتحدثون عن سرعة غضبه. وقد وقع بحب أخت وادي، الصبي المرح ذو الأربعة عشر سنة الذي يجلس قربه. وبحث بسيط نهض داخل وأخذ يرقص، وكان وجهه وحركاته توحي بصورة كوميدية انه مظلوم وناقم. لقد كان وراء نجاح تلك الليلة. عدة صبيان رقصوا منهم عجرم، لكن داخل هو من طالب الجميع ليعيد ويعيد. وبعد ذلك أصر حسين والد عجرم على أن يرقص. ويبدو أنه كان مشهوراً بالرقص وهو صبي، أما الآن فقد صار جديراً بالضحك تماماً وهو يثب مرحاً كأداء الفيل حتى صاح به صدام " حسين كفى. اجلس ودع داخل يرقص ثانية "

خلال الامسية، جلس قربي عدة رجال لم أعرفهم، وذكروا كم هم سعداء لعودتي. كنت قد قضيت معهم يومين، إضافة لشهرين سابقاً، لكنهم جعلوني الآن أشعر كما لو كنت قد عشت معهم سنيناً. إنتهت الحفلة قبيل الفجر. وعندما ذهبت للخارج كان هناك ضوء خافت قد بدأ بالظهور من الشرق. وفي الظلام أسفل موقعي كنت أسمع ضربات المجاذيف واصوات تودع بعضها، عائدين لبيوتهم. كان من المستحيل أن لا أستجيب لمثل هؤلاء الناس الودودين.

فالح ابن مجيد



الفصل الخامس عشر

فالح إبن مجيد

مجيد الخليفة هو شيخ البو محمد في كل منطقة المجر وحاكم مطلق لأكثر منطقة الهور. ولأنه كان عضواً في البرلمان فهو يقضي اكثر اوقاته في بغداد، تاركاً إدارة أملاكه الواسعة لابنه الكبير، فالح. ولقد بقيت في الأهوار سنة قبل ان التقيه. وأثناء مروري بكباب، سمعت انه وصل حديثاً من بغداد وأن صدام وكبار رجال القرية قد زاروه لتقديم إحتراماتهم. ورأيت أن علي أن أقوم بنفس الشئ، لذا فقد تركت القرية صباح أحد الأيام مع رفاقي ياسين وحسن من بومجيفات والذين صار لهما ستة أشهر معي. كان ياسين يملك زورقنا، وهو في السادسة عشر من عمره، طويل القامة، ذو بنية رشيقة وجسم رياضي. وله وجه جذاب مع أثر بسيط لدم منغولي. أما حسن فبنفس عمره، إلا انه قصير وممتلئ، ويشاطرني في صيد البط البري ويمتلك بندقية محلية من التي تعبأ من الفوهة، ثبتت سبطانتها بسلك نحاسي. وقد أقنعته ليدع سلاحه هذا وان بأمكانه استعمال بندقيتي. ومن بين الأثنين كان ياسين الأكثر شخصية مسيطرة والأحسن تجذيفاً. ورغم أنه صبي، إلا أنه يعتبر ذو خبرة متميزة، حتى بقياسات المعدان.

نهر المجر، وهو فرع من دجلة، ينقسم بعد مدينة المجر الكبير إلى العدل والوادية، وكلاهما يتشتت في الأهوار بعد ثمانية أميال الى الجنوب، ويكونا قد فقدا أكثر مياههما بقنوات الري العديدة. وقد تتبعنا أحد هذه القنوات حتى وصلنا العدل الذي تقع عليه قرية مجيد، وعندها ربط حسن حبلاً بمقدمة الزورق، وأخذ يسحبه ضد التيار بينما قام ياسين بقيادته بواسطة المجداف من مؤخرة الزورق. مررنا بعدة قرى متتالية، وحوالي الساعة العاشرة وصلنا بناية كبيرة من الاجر مربعة الشكل بسقف مستوي وجدرانها متشققة، تبدو عليها آثار فعل الجو، وهي مسكن مجيد الخاص، خلفه ينتصب المضيف القديم الخرب، مائلاً لاحدى جهتيه.

كان واضحاً انه لم ينه بناء مضيفه الجديد بعد ، رغم حزم القصب المكدسة قربه. وهناك حشد يتسكع خارج المضيف الذي يجلس فيه مجيد للمقابلات. تقدم رجل ودعانا للدخول. نهض مجيد من على البساط وتصافحنا. كان يبدو أقل طولاً من المعدل لان له بنيه ثقيلة وأكتاف عريضة، وبينما كان ذا قوة هائلة في شبابه، فقد أخذ يشيخ في كبره وتتدلى الآن بطنه بطيات، جعلته يتهادى في مشيته. وفوق رقبته العريضة والقصيرة رأسه ذو الوجه المعروق المغطى بشعر خشن فضي اللون. أما عيناه الصفيرتان الحمراوان، فقد شعت منها الحرارة والتكبر. كان يبدو كما لو إستيقظ لتوه من الرقاد ، وربما لايمكن التكهن بمزاجه. أمر بزوج من الكراسي تشبه االصناديق ذات مساند، مصنوعة من الخشب ومغطاة بالمخمل الأزرق. حملت للداخل ووضعت وجهاً لوجه عبر الغرفة. دعاني للجلوس على أحدها وجلس هو على الآخر. اصبح المضيف مزدحماً ، وشعرت أن الجلوس على الأرض كان أقل تنافياً للذوق.

بعد عدة أسئلة عن صحتي، عاد وإنهمك مجيد مرة أخرى بأعمال يومه. كان يتعامل مع كل قضية ببراعة وسرعة، ولكنه أظهر إهتماماً قليلاً بشعور الآخرين. واذا ما حاول أي واحد الأحتجاج، أسكته بخزرة من عينه. أما كاتبه فقد كان في منتصف العمر، تبدو عليه آثار إصابة سابقة بالجدري، ويتصرف كالخادم، فقد جلس جنبه مسجلاً كل قراراته، كان يرتدي، كمجيد، معطفاً من قماش داكن ثقيل، وعباءة بنية اللون، أما عباءة مجيد فأرق حياكه بكثير وخفيفة كنسيج العنكبوت. كل الأرض تعود لمجيد ، لذلك كان نزيهاً في أحكامه، لكنه كان مهتماً فقط بتأمين أعلى غلة ممكنة.

ورغم شهرته بالجشع، كان مالك أرض قدير، حيث يعرف كل زاوية من أراضيه، ولديه خبرة نصف قرن من تقدير مستوى المياه التي يعتمد عليها الفيض والرخاء. يعرف بالضبط متى وأين يبني سداً ، متى وكم يقلل من مياهها.

كنت دائماً أندهش عندما أرى كيف أن أنهاراً عميقة وبعرض خمسين ياردة، وإختفت في الفيضان، أعيدت ثانية بلا أكثر من أغصان مقطوعة وقصب وطين.

كان الأمر بحاجة شديدة الى عمل كبير، ليس فقط لبناء مثل هذه السدود، ولكن أيضاً لتنظيف القنوات وتقوية سدادها الجانبية. وهؤلاء المزارعون، ككل العرب، يمتلكون القليل من الشعور بالعمل الجماعي. ولو ترك الأمر لهم، لقضوا ساعات في الحديث والصياح قبل موافقتهم للبدء بالعمل مهما كان حيوياً. فعند الموعد المضروب، ستصل حفنة منهم فقط. وبعد فترة وجيزة سيتركون العمل وقد ثبطت همتهم. ومجيد يعرف العمل المطلوب، معطياً أوامره وفقه، ويجبرهم على قضاءه. واذا ماحاول رجل تجنب أو إهمال دفع ما عليه من ضرائب، سيرميه أرضاً ويجلده. عموماً، إن الطبقة الرسمية والنخبة من أهل الفكر في المدن، معادون للشيوخ، يحسدونهم على ثروتهم، وقلقين من قدرتهم على تحطيم قواهم السياسية. وعندما يتكلمون عرضاً عن مصادرة أراضي الشيوخ وتوزيعها على المزارعين، يتغاضون عن حقيقة ان العراق لايمتلك خدمات ري قادرة على أخذ مكانهم. إن أغلب الشيوخ الكبار في منطقة العمارة هم إبتزازيون وإستبداديون ولكن أكثرهم، مثل مجيد، مزارعون من أحسن طراز، ولديهم معرفة عن مقاطعاتهم التي إكتسبوها منذ نعومة أظافرهم. ويشعرون بالحب عميقاً للأرض اكثر من مصلحتهم الشخصية. واذا ما إستبدلوا، فان الموظفين الذين ربما سيأتون من بغداد والموصل، سيكونوا بحاجة الى سنين لأكتساب نفس المعرفة المحلية، هذا لو أقنعوا بالبقاء. وان فشل أو نجاح الحصاد، لن يؤثر بهم شخصياً، وحتماً سيفرّون بمنح المياه لا إلى الفلاح الذي يحتاجها أكثر، بل لمن يدفع لهم أكثر "أتريد ماء ؟ ماذا ستدفع لي ؟ نصف دينار ؟ لماذا تأتي وتضيع من وقتي ؟ أخرج " إن من السهولة تخيل مشهد كهذا. والأمر لم يكن لأخراج الشيوخ وفقدانهم سلطاتهم، ولكن لتأمين السماح للعاملين من الموظفين بنصيب أكبر من المحصول وبعض الضمان لبقاء سيطرتهم.

بعد ثلاث ساعات في المضيف، وبالوقت الذي أخذ الحضور يغادرون، كنت قد سأمت. احسست بالجوع. وكانت الغرفة نصف مملؤه عندما دخل خادم جالباً بضعة صحون فيها دجاجة محمصة وسمكة مشوية ورز وخبز ومرق. وبأوامر من مجيد، جُلبت منضدة صغيرة كسيحة أمامي وضعوا فوقها الصينية. بعد أن غسلت

يدي دعاني للبدء. توقعت مشاركته لي، ولما لم يبد ما يشير لذلك، طلبت أن توضع الصينية على الأرض كي يأكل معي ياسين وحسن، فقال بفضاضة " لا. لا. كل بمكا نك. لا يهمهم، سيأكلون بعدئذ " وأصريت على أنني افضل الأكل على الأرض فهي عادتي عند الأكل مع رفقائي. إلا أنه قال " لا. لا. هيا كل بمكانك " ثم إلتفت ليتحدث مع شخص آخر. لم تكن هذه طريقة لمعاملة ضيف. كنت على وشك الغضب، لذا فقد أخذت لقمة واحدة من الرز ونهضت. طلبت الماء للغسل ونظرا الكل لمجيد الذي سألني ما الخطب:

- " لاشئ. أشكرك كثيراً. لقد إنتهيت "
- " أوه. دعوه يأكل على الأرض اذا أراد "

شكرته ثانية، وأكدت له أنني أكلت ما يكفي، وعدت الى مقعدي وإستفاد ياسين وحسن من إمتناعي عن الأكل لتتوفر لهما وجبة جيدة. بعدها، غادرنا المضيف.

لم أذهب لقرب مجيد مرة أخرى لأكثر من سنة. وفي المرة الثانية أستقبلني بشكل مغاير. وألح أن أقضي الليلة عندهم، وأكل معي، وكان مجاملاً، ككل العرب مع ضيوفهم. بعد ذلك توقفت عند مضيفه في عدة مناسبات، ورغم أنني لم ارتح له ولم أحبه لكني بدأت أحترمه وأقدره.

في طريقنا من كباب ذلك الصباح، إتفقنا على قضاء الليل عند فالح في مضيفه في العويدية. كان كريم الوفادة تجاهي في العام الماضي، وألح عليّ بالعودة. لكن ذلك لم يحدث، ففي الحقيقة كنت قد أخذت رأياً مسبقاً ضد الشيوخ، ككل، من أولاءك الذين إلتقيتهم عندما بقيت عند دوكالد ستيورات في العمارة. بعد الأستقبال الذي لقيته من مجيد، كنت لاأزال غير ميال لزيارة إبنه، وأقترحت العودة مباشرة الى كباب، لكن ياسين قال " لا. دعنا نقضي الليلة عند فالح، فهو يختلف ".

بعد ساعتين، أراحني فالح في مضيفه قائلاً " كنت آمل أن تعود إلينا آخر الامر. لقد سمعت الكثير عما تقوم به، من المعدان. فهم دائماً يمودونك كطبيبهم. وأنا على ثقة أن قروينا بحاجة الى دواء دائماً. لقد شاهدت الأهوار. دعنا نرى شيئاً عنك. هل أصطدت طيراً في الآونة الأخيرة ؟ ماذا ؟ ولا حتى واحد ؟ إنتظر فقط حتى يرتفع الفيضان، حينئذٍ لنذهب وراءهم معاً ". كان مشغولاً بتنظيف القنوات وتقوية سدادها قبل موسم الفيضان. وفي تلك المرة، بقيت إسبوعاً، سعيداً للفرصة التي أتيحت لي للتعرف على المزارعين غير المعدان. كنا نبدأ رحلتنا كل صباح في طرادته، ونعود بعد الظهر، حيث نتناول غداءنا في بعض القرى بالطريق. وكما تنبأ، جاء العديد من المرضى الى مضيفه كل يوم. كنت أعالجهم قبل مغادرتنا أو بعد عودتنا. في قرية زاير محسن إلتقيت بمناتي، الرجل الذي سبق وأن تعرض لهجوم الخنزير. وصدمت عندما رأيت كم كان ضعيفاً، محني الظهر. وأستعدت كلمات الرجل العجوز " لقد أنهت تلك الخنزيرة مناتي "

قال فالح مشيراً الى أحد صبيين يساعدان محيسن في تقديم الطعام " إنه شاب جيد، أبوه العجوز نكب لا يقدر على العمل الآن، وعمارة يعتني بالعائلة، فهم فقراء جداً " ثم سأله " أصحيح أم لا أنهم سموك عمارة لان أمك ولدتك هناك في السوق ؟ " إبتسم عمارة وأجاب: " نعم. إنها حقيقة، ولكني لم أر العمارة منذ ذلك الحين " كان ذو بنية نحيلة، وسيما ورشيقاً، ومتمالكاً لنفسه، أرستقراطياً بالطبيعة، وبعكسه كان الصبي الآخر، أخرقاً، وبعيداً عن الوسامة، لكنه جيد الخلق. وقد دعاه فالح سبيتي، قائلاً أن أبوه يدير حانوت القرية، مضيفاً أن حالتهم المالية جيدة وهم مجاملون. يبدو أن سبيتي كان سعيداً. في صباح اليوم التالي، وجدت الصبيين مع آخرين من قريتهم التي تبعد حوالي خمسة أميال، ينتظرون خارج مضيف فالح، لختانهم. وعندما سألت عمارة كيف يعتزمون العودة لديارهم بعد ذلك، قال: " سننتظر هنا حتى يختفي الألم قليلاً، ويتوقف النزيف، عند ذلك سنعود " وهذا ما فعلوه.

في مضيفه الخاص، يحتفظ فالح بهيئة شيخ من في أهميته، ولكن في القرى، كان ودوداً وغير رسمي. وحرارة تحياتهم له تثير المشاعر. كان الأطفال يركضون أمامنا صائحين " جاء فالح " وعندما نصل، كان آباؤهم يلحون عليه للدخول وتشريف بيوتهم. وعندما يكون وقتاً ما صلباً، وحتى بدون رحمة، يحترمون قراره، ولم أسمع ان قراراته كانت في يوم ما غير مصيبة. كان ينفذ المثل الأعلى للشيخ، نبيل المولد، قائداً، يعجب به أتباعه، واثقين منه، خاشعين له. يحسده الكل على براعته في السلاح، وركوبه الخيل، ويسعدهم، أنه، عكس الكثير من الشيوخ، قادر على سياقة المشاحيف بسهولة. ومن الشيوخ الآخرين، لازال مجيد ومحمد العريبي مثيرين للعاطفة في أواخر عمرهما، وقد عاشا بعد أن مرا بأوقات صعبة وقوية. وأكثر الباقين، خصوصاً الأحدث منهم، كانوا سمان الأجسام، مترهليها، كسالى، ويخشون دائماً على صحتهم، وبأستمرار يطلبون إستعمال الأدوية. وجاسم، ابن محمد العريبي، يعتبر المساوي لفالح، إلا أنه توفي. ويقول الرجال الآن " لم يبق غير فالح ".

عندما عدت الى كباب بعد أسبوع، أشتريت لنفسي مشحوفاً، زورقاً رحباً أكثر ثباتاً من الاخرى، ودفعت عنها عشرة باونات. كانت تقريباً جديدة وبحالة جيدة. قال ياسين " انت الآن واحد منا. وبهذا الزورق سنأخذك الى اي مكان ترغب الذهاب إليه، سوق الشيوخ، الكوت، البصرة، أي مكان " وعدنا الى قرية فالح بعد ستة أسابيع. وبينما كنا نرسو، سألته بغرور " ما رأيك بزورقي الجديد ؟ " قال ليس سيئاً، ولكن إنتظر حتى أريك ما كنت أنتظرك من أجله " ثم أمر أحد خدمه، فذهب وعـاد دافعاً (طرادة) جديدة تماماً. سوداء لامعة، ذات مقدمة عالية ونحيفة. وقد إنزلقت نحونا خلال الماء. قال فالح " لقد وصلت أمس فقط من الهوير. انها لك. صنعتها خصيصاً لك. ربما تعتقد انك واحد من المعدان، ولكن في الحقيقة أنت شيخ. هذه الطرادة جديرة بـك ".

هتف ياسين " ياالله. إنها جميلة، واحدة من أحسن ما صنع الحاج حميد. ليس هناك مثلها "

لقد أثيرت مشاعري، وحاولت الأعراب عن شكري، لكن فالح وضع يده على كتفي وقال " صاحب، أنت صاحبي ". في تلك الليلة إقترح فالح أنني بحاجة الى شابين آخرين مثل ياسين وحسن لتكمله طاقمي. وأن أي واحد اكبر سناً منهما ومتزوج لا يرغب بترك عائلته لأشهر. وعندما سمع عمارة وسيبتي ذلك جاءا صباح اليوم التالي عارضين خدماتهم. سألتهم كم مر على شفاءهم، فاجاب عمارة " مادام العمل عملك، لن يحدث شئ. ثلاثة أيام عدت لأقطع القصب وكذلك فعل الآخرون".

كان لعمارة سحر هادئ ملفت للنظر، ولكني كنت أشك إن كان قوياً بصورة خاصة كافية للجذف في طرادة لمسافات طويلة. ومن جهة أخرى، فأن حسن الذي هو من الفريجات أيضاً، أكد لي أنه أقوى مما يبدو. ياسين يعود الى الشغانبة، وسبيتي الى قبيلة غامضة لم أكن قد سمعت عنها. قلت لعماره وسبيتي أن بإمكانهما الالتحاق بنا. وبقي الاثنان معي حتى تركت العراق. ورغم أن عمارة نسبياً أحدث من الآخرين، إلا أن شخصيته كانت الأقوى بينهم. كان سبيتي يتبعه بدون سؤال. أما حسن، فنادراً ما أعترض على قراراته. و ياسين فقط من كان يمتعض من قيادته، وهو الرجل الأكبر سناً منهم. وسرعان ما تعلم عمارة وسبيتي مساعدتي في الأدوية، وبصورة عامة كان عمارة هو من يزرق الأبر. لم أعط رفاقي في الزورق أجراً منتظماً أبداً، قائلاً أنني أريد رفقاء وليس خدماً مؤجرين. كنت أكسوهم، وفي الحقيقة أعطيهم من الفلوس أكثر مما يأملون كأجر يستحقونه. وبعد ذلك، عندما تزوجوا، ساعدتهم في مهر الزواج. وعندما يسألون ماذا يدفع لهم الأنكليزي كانوا يجيبون بغرور " ليس عندنا أجر، نحن نرافق الصاحب لمتعتنا وهو كريم ويعتني بنا ".

في تلك السنة، وبطرادتنا، عبرنا الأهوار الوسطى، وإرتحلنا جنوباً في الفرات الى القرنة، وعدنا ثانية الى الصيكل، وبقينا مرة أخرى مع قبيلة العيسى على اليابسة، وزرنا الأزيرج، حيث لم أشعر بود نحوهم ولا لشيوخهم. وزرنا ثانية جاسم وعشيرته الفرطوس، ووجدنا داخل، الصبي الذي كان قد رقص بشكل مسلي في كباب. وكان لايزال عاطلاً عن العمل، إلا انه يبدو أكثر هزالاً وضعفاً، وواضح

أنه في طريقه للموت من البلهارزيا ومضاعفاتها. وبعد مناقشات لا نهاية لها أقنعته بالذهاب الى البصرة للعلاج، وكانت الدموع بعينه عندما غادر. ارسلت معه رسالة الى صديقي فرانك ستيل الذي كان نائباً للقنصل.

لقد حل الصيف، وفي الأهوار تعلق فوق رؤوسنا غيوم من البعوض حتى أثناء النهار ونحن نتحرك خلال الممرات الساكنة بين ظلمة القصب العالي. وفي المساء تأخذ بالتهام أجسامنا العارية، فقد كان الجو حاراً بحيث لا نتمكن من وضع أي غطاء مهما كان خفيفاً. لذا فقد سعدنا عندما تركنا الأهوار وتجولنا بدلاً منها بين القرى في منطقة المجر، عاقدين صداقات جديدة مع المزارعين. وسواء كانت رحلتنا طويلة أم قصيرة كنا نعود دائماً الى مضيف فالح. ما أن يرى أحدهم طرادتنا حتى يكون فالح على الضفة للترحيب بنا. ويصادف أحياناً أن تكون عودتنا متأخرة ليلاً، أو ربما في ساعات الصباح الأولى، فننام عندئذٍ في المضيف الفارغ. وصاحبنا العجوز عبدالرضا، صانع القهوة، سيجدنا عندما يأتي وقت الفجر، فيسارع ليخبر فالح بأن صديقه هناك.

عكس أكثر الشيوخ، كان فالح يكره حياة المدينة، ونادراً ما يزور العمارة أو بغداد. أحياناً يبقى لليلة أو ليلتين مع أقربائه قرب المجر، وأكثر الأحيان مع عمه محمد، أخ مجيد الصغير، الذي رغم فقره، كان أكثر افراد العائلة بسطاً لليد، واكثر الجميع جدارة بالمحبة. وكان سئ الحظ عباس، إبن محمد، وهو شاب ضخم الجثة في العشرين من عمره، المفضل من أولاد العم عند فالح. وبصحبة فالح، قضيت بضعة أيام مسلية مع محمد. فبعد العشاء في المضيف، ننسحب الى غرفة خاصة في بيته. ومريدوه، ومنهم بعض الصبيان، موهوبون بصورة متميزة بالغناء والرقص، وأحد الشباب بشكل خاص كان يقوم بتمثيل المغالاة بالتعبير، مما كان يدعو بعض المسؤولين الأداريين المحليين لأمتاع أنفسهم في ساعات الفراغ.

هناك أحد الأهوار قرب بيت محمد ملائم لصيد الخنازير في بعض المواسم عندما تقوم بتخريب حقول الرز ليلاً. كنا نطاردها أنا وفالح خلسة في زوارق صغيرة خلال الخنادق التي تقطع مناطق القصب. في أحد الايام أصبت سبعة وأربعين، وفي

مرة أخرى إثنين وأربعين. وكانت تلك الخنازير من نفس فصيلة الخنازير البرية الأوربية والهندية، ولكنها بحجوم إستثنائية. وقد قمت بقياس إثنين منها كمعدل فكانا سبعة وثلاثين بوصة عند الأكتاف، وقد ندمت لأني لم أقس أبداً خنزيراً كبيراً من التي أصطدتها. وطول اليوم تجدها راقدة في أعشاش مبللة بالماء تبنيها عادة على الضفاف الواطئة لتلك الخنادق. وهذه الأوكار التي قد تكون أحياناً بعرض ستة أقدام، هي عبارة عن أكوام كبيرة من الحشائش التي لابد وأنها قضمتها ونقلتها بفمها لمسافة ياردات. وعندما يكون الفيضان عالياً، يخرج الخنزير من الأهوار ويقبع في البساتين التي هي غالباً غابات من أشجار النخيل غير المعدودة، وقرب شجيرات شوكية نامية بكثافة. وقد شاهدت مرة في إحداها ذئبة مع جراءها الثلاثة. كنا أما ان نقوم أنا وفالح بإيقاض الخنزير، ويكون حينها هائجاً، ولكن مغلوباً على أمره، وأما ان نسوقه الى الأرض المنفتحة حيث نصرعه ونحن على سروج الخيل.

في نهاية الامر، كان علي ان أغادر، فقد كانت خطتي خلال ذلك الخريف السفر الى جبال شمال باكستان. كان عمارة وسبيتي وياسين وحسن، الذين أصبحوا يسمون أنفسهم رجالي، معي في آخر ليلة لي مع فالح في القرية. وعند المساء تحركنا جميعاً الى خارج المضيف، حيث الجو أبرد، وجلسنا على الحشيش. الريح الأربعينية التي تهب خلال حزيران قد إنتهت قبل أيام. والآن لم تعد هناك نسمة ريح.. وبعد المغيب شرعت بنات آوى تنبح بصورة جماعية بصوتها الغريب من خلف النهر المنحدر. بزغ القمر وأخذت الخفافيش تتطاير منعطفة بصورة حادة، صاعدة هابطة فوق رؤوسنا. أكلنا الرقي والعنب من بستان (السيد)، وشربنا شاي النومي الحامض. خرج عبدالرضا من المضيف وبيده دلة القهوة وقال لي:

- " سوف لن تجد قهوة مثل هذه أينما رحلت. إشرب منها الآن قدر ما تستطيع "

-وقال فالح " لاتبق بعيداً عنا لفترة طويلة "

وفاة صالح



الفصل السادس عشر

وفاة فالح

قال إبن عبد الرضا الصغير، وهو ينهض على قدميه وهازاً شخصاً نائماً جنبه " أهلاً صاحب. مرحباً. هيا إستيقظ، لقد عاد الانكليزي. إذهب وأخبر فالح، سأذهب لأدعو والدي ".

كانت عدة أشكال بشرية مغطاة، ونائمة على حصران داخل المضيف، إستيقضوا واحداً بعد الآخر، وثبت كل منهم غطاء رأسه وعباءته. وبينما كانوا يتقدمون نحوي للتحية، تعرفت عليهم جميعاً، فقد كانوا من تابعي فالح " مرحباً صاحب. مرحباً. إنه ليوم سعيد. كنت بعيداً عنا لفترة طويلة. " كنت قد تركتهم في الأسبوع الأخير من تموز 1952، والآن عصر أول يوم من شباط، وسبعة أشهر تعتبر فترة طويلة. في ذلك الوقت، كنت قد قطعت ممرات عالية خلال ثلوج هند وكوش الى بحيرة كوروميا، الزرقاء الباردة، حيث ينبع نهر جترال، كنت حذراً فوق واكاند من معبر بوروجيل، وشاهدت من بعد بريق أوكسس، ونمت فوق ثلاجات تحت أقدام جيل تيريج مير، وفي الظلام رقدت في بيوت قذرة ببساتين التوت، حيث تعيش بقايا الكفير السود على حافة نورستان. والان عدت ثانية الى مضيف فالح على حافة الأهوار، شاعراً أنني عدت الى وطني.

دخل الهرم عبدالرضا مستعجلاً، وقد لاحظت فراغات بين أسنانه، وانحنى ظهره، وقال "كان فالح يتحدث عنك ليلة أمس متسائلاً متى تعود. وكان هنا صدام قبل أيام قادماً من كباب، وقد إستفسر عنك أيضاً. مرحباً. مرحباً. اليوم عيد ". جلسنا حول النار لنشرب القهوة. ونهض الجميع عندما دخل فالح. حضنني وقبلني على خدي وسأل عن صحتي " لماذا أبطأت علينا ؟ كنا نتوقع وصولك الشهر الماضي. أليس كذلك عبد الرضا ؟. على كل حال إنه جيد أن تعود الآن. سيفرح المعدان

عندما يسمعون الخبر. عمارة وسبيتي يسألون عنك دوماً ومتى ستعود، سيكونان هنا حالما يسمعان بوصولك ". ويعد شرب القهوة قال " صاحب. أنت لم تعد ضيفاً، ولن تبقى في المضيف كما كنت سابقاً، أنت الآن أحد افراد العائلة وعليك المجئ للعيش في بيتنا ". ثم إلتفت الى أحد رجاله " أنت جاسم، خذ حاجيات الصاحب الى هناك "

كان بيته ذو طابق واحد، مبنياً من الطابوق الذي يفخر موقعياً. عندما وصلناه قال " هذا بيتك. مرحباً. تفضل بالدخول " ودخلنا إحدى الغرف حيث علقت صور مبهرجة بطابع فروسي لعلي والحسين المقدسين عند الشيعة، وهما يمزقان أعداءهما إرباً وسط برك من الدم. كذلك صورة لمجيد داخل إطار مذهب. الأفرشة مغطاة بحرير أحمر أو أزرق، مع وسائد ومخدات مختلفة، منتشرة حول الغرفة. كان التأثير مريحاً بترف، عكس (الديوانيات) التي كنت أحياناً محجوزاً فيها، بيوتاً للضيوف بناها بالطابوق الشيوخ الأغنياء في العشرين أو الثلاثين سنة الماضية، ، لتلائم الموظفين العراقين والزوار الأوربيين. مقفلة الأبواب والشبابيك عندما لا تستعمل، وفي غرفها بصورة عامة ترسبت طبقة سميكة من التراب على أثاثها، ومبعثر على أرضيتها أعقاب سكائر. وكراسي ثقيلة مكعبة الشكل على النمط العراقي، منجدة بمخمل غامق، ومرصوفة بدون تغيير حول الحيطان. ينفصل كل زوج منها عن الذي يليه بمنضدة صغيرة محصورة بينهما. وهناك، خلف الشبابيك العارية، يجاهد الشيخ مع الزوار، بينما يحتفظ الباقون عنه بمسافات للأحترام.

عباس، إبن العم الأثير لفالح، بقي معه متلهفاً للعودة الى بيت أبيه قرب المجر. إلتفت إلي فالح قائلاً " ستأتي غداً للصيد، اليس كذلك ؟ سنحاول في حافة الهور لصيد الديوك، وقد نجد خنازير. عباس، لايمكن أن تعود لبيتك والانكليزي وصل لتوه ويريد الصيد معنا غداً. دعني أرسل أحداً حالاً ليجلب بندقيتك، وباستطاعتك العودة غداً مساءً. ما العجلة ؟ أنت غير متزوج " ولسوء الحظ أقتنع عباس بهذا الاقتراح.

افطرنـا صبـاحـاً بيضـاً مقليـاً وخبـز الـرز وحليـب الجـاموس الـساخن المحلـى. وخرجنـا الى الـصباح المضئ القـارص. قمنـا بمعاينـة الخيـول، ثـلاث أفـراس عربيـة أصيلة، رمادية اللون، كل واحدة ملفوفة ببطانية، ومعقولة الساقين الأماميتين. بعد الزيارة الأعتيادية للمضيف ذهبنا الى حيث جذا في الزورق ينتظرون قرب طرادة فالح الذي قال لـداير، وهو رجل طاعن ذو وجه ممروق، ومـن أكثر تابعيـه ثقة " حسنا داير، هل سنذهب لنجد البط في بداية الخر ؟" إبتسم داير وقال " الله هو العليم. قد نجد القليل، لكن يبدو أنها هاجرت حديثاً بسبب أرتفاع الماء. ولكن سنجد الكثير من طيور الماء "

نزلنا أنا وفالح وعباس للطرادة، بينما ركب عبدالواحد، إبن فالح مشحوفاً. وبدأنا رحلتنا سوية نزولاً بجانب واحد من المجرى. جلس عباس وسط الزورق بيني وفـالح. وكـان قـد أسـقط حـزام خراطيشه علـى البـساط أمـامي، وشـاهدت عـدة خراطيش وعليها علامة. L.G.، وقد نثرت عشوائياً بين الآخريات. واوضح لنا ان عبد الواحد أعطاها له ليملأ نطاقه، قلت " إنها لا تستعمل إلا للخنزير. من أجل الله لا تستعملها لأصابة بطة وإلا ستقتل أحداً ". ولأثبت له ذلك، مزقت واحدة، وأريته الخردقات السبعة الكبيرة التي رميتها في جيبي. واقترحت على فالح أن يحذر إبنه، وفعل.

عند حافة الهور، إنتقل كا منا الى زورق صغير مع رجل ليجذف وإتجهنا نحـو القصب. ذهـب الآخـرون باتجـاه واحد للبحـث عـن الـبط، أمـا أنـا فاتجهـت لـصيد الخنزير. إلا أن الماء كان مرتفعاً، لذا فقد ترك الخنزير الأهوار وإتجه الى اليابسة. كنت اسمع أصوات الرمي. وعندما عدت الى مكـان موعدنا، كـانوا قد وصلوا قبلي هناك، ولم يكونوا قد شاهدوا بطاً، ولكنهم اصطادوا عدداً من طيور الماء. سألني فالح عما إذا كنت أرغب بالاستمرار أم العودة للغداء، فقلت لايهم. فقـال " عندي تسعة طيور وأريد أن أجعلها عشرة، والغداء لا يكون مهيئاً قبل ساعة، لذا دعنا نذهب " وفي هذه المرة ذهبت معهم.

إنتشرنا في خط، يبعد كل زورق عن الآخر سبعين ياردة، وأخذنا بالجذف بصورة متوازية مع الشاطئ خلال الهجمات متفرقة من البردي. فالح وعباس كانا على يميني، وعبدالواحد عن يساري. إرتفعت بعض طيور الماء ودارت على أعقابها بإتجاه الريح فوق رؤوسنا. أصبت واحدة وتوقفت لالتقاطها عندما سمعت صوتاً غير قابل للخطأ لأطلاقة بإتجاهي. كانت قادمة من يميني. فصرخت " لأجل الله حاذر عندما ترمي " وبعد قليل شاهدنا زورق فالح متوقف وسط الماء، على مسافة خمسين قدماً عن القصب. نظر رفيقي وصرخ " فالح مصاب " وجذف باهتياج نحوه. كان فالح ساقطاً نحو الامام، يسنده داير. عيناه مغلقتان، ويبدو أنه فاقد للوعي، وبقعتان من الدم على رداءه الأبيض. طلبت من رفيقي أن يحاذي زورق فالح، وإنحنيت عبره ومسكت رسغه، وبصعوبة شعرت بنبضه. فتحت رداءه ووجدت تحت حلمة صدره اليسرى دماً يتدفق من بقعة زرقاء دائرية، نتيجة واضحة لأصابة بعيار كبير منفرد. وصل عبد الواحد وسأل ماذا حدث فتكلم داير لاول مره " انه عباس " ثم اشار الى منطقة القصب، ونظرت فلم أجد أثراً لأحد.

فجأة إنفجر الأربعة الآخرون نائحين، مكررين مرة بعد أخرى " بوي يا بوي ". بينما أخذت الزوارق الثلاث تتأرجح على الأمواج كطوف صغير واحد. صرخت بغضب " اسكتوا. ليس عليكم الجلوس والنحيب الآن. علينا نقله للشاطئ. داير: إمسكه، وسنقوم نحن بالجذف من كل جانب ونسحب زورقك " فتوقفوا عن النحيب فجأة وتحركنا. كان الشاطئ يبعد ثلثمائة ياردة، وشاهدت عن بعد قرية صغيرة، وأخبرنا داير عما حدث " كنا نحاول الأقتراب من بعض طيور الماء،، ولم يكن هناك أحد، وفجأة طار أحد طيور مالك الحزين من ذلك القصب. كان عباس في الجانب الآخر، وأطلق ناره مباشرة نحونا. سمعت الطلقة تضرب فالح الذي صرخ " عباس. لقد قتلتني " شاهدت عباس يقف هناك عند القصب وأجاب صائحاً " الله. لم أكن أعرف انك هناك " ولم اشاهده من حينها "

كان الماء عميقاً، وكان من المؤكد ان يغرق الزورق عندما أصيب فالح لو لم يتصرف داير بطريقة ما لأبقائه بوضعه الصحيح. وعندما وصلنا الشاطئ وجدنا رفيق عباس بالزورق، لوحده.

- " أين عباس ؟ "

- " لقد أمرني أن أنزله على الشاطئ وهرب "

كان فالح مازال مغمى عليه، ، وكنت أحس بنبضه بصعوبة. كان علينا أن نعيده لبيته بأسرع ما يمكن، ثم الى المجر وبعدها بالسيارة الى العمارة أو البصرة لنقل الدم إليه. أرسلت رفيق عباس جرياً الى القرية لجلب زورق أكبر. وخطر ببالي أن على فالح ان يبقى دافئاً، لذا فقد أرسلت آخراً الى القرية لجلب أفرشة. ظل عبد الواحد يحدق في أبيه مبهوتاً ويسألني المرة تلو الأخرى " هل سيموت يا صاحب ؟ هل سيموت ؟ "

- " بعون الله سيعيش، لكنه أصيب أصابة سيئة "

إنفجر عبدالواحد بهستيرية " أين عباس ؟ ماذا سيفعل ؟ والله لو مات فالح فسأقتله. صاحب، أنت صديق فالح، ساعدني في البحث عنه وقتله. ماذا سيفعل الملعون ؟ " واخذ بالبكاء بتشنج. ظهر صبيان خائفين، ووقفا على مبعدة يراقباننا. طلبت من أكبرهما أن يذهب للقرية ليستعجل الزورق، ففر الاثنان. ولم أعد أفكر بما يمكن فعله. نظرت بدون أمل الى فالح والى داير الذي كان لايزال مسنداً إياه والدموع تنهمر على وجه العجوز.

أخذ الرجال والنساء بالوصول راكضين خلال الحقول، وتوقفوا حولنا زمراً. أخبرني أحدهم أن الزورق الكبير سيصل قادماً من القرية. ولاستغلال الوقت، أقترح أن يتجه زورق فالح الى بداية المجرى، وأخذ إثنان منهم بسحب الزورق قدماً، خائضين في المياه الضحلة، والتقينا أخيراً بالزورق، وسعدت لأرى أن بسطاً ووسائد وحتى سجادة قد فرشت على أرضيته، وعندما أخذنا بنقل فالح، فتح عينه وقال بوضوح " إحذروا، فالبندقية معبأة " ثم أغمض عينه ثانية ورقد بهدوء. نقلناه بعناية،

وجلس داير ليسند راسه، وأحطناه بالبساط، وقدم عدة رجال عباءاتهم لهذا الفرض. تسلق أحدهم الى مؤخرة الزورق لقيادته، وشد آخر حبلاً في قوس الزورق، واخذ إثنان بسحبه ضد التيار. أما أنا وعبد الواحد فقد تبعناه مشياً على الضفة التي كانت مغطاة بالأشواك وشجيرات الزعرور الشائكة. كنا قد تركنا أحذيتنا في الطرادة، وقدماي لازالتا صلبتين بعد سنين من المشي حافياً في الصحراء، ولكن عبد الواحد، الذي ربما لم يسبق له السير بدون حذاء، سرعان ما أخذ يعرج، ثم إنهار خلفي. فتح فالح عينيه وحاول التكلم. أمرت الرجال بالتوقف، وأنحنيت عليه فهمس:

- " أين عبد الواحد ؟ "

- " إنه قادم "

- " أخبره عني، أخبره صاحب بأن عليه أن يأخذ عباس الى أبيه. عليه أن لايتركه حتى يكون آمنا عند محمد. ومهما حدث لي فعليه أن يتأكد أن لا يحدث شيئاً لعباس. هذا طلبي. قل له ان يذهب الى هناك الآن " واغمض عينيه ثانية، فاشرت لهم للتحرك. أما عباس، فمن المحتمل ان يكون الآن امامنا هارباً بياس الى بيته.

كانت أخبار الحادث قد إنتشرت عبر الريف، بينما نتحرك نحن ببطء ضد التيار. مجموعات صغيرة من أناس صامتين يسرعون باتجاهنا من عدة قرى، وحالما يصلونا، يرمون أنفسهم في الماء، والوحل على رؤوسهم وملابسهم المنقوعة ماء وطيناً، النساء يمزقن أثوابهن ويضربن على أثدائهن نائحات " فالح يابوي، يابوي " ويسرن خلفنا. كان فالح مضطجعاً في قعر الزورق، ووجهه شديد البياض أمام دكنة رداء داير. لم يكن قد مر أكثر من أربع وعشرين ساعة عندما رحب بي لعودتي لبيته. حتى الآن، كان عقلي قد فقد الأحساس بكل ما حدث بصوره تامة، بأن هناك حادثاً، وفالح قد أصيب بشدة، كما أدركت، ولكني الآن مقتنع بأنه في طريقه للموت. بالنسبة للآخرين سيكون مفهوماً لو أنني بكيت مثلهم، لكن

بعض الكبت الراسخ عندي منع عني هذا التفريج، وأنا الذي شاركتهم كثيراً باختياري، لا أشاركهم في التعبير عن هذا المصاب الجلل، بأسلوبهم.

وأخيراً قبل المغيب وصلنا قرية فالح. كانوا قد جلبوا هيكل سرير، حملوه إليه، ووسط حشد فقد عقله، نقلوه لداخل بيته. وتدافع الكثير لدخول الغرفة، وبقوا صامتين. في الخارج، كان العويل يرتفع وينخفض مع ضربات مبهمة منتظمة، كضربات طبول مكتومة، لكنها كانت ضربات منسجمة على أثدائهن العارية. فتح فالح عينيه ونظر للسقف، وكانت العلامة الوحيدة للحياة في وجه شخص ينزف دماً، بدا كوجه قناع من شمع عديم الاحساس. توسل الناس إلي لاعطاءه دواء، ورفضوا التصديق أن لاشئ يمكن عمله له. قدت عبد الواحد الى الخارج والححت ان الامل الوحيد هو في نقل فالح الى حيث يمكن إعطائه الدم، وأن أي لحظة تأخير تقلل من فرصته للبقاء. وافقني على ذلك، لكنه لم يفعل شيئاً. الاخرون كانوا محيطين بالسرير قائلين بدون أن يخفتوا من أصواتهم " من الواضح أنه يموت " " نعم إنه تقريباً ميت " " والله ان فالح لا يستحق الموت هكذا ". بهمس طلب فالح ماء، وعندما جلبوه له لم يتمكن من بلعه، وإنحدر الماء من ذقنه، وبلل رداءه.

وصل أحد أبناء عمه، حطاب، ولحسن الحظ كان ذا شخصية حاسمة معتاد على الاحترام والتبجيل. تولى الأمر مباشرة، فنقل فالح الى قرية ابيه حمود في المجر. وتبعته بزورق آخر إلا أنه كان مثقلاً وبطيئاً، وسرعان ما بعدت المسافة بيننا. وعندما وصلت المجر، كان فالح قد حمل الى ديوانية تعود لحمود الذي ذهب ليتصل تليفونياً بمجيد في بغداد. وكان الطبيب المحلي بين الحشد في المجر، وسألته ماذا يرى، فهز رأسه وقال أنه يخشى ان يكون فالح في طريقه للموت. ووافقني على ان الأمل الوحيد هو في نقله مباشرة للبصرة، اقرب مكان لأعطائه الدم.

صاح احدهم " أين الانكليزي ؟ " وعندما دخلت الغرفة، قيل لي ان فالح يطلبني، فذهبت الى حيث يرقد. حرك عينيه ونظر إلي، إلا أنه لم يتكلم. لم يكن معنا غير عائلته، ورغم خشيتي من التطفل، بقيت واقفاً قرب سريره. إنتظرت لفترة

خلتها طويلة. كان الظلام قد خيم بالخارج وقد جلبوا مصباحاً نفطياً يئز في احدى الزوايا وينير الغرفة بشكل مزعج.

عاد حمود. لابد أن الأنباء قد أفقدت مجيد رشده، فقد قال حمود " يجب أن يؤخذ فالح الى بغداد حالاً. هذه أوامر مجيد، لقد أرسلت لجلب ثلاث سيارات "

كنت أعرف أن فالح سوف لن يبقى حياً بعد سفرة في مثل هذا الطريق الوعر المزعج، مائتان وخمسون ميلاً في الظلام. حاولت الأعتراض فقلت " خذوه الى البصرة واذا ألح مجيد فبالامكان نقله جواً الى بغداد في الصباح. اتوسل إليك لأخذه للبصرة. هي ثلاث ساعات فقط، وفيها بالامكان إعطاء الدواء الذي يحتاجه. لاتذهبوا حتى للعمارة، مباشرة للبصرة ".

إلا ان حمود أجاب ببساطة " سنذهب للعمارة أولاً، وهناك سنرى "

وصلت السيارات، وحمل فالح مرة أخرى الى المقعد الخلفي لاحداها. وكل من تمكن من العائلة من إيجاد مكان له، إنحشر في السيارتين الآخريتين، وتحركت الثلاث. أما أنا وداير فقد جذفنا بالزورق عائدين الى قرية فالح. لم نتكلم كثيراً، " ولكني أتذكر أنه قال " لقد حدث ذلك ببساطة لأنه اراد أن يصطاد دجاجة ماء أخرى. حياة فالح من أجل دجاجة ماء ". وصمت ثم أردف " انها مكتوبة، صاحب "

بالنسبة لي أيضاً، يبدو أن القدر، وليس الحظ، هو الذي قضى بالحادث. وإلا فلماذا يكون عباس قد خلط ما في خرطوشته وعبأها بواحدة من ذات الخردق الكبير التي اطلقها باتجاه فالح ؟ ولماذا تكون الأطلاقة التي أصابت فالح من مجال سبعين ياردة ؟ وعندما خلعت ملابسي في بيت فالح، بنفس الغرفة التي قضيت فيها ليلة أمس، وجدت في جيبي الخردقات السبعة .L.G من الخرطوشة التي مزقتها صباح ذلك اليوم.

في بكرة الصباح التالي، عدت الى المجر، واستأجرت سيارة الى البصرة. وهناك علمت ان فالح قد أخذ جواً الى بغداد. وقال البعض أنه صار أحسن، وشعرت

بالأمل. أبرقت لصديق وسافرت بقطار الليل ووصلت بغداد صباح اليوم التالي. كان صديقي ينتظرني في المحطة بسيارته. ذهبنا للبحث عن بيت مجيد في بغداد. أرشدنا رجل شرطة الى بيته، وأضاف ما خطر بباله فجأة " لكن مجيد ذهب الى النجف لدفن ابنه الذي مات أمس "

وهكذا علمت بوفاة فالح.

مراسم الحداد



الفصل السابع عشر

مراسم الحداد

وجدنا البيت بسهولة، فيلا في ضواحي بغداد. قرعت الاجراس، وأُخذت للداخل. كان عبد الواحد وخلف، الاخ الأصغر لفالح، يجلسان في غرفة صغيرة. حييتهم، وانتظرنا مجيد، الذي دخل مباشرة. كانت عيناه محمرتين وقد تهدلتا من البكاء. ووجهه مكدوداً بمسحة من الاسى الشديد. وبعد التحيات الأعتيادية، دعاني للجلوس قرية على مسطبة، وسألني بعد ذلك كيف ومتى وصلت، وهي أسئلة متعارف عليها عند العرب. أعربت له عن مواساتي. أستدار نحوي وقال ببساطة " صاحب، أنا أعرف أنه كان صديقك " ثم جلسنا صامتين. بعد برهة قدم أحد الخدم قهوة، وبعد أن شربتها عاد مجيد ليسألني عن صحتي مرة أخرى. ومرة أخرى ساد الصمت. ولأكون بجانب هذا الرجل العجوز المبتلى الذي إنتهت عنده كل الآمال والطموحات لوفاة إبنه، فأن ذلك أكثر من قدرتي، انتظرت فترة قصيرة أخرى، بعدها اعتذرت للمغادرة فقال " أذهب مع السلامة " فاجبت " إبق والله يحفظكم " كانت السماء قد بدأت تمطر عندما غادرت الدار، واستمرت تمطر طوال اليوم.

بعد أشهر إلتقيت بطبيب انكليزي، أخصائي بالقلب يعمل في بغداد بعقد مع الحكومة، كان في البصرة عندما أخذ فالح الى مطارها. وسمع بالحادث فذهب مباشرة إليه. وبعد فحصه أراد أن يجري له عملية جراحية مباشرة لرفع الضغط عن القلب من الدم المتجمد حوله، إلا أنه أخبر أن مجيد أعطى أوامره بنقل أبنه الى بغداد. وعبثاً حاول أن يشرح لهم بأنه هو طبيب القلب الحكومي في بغداد، وهو الوحيد في القطر، مؤكدا ان الامل الوحيد لأنقاذ حياة فالح هو السماح له باجراء العملية حالاً، إلا انهم رفضوا. وقال لي أنه في الحقيقة لا يمكن إنقاذ فالح. وقد أكد الطب العدلي بعد التشريح أن الطلقة جرحت القلب، وقطعت العصب

الرئيسي، وأدت بالرئة الى الانكماش فانهارت، وكان مندهشاً فقط كيف أن فالح إستمر حياً لهذه الفترة الطويلة، قائلاً انه لابد وان يكون قوياً بشكل إستثنائي.

بعد ثلاثة أيام، عدت الى قرية فالح لاشاركهم الحداد. ووصلت بعد الظهر مباشرة. وسمعت عن بعد عويل النساء والضرب المنسق على صدورهن. عدة زوارق كانت مربوطة على الجرف وحشد كبير خارج المضيف، وقد ثبتت عدة رايات عشائرية عند المدخل، وطياتها الحمراء الطويلة، والزخارف الفضية في قمم أوتادها تلمع بين جدران القصب في ضوء الشمس الربيعي، كان في الداخل سكون وجو معتم، واشكال بشرية ملفوفة بعباءات سود، تجلس دون حركة حول الجدران. وهمس أحدهم لي " ذلك مجيد، هناك ". عبرت القاعة، وحييته مصافحاً، ونظرت للبحث عن مكان للجلوس. تحرك بعض الغرباء قليلاً لأجلس. عرفت بعض الجالسين وليس كلهم. بعض (السادة) بغطاء رأس أخضر، رجال دين من كربلاء والنجف يرتدون السواد، وعمائم سود او بيض ملتفة بأحكام، وشيوخ عشائر، حتى من الكوت والناصرية مع تابعيهم، رؤساء قرى كبار السن، ورجال مدن، وتجار من المجر والعمارة والبصرة. وكان هناك أقرباء مجيد، كل عشيرته. رمى أحد الصبيان علبة دخان أمامي. نهض عبدالرضا من جلسته بجانب الموقد، حاملاً دلة القهوة الصغيرة ذات الشكل المنقاري، وتقدم نحوي واعطاني الفنجان. واحد أو إثنان من الجالسين قربي قالا بهدوء " مساء الخير، صاحب " وبعدها هدأت الاثارة البسيطة التي سببها دخولي.

بين فينة وأخرى يتكلم أحدهم ببضعة كلمات في همس للجالس قربه. ولكن بصورة عامة كان السكون هو المهيمن، تتلاعب أصابع بعضهم بمسبحات، أو يدخنون. نهض حوالي ستة من الجالسين وتوجهوا نحو مجيد، وودعوه وخرجوا من القاعة. دخل آخرون، احياناً أثنان أو ثلاثة، وأحياناً عشرون في وقت واحد. يسلمون على مجيد كما فعلت، ثم يجلسون على الأرض، وتعطى لهم علب الدخان والقهوة وأقداح الشاي. وقبل مغادرة كل مجموعة، يقوم أعلاها مقاماً بالاعلان قولاً

بصوت عالي " الفاتحة " وعندئذ يتلون بصمت السورة التي يفتتح القرآن بها، وأيديهم مفتوحة امامهم إبتهالاً. كنت أسمع الزوارق وهي ترسوا أو تدفع للمغادرة، عبر جدار الحصران، وفوقنا تزقزق العصافير الدورية بين الاقواس القصبية الكبيرة. وفي ممر المدخل إستطالت الظلال. غادر الكثير من الناس، ووصل القليل. ظهرت فراغات وتوسعت بين الأشكال البشرية المرصوفة حول الجدران.

ان سنين من الخبرة في الجزيرة العربية عودتني على الجلوس ارضاً، ولكن عندما نهض مجيد عند المغرب، وترك المضيف شعرت بالتعب والألم. اخذ الآخرون يؤدون صلاة المغرب، وذهبت خارجاً للبحث عن داير، وسألته كم عليَّ ان أبقى فقال " الكل يعرف أنك صديق فالح، وأعتقد أنهم يتوقعون بقاءك ليومين آخرين. تعال الآن وأجلس مع بعض أصدقاءك ". ثم قادني الى سياج طويل من القصب بني في الايام الاخيرة. كانت الشمس كرة برتقالية متوهجة، قد حطت على الافق أمامنا، خلف نفس البستان التي ذهبنا للصيد فيها أنا وفالح للمرة الاولى.

داخل الساتر، كان عدد من اتباع فالح يجلسون حول نار صغيرة، وقد صبغوا أغطية رؤوسهم باللون الازرق الداكن علامة على الحداد. رحبوا بي بلطف، وصبوا لي مزيداً من القهوة. ومن حسن عادات العرب أنهم لايضعون في الفنجان الواحد إلا بضع قطرات فقط، وكنت قد شربت ما لا يعد من الفناجين ذلك اليوم. ومرة واحدة، ومن خلال الشفق الأحمر خلف النهر بدأ صوت الكورس المسائي لبنات آوى، يرتفع وينخفض ويرتفع ثانية، منتشراً عبر الأرض المستمعة، ليموت في سلسلة من صرخات كزعيق إنسان معذب.

سألت ماذا حدث لعباس، فاجابني داير مزدرياً به " لقد فر الى قلعة صالح ورمى نفسه بحماية الشرطة. لايزال هناك، الله يدمره "

-" وأبوه محمد ؟ "

- " هو الآخر ذهب لقلعة صالح وسأل الحماية من الحكومة. ويقال أنه أوكل محامياً " قال أحدهم " محامي ؟ المحامي لن يساعده كثيراً. مجيد غاضب لأنه إلتجأ للحكومة، في الحقيقة انه لمخزي الألتجاء إليها. "

وقال آخر

- " نعم. كان الأولى بمحمد جلب عباس بيده الى مجيد. فان فعل. فلربما سيعفو عنه مجيد. أما الآن، فبالتأكيد سيقتله "

- قال داير " لقد كانوا مجانين. ستكون مشكلة كبيرة "

- وقال نفس الرجل " لقد قال مجيد ان عباس رمى فالح متعمداً بسبب نزاع حول الزرع "

- قال داير " أنا متأكد من ذلك "

عندما عدت للمضيف ثانية، كان لايزال هناك حوالي ثلاثين رجل. لم أعرف أي منهم، إلا أن أحدهم سألني " هل أنت الانكليزي الذي كان صديقاً لفالح ؟ " وعندما أجبت بنعم، قال " مرحباً، مرحباً بصديق فالح " وسألني آخر ان كنت مع فالح عندما رماه عباس، وماذا حدث. وعندما كنت أخبرهم بالقصة، جلب الاكل للداخل، وأكلنا بصمت كما هي العادة. بعد ذلك عدنا للحديث ثانية حتى جاء الخدم ومعهم الأفرشة التي وضعوها حول جدران المضيف.

كان المضيف في نشاط وهرج مبكراً. وأستيقظ الآخرون واحداً بعد الآخر. وبعد الاغتسال* واداءة صلاة الفجر، جلسوا مصطفين حول الحيطان. ولف الخدم الأفرشة وحملوها للخارج. عملت القهوة وشريت، وجلب صبي صينية مكدس عليها أرغفة الخبز ورمى أمام كل واحد من الجالسين رغيفاً، وقدم لنا معها قدحين صغيرين أو ثلاثة من الحليب الساخن. وحالما دخل مجيد نهضنا، وكان إبنه الصغير خلف يرافقه، وعبدالواحد وآخرون من عائلته. حيانا وجلس في نفس مكانه يوم أمس، بينما تراصفنا اكثر حول القاعة. وسرعان ما وصل اول الزوار، وأخذ المضيف يمتلئ بالتدريج. بدا مجيد، الكئيب وغير الحليق، متعباً جداً ببطنه الكبيرة المنتفخة أمامه، رجلاً عجوزاً مكسور الجناح، مليئاً بالمرارة. وفجأة إنفجر

* يقصد الوضوء- المترجم

قائلاً " لماذا كانت لفالح ؟ لماذا فالح ؟ إلهي ليس لي الآن أحد " وإستعادت ذاكرتي ان أبنه الكبير خريبط كان قد قتل قبل ثلاث سنين.

حاول من كان جنبه مواساته " عندك خلف وعبدالواحد " لكنه قال باكياً " لا. لا. ليس لي أحد. لم يعد لي ابن. ارضي، ماذا سيحدث لأرضي إذا مت ؟ ماذا سيحدث الآن لأرضي بعد موت فالح ؟ "

وصل زوار آخرون. رد على تحياتهم. وانقطع الى صمت كئيب. وفجأة تعالى هياج خلفي على ضفة النهر. أصوات كثيرة، وإرتطام زوارق. جماعة كبيرة من الرجال، جميعهم يحملون بنادقا، يسيرون خلف شخص طويل، ضخم، بعباءة من شعر الأبل الناعم، مطرزة بالذهب. همس رجل من أهل البصرة متسائلاً " من هذا؟ " أجابه من بقربه " سليمان ابن مطلك " وكنت قد سمعت عن سليمان هذا، الشيخ العظيم للأزيرج، مزارعي الرز، الذي تجاور أراضيه مجيد. ولكني لم أكن قد إلتقيته عندما زرت قبيلته. كان وجهه شاحباً، مملوءاً، وكانت تبدو عليه النعومة من سنين من الحياة السهلة. فقد أمضى أكثر وقته في بغداد، كالعديد من الشيوخ الأغنياء. جلس ارضاً جنب مجيد، وجلس أتباعه حسب مقامهم في صف واحد. وكان كل منهم قد وضع خنجراً تحت عباءته، مع أحزمة متقاطعة مليئة بالخراطيش. قدمت القهوة والشاي لهم، وغرقت القاعة ثانية بالصمت. ثم صاح سليمان " الفاتحة " وأخذ أتباعه يرتلون:

" بسم الله الرحمن الرحيم. الحمدلله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. أياك نعبد واياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين"

كنت آمل أن يقدم لنا الغداء لأمد ساقي، عندما تعالى وابل من الرصاص، وصوت نحيب هيستيري معلناً وصول جماعة أخرى. ولمحت من الباب راية عشيرة، وحشد من الناس، لطخوا رؤوسهم وملابسهم بالطين. قال أحد الرجال لمجيد " إنهم من كباب " وكان عددهم بين اربعين وخمسين من بومجيفات وكباب. تقدموا واحداً بعد الآخر من مجيد ليقبلوا يده وينسحبوا. عرفت أكثرهم. وبعد قليل إرتفع

صوت الرصاص أكثر، وتعالى نحيب، فقد وصل فريق كبير من العكر. وهؤلاء ايضاً جاءوا ملطخين بالطين. كان الوقت قد عبر الظهر بكثير، وثلاث جماعات أخرى من رجال القبائل جاءت للتعزية، عندما أخبر أحد الخدم مجيداً ان الاكل جاهز. وكما طُلب إلينا، فأن كل اربعين او خمسين رجل في المرة الواحدة خرجوا عند سياج القصب، حيث كنت الليلة الماضية، وأكلنا من صحون كبيره ملئت رزاً وقطع لحم كثيرة. وعندما تنتهي كل جماعة، تملأ الصحون ثانية، وتدخل مجموعة أخرى. كل فرد أكل، الزوار داخل المضيف، ورجال القبائل المنتظرون في الخارج.

بعد ذلك، أدوا رقصة الهوسة، رقصة الحرب عند القبائل. وبدورها، وكل قرية، يرتجل أحد منها إنشودة لتمجيد فالح، ويقوم الآخرون من الرجال بترديد نهايتها هديراً، وبنادقهم فوق رؤوسهم، وهم يقفزون مرة واحدة بكتلة دائرية حول الرايات الحمراء التي يهزها حاملوها، وهم رؤساء عوائل لها الحق بحملها في المعارك، فتقعقع الاجراس في أعلاها. ويستمر الراقصون بالدبك في وقت واحد مع الأنشاد، ويأخذون بأطلاق الرصاص بصورة متقطعة بادئ الأمر، ثم كثيفاً، تماماً كما سمعته أثناء الحروب. وتأخذ رائحة البارود القوية السامة التي تدخل أنوفهم، بأثارتهم وزيادة هيجانهم بصورة وحشية أكثر. حتى صاح مجيد أخيراً " كفى ! "، وتدافع خدمه الى الحشد الطاحن صائحين " كفى. يقول الشيخ كفى ". وأندفعنا عائدين الى المضيف.

بعد ساعات، عند المغيب، وحالما غادر مجيد، كنت أتحدث مع مجموعة من الناس على شاطئ النهر، عندما أسرع لنا صبي صارخاً بشئ ما، وكنت أخشى وقوع هجوم عام. وسارع عدة رجال الى بيوتهم، وسألت " ماذا حدث ؟ " فأجابني أحدهم " أرسل مجيد لقتل محمد " ولكني إعترضت أن محمد عند الحكومة في قلعة صالح، قالوا " لا. يقولون انه عاد لبيته في المجر " وشاهدت زورقين ينسلان عبر المجرى من خلال الضوء الخاوي، حاملين المطالبين بالثأر، بينما أخذت بنات آوى تصرخ بلازمتها الاعتيادية في الضفة الثانية من النهر.

لكن محمد كان لايزال امناً في قلعة صالح.



الأهوار الشرقية

الفصل الثامن عشر

الأهوار الشرقية

كما نصح داير، بقيت يوماً آخراً، ثم إستأذنت مجيداً، وغادرت نحو كباب مع عمارة وسبيتي، الذين التحقا بي في المضيف الليلة السابقة. وكانا هما أيضاً قد تأثراً بشدة لموت فالح. وبينما كانا يجذفان بطرادتنا نحو الأهوار، كانت الدموع تسيل على وجه عمارة قائلاً " لقد كان أباً لنا. ويدعونا أصدقاء صديقي، ويرسل إلينا كلما جاء للقرية ليسأل ان كنا بخير". وخلال تلك السنة سمعت عن وفاته بلوعة في أماكن بعيدة، من الحدود الفارسية حتى الفرات قرب الناصرية. يسألني الغرباء " أكنت صديق فالح ؟ " ويرحبون بي أكثر. لم أكن أعلم كم هو معروف بين الناس بالسمعة الجيدة، وكم هو محترم بعظمة.

خططت لعبور الأهوار الشرقية خلال الأسابيع الستة التالية، وقضيت إحدى الليالي في مضيف صدام، حيث قام إبنه الشاب باستضافتي بغياب أبيه. كانت كباب هي الأخرى في حداد. والقلة التي جاءت، تحدثوا قليلاً، وسرعان ما غادروا. وفي الصباح التالي التحق بنا ياسين وحسن، وذهبنا الى البوبخيت، فقضينا يومين، منشغلين باعمال التطبيب في قراهم الصغيرة بالهور. وبمرورنا تحت الجسر ذي العوارض الخشبية التي تعبر عليه سيارات النقل من البصرة الى العمارة فبغداد، نكون قد وصلنا دجلة جنوب العزير. وجذفنا ضد التيار مروراً بصرح عزرا، وقبته ذات القرميد الازرق والأخضر. كان الضريح يقع بين النخيل، وحوله غرف متداعية للسقوط كمهاجع لحجاجه. والعزير نقطة قذرة كمحطة للوريات والباصات المارة. ولبضعة أميال بعد القرية، تزين الضفة الفارغة للنهر، سلسلة من كور الطابوق، جاثمة كأنها مذابح قرابين. وبأفران كهذه، ربما فخرت قطع الأجر التي بنيت بها بابل. ويستعمل هذا الطابوق في بناء الدور ذات الطابق الواحد في ضواحي البصرة.

قطع ياسين أفكاري " يقولون أن رجلاً مسكت به سمكة قرش هنا في النهر وفقد جزءاً من ساقه ". أنا أعرف أن أسماك القرش تهاجم أحياناً السابحين في البصرة، ولكن العزير كانت على بعد ثمانين ميل أخرى عنها ضد التيار، ومائة وخمسين من البحر. عندما أبديت دهشتي، أكد لي الشابان بأن العزير معروف بأنه مكان سئ من ناحية أسماك القرش. وفي وقت آخر عندما كنت هناك، قال لي أحد القرويين بأن سمكة هائلة قد سدت النهر اثناء جزره زمن أبيه، ولم يتخلصوا منها إلا بقطعها وهي راقدة.

ونحن نجذف قدماً، سألت ان كان قد وجد سمك قرش في الأهوار، فقال حسين ان صغيراً منها كان قد أصطيد بالفالة قبل سنوات. وقاطع عمارة قائلاً " هل سمعت بأن رجلاً قد قتله ضبع عندما كنت أنت بعيداً ؟ كان نائماً بالعراء بعد المجر وعضه في وجهه. عندما وجدوه كان ميتاً، وتعرفوا عليه من ملابسه فقط ". كنت قد شاهدت ضبعاً قبل ثلاث سنين، كان مخططاً، والفصائل المرقطة الكبيرة توجد في أفريقيا فقط. كانت الأسود قبل أربعين سنة توجد في هذه الأجزاء، لكنها أنمحت عندما حصل رجال العشائر على بنادق متطورة خلال الحرب العالمية الأولى. أخبرني مرة أحد عبيد فالح الطاعنين في السن، كيف أنه شاهد ثلاثة أسود قرب المجر، ووصف رجل آخر كيف أنه إشترك في صيد أسد غير بعيد عن العمارة. أحد الصيادين رمى أسداً ببندقية تملأ من ماسورتها. وإلتقيت باحدهم كان قد شاهد شبلين جاء بهما مجموعة من المعدان الى الشيخ، وعدد من كبار السن من الرجال يتذكرون الأسود وهي تزأر ليلاً.

إستدرنا الى ممر مائي واسع يؤدي الى الأهوار في الشرق، وإجتزنا زورقاً كبيراً ذي ساريتين محملاً بحصران القصب ويندفع بجهد نحو دجلة. ثم مررنا بطوف كبير مصنوع من القصب الجاف. كان طوله أربعين قدماً، وارتفاعه عشرة أقدام وقد ترك على الأرض مهجوراً بصورة مؤقتة. فعندما يرتفع مستوى الماء ستطفو هذه الكومة من القصب وتجري مع التيار، ربما حتى البصرة، حيث تفكك وتباع.

بيضات النوافل، حيث قضينا الليل، هـي أكبر قرية شـاهدتها في الأهـوار، فهي تشتمل على ستمائة وأربعين بيتاً، ولكـن دون مـضيف. والمجاميع المتعـددة من البيوت بنيت على طول حافات اليابسة، منفصلة عن بعضها بالمياه واحيانـاً، عنـدما يكون دجلة منخفضاً، تجف المياه، فيترك النوافل قريتهم ويخيمون على طول النهر. وهم يكّونون مع جيرانهم البو غنام في الشمال والبوبخيت في الجنوب، الشدة، وهو الجزء الكبير شديد البأس من البو محمد. والنوافل يربون الجاموس، لكن حياتهم تعتمد بصورة رئيسية على صنع الحصران التي يصدرون عدداً كبيراً منها. والزوارق ذات الأشرعة كهذه التي سبق وأن شاهدناها، تجلب الحصران عندما يكون الماء عميقاً يسمح بالمرور. وفي هذا العام كان مستواه عالياً بشكل إستثنائي.

بقينا مع كبيرهم، وأُطعمنا بشـكل سئ، مما أزعجني وانا أعالج عدة أفراد مرضى من عائلته. وفكرت أن هؤلاء القرويين كانوا نوعـاً فضاً مـن البشر بكل أسف، وهو شعور شاركني فيه رفاقي الذين تذمروا من مضيّفنا الذي لم يقدم لنا حليباً للافطار، بل شاياً فقط وقليل الحلاوة مع خبز. قـال ياسـين بـأزدراء " انهـا لم تلين ريقه " وهي تورية، فعند العرب " تليين الريق " و " الافطار " لها معنى واحد. ومع ذلك فقد كان الصباح جميلاً، وسرعان ما إبتهجوا. كان الجو منعشاً ونقياً، ويهب من الشمال نسيم خفيف، الشمس دافئة بشكل مسر، وسحاب صوفي إنتشر كالرخام في السماء الزرقاء الفاقعة.

سرنا بالطرادة عبر سلسلة من القنوات الضيقة تلتف خلال سهل مفتوح مغطى باوراق البردي المتكسرة. في الأهوار الوسطى، عدا في بعض البحيرات العريضة، تحدد مناطق القصب الرؤيا لبضعة ياردات فقط أحياناً. أما هنا فبالامكـان النظر لأميال. الارض جفت طوال أشهر الشتاء. والان، حيث لا زالت غير مغمورة بالمياه، فهي صلبة كالطين المفخور، رمادية اللون. وفي أماكن أخرى يغطيها الماء لأرتفاع بضعة بوصات، فتكون النتيجة طيناً بلون وقوام الشيكولاته الذائبة.

أقلقتنا عدة أنواع من الطيور الخائضة، بعضها طار فراداً بصيحات صاخبة، وبعضها بأسراب تنعطف وتدور فوق صفحات الماء والبردي المبيض. ميزت منها

الكروان والكروان الصغير، والطيطوي والطيور ذات الطوق والنكات وذوات الساق الطويل وانواع من الزقزاق. كان هناك البط أيضاً، وهو يشرع بالطيران قبل أن نصل الى مدى إصابته، وطيور مالك الحزين وابو منجل والبلشون وأبو ملعقة. وشاهدنا مرة عن بعد سرباً من الكركي. قام حسن بغارات مستمرة على كل طير أعتبره صالحاً للأكل، لكنه لم يتمكن أبداً من الأقتراب ليرمي. وفي كل مرة يعود خائباً ليستقبل بتعليقات بذيئة عن عدم كفاءته كصائد طرائد. في نفس الوقت كان ياسين وسبيتي يسيران على ضفتي النهر من الجانبين دافعين الطرادة بعموديهما المحشورين في وسطها. كان الممر المائي في أماكن عديدة واسعاً لمسيرها، وأحياناً تكون هناك إستدارة قائمة، وعندئذ كنت أتصور ان علينا العودة لطول طرادتنا البالغ ستة وثلاثين قدم، لكن الشباب كانوا دائماً يدبرون إمر استدارتها بسهولة.

كنت أرتدي رداءً عربياً طويلاً، واذا أردت النزول الى الماء لمساعدتهم فعلي ان أشمر عن ساقي وألفه حول وسطي. ان الملابس العربية بالذات، يصعب إستعمالها لمن لم يعتادها. لقد ارتديتها لخمسة اعوام في جنوب الجزيرة العربية بسبب عدم تقبل رفاقي هناك لي بدونها. في العراق إعتاد رجال القبائل بصورة جيدة على منظر الملابس الأوربية. كل موظفي الدولة يرتدونها بإعتناء بين المجتمع. وقد لبستها عندما ذهبت للأهوار للمرة الأولى. وبعدئذ، وعندما شعرت أنني نلت القبول عندهم، لبست غطاء الرأس والرداء العربي الطويل لملائمتها مع الجاكيت، وهو طراز يزداد شعبيته عند المعدان أنفسهم. فالرداء الطويل يقي ساقي وقدمي من لسع البعوض والذباب عند الجلوس في الزورق أو في البيت. لكني دائماً أغير ملابسي الى الأوربية قبل زياراتي الرسمية أو عند الذهاب للمدينة.

كنا نعبر جزءاً من عويسج، وهي أرض منبسطة، تتغمر بالمياه فقط أثناء الفيضان. ولعشرين ميل أو أكثر، تفصل نهر دجلة والمستقع السبخ الذي يحاددها، عن الأهوار العظيمة في الشرق. ولما كانت هذه الأهوار بصورة عامة عميقة غير مواتية للجاموس، فان المعدان يحاولون بناء قراهم على طول عويسج، أو مصبات

نهـري الكحـلاء والمشرح الى الشمال، وفي الخريف يعبر بـدو الرابيـة التـابعين للفريجـات نهـر دجلـة بقطعـان كبيرة مـن الجـاموس، ويخيمـون الشتاء هنـاك. وفي الربيع يعودوا لعبور دجلة ويتتبعوا ببطء الوادية شمالاً، وترعى جواميسهم الحقول المحصودة للحنطة والشعير في طريقهم الى المجر، ويسمح لهم بذلك مجاناً مقابل ما يتخلف من سماد. بعد ذلك يتحركون غرباً نحو جندالة لقضاء الصيف في المراعي الفنية التي تنمو بعد إنحسار الفيضانات. ولكن هنا عليهم أن يدفعوا للشيوخ ثمناً مجزياً.

ينتمي عمارة الى الرابية، وتوقعنا أن نجد أقربائه في ابو ليله، أكبر مخيامتهم الشتوية التي تقع أمامنا. وحالما وصلناها شاهدنا قطعان الجاموس يحرسها صبيان. ووسطها لا حظت جاموسة بيضاء تقريباً، وعدداً آخراً مبقع اللون. ولحجم القطيع الكبير، سألت كم تملك العائلة الريفية عادة من الجاموس، فقال عمارة " بين العشرين والثلاثين " إلا أن حسن أصر أن أكثر العوائل تمتلك أكثر من ذلك بكثير، وسمى واحدة لديها مائة وخمسون.

- " بأي عمر تلد الجاموسة ؟ "

اجاب عمارة " عادة في السنة الرابعة، وهي تحمل الجنين أحد عشر شهراً. والجاموسة الجيدة قد تحمل وتلد حتى خمسة عشر عجلاً. "

ولانني أعرف ان البدو يقومون بذبح الذكور من الجمال عند الولادة كي يبقى لهم حليب أكثر، سألت ان كان المعدان يفعلون نفس الشئ مع جواميسهم:

- " نعم. إلا أذا كان الرجل لديه القليل، فيحتفظ بالعجل الذكر كي يبيعه عندما يكبر. أما إذا كان قد ذبح العجل فهو دائماً يضع آخراً ليرضع من البقرة كما لو كانت أمه وهكذا يستدر لبناً أكثر. أو يقوم بمسح عباءته بالمادة اللزجة التي تغطي المولود الجديد، وارتداءها عندما يقوم بحلب الام. واذا مات الوليد فيسلخ جلده ويضعه أمام الأم كلما أراد حلبها "

- " كم هو ثمن الجاموسة ؟ "

- " لقد دفع الجلاّبة حتى خمسين دينار للجاموسة الجيدة في الشهر الماضي، وخمسة وثلاثين للثور "

والجلاّبة هم تجار خصوصيون يتجولون بين المعدان لشراء جواميس منهم اذا حصلوا عليها. وأنا أذكر أن كلمة جلاّبة في السودان تطلق على تجار العبيد. وهؤلاء التجار يشترون أيضاً جلود الحيوانات النافقة أثناء الأوبئة الدورية بتسمم الدم النزفي التي تهلك أكثرية القطعان. ورجال الأهوار يعرفون أن تلك الجلود تنقل العدوى، ولكن ذلك لا يمنعهم من بيعها ، رغم أنهم يحتجون بغضب اذا ما جلب أحد التجار مثل هذه الجلود الى قراهم. وقال حسن " قبل بضعة سنوات كان هناك تفشي لوباء القدم والفم. وأصيب به العديد من الجاموس وكذلك الخنزير البري. وقد اعتدنا ان نرى خنزيراً لا يتمكن من المشي وقد إلتهبت أقدامه بشدة ".

عند ابو ليلة ، يتسع المجرى المائي، وكانت الجواميس نصف غاطسة في الماء، وأخرى تقف على حافته. وعدد من الزوارق، وبعضها كبير بشكل غير اعتيادي، سحبت الى الشاطئ، وبعض الأطفال يجذفون حول المنطقة بطوافات صغيرة مصنوعة من البردي. وأنتشرت المائة بيت تقريباً ، على كلتي الضفتين.

البيوت بذاتها صغيرة، حيث أنها أكواخ ذات خمسة أقواس. ولوجود أسيجة للجاموس متصلة بها ، بدت أصغر، وهذه الأسيجة تسمى (السترة) وتمتد إحداها الى أربعين ياردة. وهي ليست مثل البيت التي هي إستطالة له، فالسترة تشبه الخيمة ولكنها غير مغطاة بحصران. ويرصف القصب جنباً الى جنب لتتكون منه الجدران المائلة للداخل شيئاً ، ومقواة من الأعلى بحزمة أفقية من القصب. وقد كدس على طول الجدار ومن الجانبين العلف والحشيش المدروس توقفنا عند أحد أولاد عم عمارة، شاب طويل هادئ اسمه بداي. تعانق مع عمارة بحرارة فقد كانا صديقين حميمين. جلب أبسطة ووسائد وجلسنا تحت الشمس في مدخل (سترته) التي تؤدي الى بيته كالنفق. كانت زوجته وأخته تطحنان الرز قبل غليه لأكلنا. مات والد بداي قبل بضعة سنين فاصبح هو رب العائلة المتكونة من أمه وزوجته وأخته وأخوين صغيرين، كانا غير موجودين مع الجواميس لحظتها.

كان بداي على علاقة سيئه مع عائلة شخص يدعى رضيوي يعيش في مخيم قريب: وكان حسن ابن رضيوي يحب زوجة بداي ويأمل بالزواج منها قبلاً. إلا أن بداي الذي هو ابن عمها وله الأولوية بالزواج منها، أصر على إستغلال حقه بالزواج. فأقسم حسن أنه سيأخذ البنت حتى ولو إضطر لقتل بداي. وقبل وصولنا بعدة أسابيع صادف أن إلتقى الشابان وكادا أن يتماسكا لولا إن فرق بينهما. أي من الجالسين معنا وافق على أن لا حق لحسن في الفتاة. وقال رجل كبير " إنه إبن رضيوي. الأب مثل ابنه. الأثنان لا يعترفان بعرف وسيئان. ألم يقتل رضيوي حديثاً رجلين لانهما عارضاه؟ ". اقنع عمارة ثلاثة من كبار السن للذهاب معه لبيت رضيوي لمحاولة الصلح. وعادوا مساءً خائبين وقال عمارة بأشمئزاز " ليس بالامكان عمل أي شئ معهم، حتى ولا سيد سروط نفسه. ظلوا فقط يكررون بان على بداي تطليق زوجته أو تحمل العواقب " وحذر بداي قائلاً " لا تذهب قريهم واحتفظ ببندقيتك مهياة، خصوصاً ليلاً. انهم يضمرون شيئاً "

بينما الشمس تغيب والهواء يهب بارداً، تحركت نحو القرية أخر الجواميس، أشباحاً غامقة في السهل المعتم. وفي السماء غيوم شفافة شاهقة متغيرة الألوان ... وطيور البط ترفرف بأجنحتها نحو الغرب. تحركنا لداخل البيت نفسه، امتلأ الممر الطويل بالقطيع، أجسام ثقيلة تتدافع قدماً خلف قرون مقوسة سميكة.

ينتمي عمارة الى هؤلاء الفريجات البدو. شفع لي عندهم ضمانته وأدويتي وتطبيبي، فرحبوا بي في مخيامتهم الأخرى. وهؤلاء الرابية، غير المرتبطين بأي مكان، والمسلحين بثقل بنادقهم ،كانوا متعجرفين وغير معترفين بسيادة أي قانون. ولتوفيرما يساعد جواميسهم على النمو، اعتادوا حرق القصب الذي يعتمد عليه النواقل والبيضات لصناعة الحصران، وبالتالي كانوا مكروهين من قبلهم، وهم أيضاً دائماً بثأر مع معدان السواعد، الذين هم بدورهم ضد القانون باستمرار، ويعيشون قرب الحدود الفارسية. وكل قبيلة تسرق جواميس الاخرى كلما صادف حدوث ذلك.

تركنا الفريجات وتوقفنا لليلة واحدة في الترابة، وهي قرية كبيرة تعتمد كمثيلتها البيضات ، على صناعة الحصران، ولكن يسكنها البوغنام. وبين القرويين، كنت قد كيفيت نفسي على غذاء من الرز والحليب. وهنا أملت أنهم سيذبحون لنا دجاجة على الأقل، ولكن عبثاً. لذا فعندما قضى مضيّفنا الأمسية وهو يسب بالفريجات، تماديت في الدفاع عنهم. وفي الصباح التالي طلب إلينا رجل من الكحلاء أن نأخذه معنا، فكنا سعداء لهذا، كي يرشدنا خلال مناطق القصب أمامنا. وكان ياسين قد طلب المساء السابق الأرشاد عن الأتجاه فقيل له أننا سننساه حتماً بدون دليل. كان طريقنا خلال قصب عالي قاطعاً بحيرات صغيرة، وكان نادراً ما يدرك إتجاهه. وأذكر أنني في تلك السفرة سمعت لاول مرة هدير طيور الواق. قضينا أربع ساعات حتى وصلنا الى (الدبن) وهي القرية التي نحن بصددها في نهاية مصب نهر الكحلاء. كان رفاقي مهرة في تذكر الطريق، وخلال السنوات التي كانوا معي فيها إكتسبوا معرفة أكثر بالأهوار، ولابد أنها كانت لا تنافس. وحتى في الاماكن التي لم يروها سابقاً، كانت الغريزة ترشدهم، كما يبدو. وقد لاحظت ذلك بصورة خاصة عندما يبحثون خلال القصب والجزر الصغيرة في حافة بحيرة عن مدخل بعض المصبات التي يتعذر معرفتها من مئات غيرها تؤدي كلها الى لامكان. ونفس المهارة المكتسبة منذ الطفولة، تمكنهم من تعقب خنزير سابح، ومن إخبارك نوع السمكة من آثار الماء المرجرج خلفها، أو التمييز من لمحة واحدة مشحوفاً لم يروه سابقاً إلا مرة واحدة. ولكن الغريب أنهم لا يتذكرون الأسماء. وكنت أسخط دائماً، وانا الذي أعاني من نفس المشكلة، عندما لايتذكر أي من الأربعة آخر من استضافنا مثلاً.

وعندما كنا نجذف قدماً، قد يهتف أحد رفاقي طالباً الوقوف، وينزل الى الماء ليقتلع شيئاً من براعم البردي الجديدة. وقد يأكلون السيقان النضرة قرب الجذور. ومن الواضح أن بعض البراعم فقط صالحة للأكل، واحياناً يمضغون قطعاً مختارة من سيقان القصب، كما لو كانوا يمصون قصب السكر. وفي الربيع تقوم نسوة المعدان بجني رؤوس حشائش البردي، ويصنعن من طلع اللقاح قطع كيك

صفراء صلبة* ، يعتبرونها حلوى، رغم اني شخصياً لم اجدها مستساغة بعد ان تذوقتها.

قضينا بضعة ليالي في الدبن، نتحرك صباح كل يوم لأكتشاف أهوار الحويزة. ووجدنا بحيرات واسعة، بسعة زجري، مختفية خلف مناطق قصب شاسعة ولكننا لم نجازف بالدخول فيها أعمق، خوفاً من العواصف المفاجئة. واثناء إندفاعنا في ممرات نائية غير محدودة، تبدو دائماً أنها تنتهي عند جدار صلد من القصب، كان دليلنا يحثني على ان تكون بندقيتي جاهزة قائلاً باستمرار " قد يقتلنا قطاع الطرق هنا ولا يسمع بنا احد ". كانت هذه البحيرات ملجأ طبيعياً لطيور برية لم أشاهد مثل أعدادها في أي مكان، جاعلة صفحة المياه داكنة. كانت هناك جلبة عالية عندما يرتفع حتى ولو جزء ضئيل منها. وعدا بعض المهربين المتجهين الى فارس، لا يقلقها إلا بعض الناس احياناً. ولكن في كل مكان من الأهوار، أخذت إعداد البط والوز تتناقص سنة بعد أخرى. كنت قد شاهدت عام 1951 بطاً يطير وقت المغيب ليتغذى من حقل رز حصد لتوه قرب الصيكل، بأعداد ذكرتني بأسراب الجراد. وعندما تركت الأهوار عام 1958 لم يكن هناك بكثرتها. فملايين الخراطيش قد إستوردت سنوياً في ذلك الوقت الى العراق، واكثر الناس الذين يستعملونها أعدوا الحصول على طير واحد على الأقل لكل إطلاقة، وضريبة أخرى أخذت من الطيور البرية هي من الصائدين المحترفين الذين يصيدون المئات منها بوقت واحد بواسطة الشباك. وكانوا يدفعون حبوباً للشيوخ عن حقوق إستغلال بعض البرك، التي هناك بعضها صغيرة محجوزة حول العمارة وحدها.

اعتاد الوز البري أن يصل الأهوار في أكتوبر. ذوات الأرجل الرمادية والصدور البيضاء تظهر قادمة من جهة الشمال عائدة من أراضي تزاوجها في سيبريا. وفي صراخها سحر الأماكن البرية. وهي تنتظم بسلسلة على شكل حرف 7 متعقبة كل

* تسمى في الجنوب: الخريط- المترجم

واحدة الأخرى خلال السماء الشاحبة، وفكرت وأنا أراقبها باليوم الذي ستختفي فيه آخر وزة واليوم الذي لا يبقى في أفريقيا اسدُ.

قبل تحركنا صباح كل يوم، كنا نستعير غلاية واقداح وصينية من مضيّفنا في دبن ونشتري شاياً وسكراً وملحاً وطحيناً من الحانوت. وعندما نشعر بالرغبة للتوقف نختار موقعاً ملائماً على حافة البحيرة، ونطأ بأقدامنا القصب لجعله أرضية لنا ونطبخ وجبة الطعام. ويشوي حسن على نار يضرمها، أي ما كان قد أصطيد من طيور وعلى الحجر يشوي سبيتي أرغفة الخبز التي غالباً ما تكون عجينية ومشبعة بالرماد. بعد ذلك نعمل الشاي ونشربه حتى ينتهي ما لدينا من سكر. ونراقب الديوك على سطح الماء او طيور صائدة الاسماك وهي تنقض. ومرة شاهدنا زوجاً من ثعالب الماء وهي تلعب فيما بينها، بضعة مئات الياردات عنا، إلا أن حسن تناول البندقية فشاهداها، فنهضا واقفين على أقدامهما الخلفية وهما في الماء، يحدقان فينا لبضع ثواني قبل أن يغطسا ويختفيا في الماء. وسعدت لأنهما رأيانا، وإلا لكان حسن قد أصابهما. كانت قيمة جلد مثيلهما تصل لدينار وفي بومجيفات إصطاد عمه أربعين منها خلال شهرين.

أخبرني حسن أن ثعالب الماء شائعة حول زجري، حيث تتزاوج على الجزر الطافية، وأحياناً مبكرة منذ كانون الثاني، ولكن العادة في شباط أو آذار. وبعد ثلاث سنين في عام 1956 جاء الى العراق كيفين ماكسويل، الذي رغب في تأليف كتاب عن الأهوار، وأخذته بجولة في طرادتي لسبعة أسابيع. وكان يرغب في الحصول يوماً على ثعلب ماء ليربيه. وأخيراً وجدت له رضيعاً من الثعالب الأوربية، إلا أنه لسوء الحظ مات بعد أسبوع عند نهاية زيارته. وكان في البصرة متهيئاً للعودة لبلده عندما تدبرت الحصول على آخر فارسلته له. وكان هذا ذو لون غامق ويعمرحوالي ستة أسابيع وقد ثبت لنا أنه نوع جديد لم يعرف سابقاً. أخذه كيفين معه الى بريطانيا وسمي النوع بإسمه*.

* وهو مشهور عالمياً، وسمي (مجبل) - المترجم



بين السودان والسواعد

الفصل التاسع عشر

بين السودان والسواعد

عند الأمسيات، ونحن نعود الى دبن، إعتاد عمارة أن يمازحني بقوله " من الأحسن لك أن تتهيأ، صاحب، فالزايره بانتظارك " كان المضيف الذي إستقرينا فيه يقع على كومة ركام محاطة بالمياه. ومنه كان بالأمكان رؤية سلسلة القرى والنخيل على طول الكحلاء. وهذا المضيف يعود لوكيل محمد العريبي، رجل عجوز مريض يرقد في الفراش من مشاكل في كليتيه. وقد مات بعد سنه. كان لديه أربعة أولاد بالغين، إلا أنهم كانوا يبعدون جانباً من قبل الزايرة في كل مناسبة، وهي والدتهم العجوز المهيبة. كانت تنطلق داخلة وخارجة من المضيف ملفوفة بحزم من الأغطية الداكنة، أو تجلس في الداخل للإشراف، فكان هذا ينتهك طبيعتي الأعتيادية، والأكثر من ذلك كونها أمرأه عجوز مفزعة، لم اتمكن من التخلص منها وأحياناً قد تظهر وأنا أعالج مرضاي فتقدم نصائحها، مما يربكنا جميعاً في كل المناسبات.

في دبن جُلب لي صبي وقد أصيب بالشلل من وسطه والاسفل. كان قد أصيب بحمى في العام الماضي وتركته معوقاً. كنت قد رأيت حالات كهذه، والمحتمل انها إصابة بشلل الأطفال. كان القرويون شفوقين بشكل خاص بهؤلاء المصابين. وربما كان عندهم عدم القدرة العضلية الشديدة، أقل من الإعاقة في أجزاء أخرى من العالم. كذلك كان في دبن صبي ولد أعمى، لكنه يتجول بحرية في القرية، وقد يذهب لمسافة قصيرة بزورقه لجمع الحشيش. وخلال السنوات التي قضيتها في الأهوار، إلتقيت بعدد من الصم البكم، صبياناً ورجالاً، سعداء وودودين، وكان لهم دورهم الجيد في المجتمع.

في عصر يوم بعد تركنا لدبن، وصلنا قرية على اليابسة. كان الشيخ خارجها لملاحظة مزارعه، وأرشدنا الى مضيفه صبي يضع العقال على رأسه ويتلفع بالعباءة، وخنجر في وسطه. كان يبدو في الخامسة عشر، ووجهه الجميل قد زاد إلفاتاً للنظر بخصلتين من الشعر في كلا عارضيه. في الماضي كان المعدان يتركون شعرهم هكذا كما يفعل البدو حتى الأن. وبعد أن عمل الصبي لنا القهوة وخرج، سألني عمارة " هل لاحظت إنه مسترجل ؟ ". كنت قد سمعت بهذا التعبير بغموض ولكني لم التق بواحد قبلاً. وشرح عمارة " المسترجل يولد أمرأة ،إلا أنها لاتتمالك ذلك، فلديها قلب رجل، وتحيا كالرجال"

- "وهل يتقبل الرجال ذلك ؟ "

- " بالطبع. فنحن نأكل معها، وقد تجلس بالمضيف. وعندما تموت، نطلق الرصاص من بنادقنا لتحيتها. ونحن لانفعل ذلك أطلاقاً للمرأة * . وفي قريه مجيد هناك إمرأة قاتلت بشجاعة في الحرب ضد الحاج سليمان".

- " هل يجعلن دائماً شعرهن بضفائر ؟ "

- " عادة يحلقنها كالرجال "

- " هل تتزوج المسترجل ؟ "

- " كلا. وهن يرقدن مع النساء كما تفعل الاخريات "

كنا مرة في قرية لحفلة زواج، عندما دهشنا لأن العروس كانت مسترجلاً. في تلك الحالة وافقت على أن ترتدي ملابس النساء وتنام مع زوجها شرط أن لاتمارس معه ماتفعله النساء. والمسترجل في الأهوار محترم جداً. ويبدو أن أقرب مثال لها هو ماكان في العصور القديمة للأمازونيين. وإلتقيت خلال السنين التالية عدداً منهن. وزارني مرة أحد الرجال مع من ظننته صبياً في الثانية عشر، فقال الأب "إنه مسترجل". وفي مناسبة أخرى جُلب لي رجل عنده كسر في الجمجمة، وكان قد تقاتل مع مسترجل وحصل له ذلك.

* وفي مراسم وفاة المرأة لا تنصب رايات العشيرة - المترجم

سابقاً، عندما بقيت عند حمود، أخ مجيد، كنت جالساً في الديوانية عندما دلفت أمرأة منتصبة القامة، في منتصف العمر. متلفعة بالأزار الأسود وطلبت علاجاً. كانت ذات وجه عضلي ملفت للنظر. وعندما خلعت سروالها، بان للعيان عضو ذكري بحجم طبيعي تام. وإلتمست مني " هل بأمكانك بتر هذا وتحولني أمرأة حقيقية؟ ". وكان علي أن أعترض بأن مثل هذه العمليه خارج نطاق إمكانياتي. عندما غادر، تسائل عمارة بشفقة " هل بأمكانهم اجراءها في البصرة ؟ فعدا ذلك هو أمرأة حقيقية، مسكينه ". بعد ذلك لاحظت نفس الرجل يغسل الصحون على النهر مع النساء*. ويبدو أنهم تقبلوا وضعه في البيت هكذا. وتكون علاقة الناس بمثل هؤلاء حسنة وجيدة، عكس ماهي عليه في مجتماعتنا. ومع ذلك فقد نجدهم أحياناً قساة جداً. مرة كنا على وشك التحرك بجولتنا اليومية عندما طلب إلينا البحث عن جسد طفلة غرقت في النهر.وعندما عدنا مساء وجدنا الجثة طافية، ولما إقترحت حملها على متن زورقنا، رفض رفاقي لمسها، أوحتى وضعها في الطرادة، خوفاً من النجاسة. قال ياسين " إن علينا أن نغتسل عندئذ سبع مرات، وعلى كل هي ليست إبنتنا" وكل مافعلوه هو دفع الجثة الى ضفة النهر، ورفعها بعدئذ بمجاذيفهم.

وفي مرة أخرى، وصل سيد عجوز ومعه إبنه، طفل في التاسعة، جرح إصبعه بعمق وهو يقطع الحشيش. كان الطفل يترنح، وعلى وشك الأغماء من كثره مافقد من الدم. وعندما سألت الاب بسخط، لماذا لايساعد الطفل، إعترض قائلاً أن ملابسه قد تتلوث بالدم فيصبح غير نظيف (نجس). ولحسن الحظ تذكرت أنه (سيد) وأن علي أن لا أشتمه، وعلي أن أقول الأن أن بعض رفاقه المسلمين أقل تحمساً بتطبيق هذه الأمور.

* كنت في قلعة صالح عام 1955 ودار القائم مقام على كورنيش المدينه وكنت الاحظ رجلاً واضحاً يلتفع (بالشيلة) النسائيه ويسير مع رتل من النسوه بشكل طبيعي لجلب الماء من دجلة بحملهن (مسخنة) على رؤوسهن. المترجم

يترك الكحلاء نهر دجلة بضعة أميال جنوب العماره، وبعد خمسة وعشرين ميل يتلاش في الأهوار. والقرى التي في دلتاه، حيث بقينا أياماً بعد تركنا لدبن، قد إستوطنتها عوائل من عدة قبائل إضافة الى البو محمد، التي يدينون بالولاء لشيوخها. ويحتفظ القرويون بالجاموس ويزرعون الرز. وفي أعالي النهر يعيش البو محمد في سلسلة من القرى على طول فروع النهر وقنواته العديدة، يزرعون الحنطة والشعير، حيث يبذرون في تشرين الثاني ويحصدون في نيسان أومايس، ويعكس ماهو موجود في المجر حيث تبنى الدور على ضفة النهر عند الأرض القفر الواسعة، تكون القرى وبيوتها في الكحلاء منتشرة بين بساتين النخيل وحدائق صغيرة للفاكهه، واجمات الصفصاف. وتجولنا خلالها مرتحلين صعوداً في فرع من النهر ونزولاً في فرع أخر.

وفي كل فرع كان علينا التغلب على سداد الأرض العظيمة التي بناها الشيوخ لتوفير الماء الى حقولهم الشتوية. فكان الماء المحصور ينساب كفوران دولاب المياه من خلال فتحة ضيقة في الوسط، مكوناً دوامات لمسافة ثلاثين ياردة مع مجرى التيار. وجاهد رفاقي لايجاد طريقهم قدماً بعد قدم، ثم بوصة بعد بوصة. ولم يبق للطرادة أكثر من بوصتين للجزء الطافي، وكنت أخشى أن تميل جانباً فتنغمر بالمياه. ويسيرنا إصطدمنا بالسداد الأخر، فأنساب الماء بسرعة. وكثيراً مانجد في قنوات أصغر، أن التيار قد سد بالكامل، ونواجه جرفاً بارتفاع أربعة أقدام. وكانت الطرادة أثقل من أن نحملها. فنقوم برش الماء على السداد لنجعلها زلقة، ثم ندفع المقدمة منزلقة بجهد الى الأعلى حتى تتوازن، ثم نمررها من الجهة الثانية بحذر.

كان محمد العريبي الأغنى والاكثر قوة من بين شيوخ البو محمد على نهر الكحلاء، رجلاً طاعناً في السن محترماً جداً، ويعيش اكثر حياته في بغداد او العمارة، تاركاً إدارة أعماله لأبنه المغفل، المتعجرف والمتهتك بالملذات. أما أقرباؤه الأخرون فيعيشون بدرجات متفاوتة من الفقر بمزارع صغيره كان قد خصصها لهم في أراضي أقل خصوبة، وقد بقينا عند بعضهم فوجدناهم ودودين ومتواضعين.

تركنا الكحلاء، وقطعنا هوراً يزخر بالخنازير التي إصطدت منها عدداً كبيراً، ووصلنا الى فرع للمشرح، وهو نهر يترك دجلة شمال الكحلاء في وسط مدينة العمارة. وأصبحنا الأن وسط السودان، وهي واحدة من أروع القبائل، وأكثرها تعاسة. كانوا في السابق ذوي بأس وأثرياء، أما الآن فمنتشرين في أرضهم التي اهملت كثيراً، وقد دافعوا بأن مستوى المياه قد انخفض منذ بناء السد في الكوت على دجلة، وقد نصب شيخهم الأخير مضخات، إلا أن أبنه باعها بعد موته ليدفع ديون القمار التي سببها لنفسه، في البصرة.

في الطريق، عددت ستين خنزيراً كانت في منطقة قصب واحدة. وقد ناشدني السوداني أن ارميها لأنها تدمر محاصيلهم القليلة من الحنطة والشعير التي كانت على وشك النضوج. نادراً مايدخل الخنزير حقل شعير اذا كان هناك حقل قمح قريه. وفي هذا الموسم تتغذي في الحقول ليلاً وتنام فيها نهاراً، وفي أماكن قد يصل إرتفاع الزرع أربعة أقدام تقريباً، مما يجعل الصيد خطراً، خصوصاً عندما تكون هناك رياح تحرك النبات. وسبق أن هاجمني خنزير وأسقطني أرضاً في ضروف مشابه في العام السابق.

كنت في تلك المناسبة قد أصبت حوالي عشرة من الخنازير بعد أن أجبرتهم على الخروج من أجمة دغل بموازاة خنادق مهجورة، ورميتهم وهم يقتحمون الأرض المفتوحة. جاء صبي بخبر عن خنزير يوجد في حقل القمح المجاور، وأشار بيده الى الموقع الأكيد. كان الفراغ واضحاً حتى من مسافة بعيدة، إلا أن الزرع كان بأرتفاع الصدر ولا أتمكن من رؤية ما فيه إلا من مسافة أقل من ياردة. وفجأة تطايرت سنبلة وكان الخنزير مضطجعاً في الظل وظهره إلي. رميته في رقبته، فلم يتحرك أبداً. قال مضيّفي ملحاً عندما عدت إليه " دعنا نعود، فوراءنا طريق طويل " وعندما كنا نترك المنطقة عاد الصبي ثانية بخبر عن خنزير آخر " تعال وارميه صاحب، إنه يدمر محصولي "

حاول المضيّف إثنائي عن ذلك، لكني قلت " فقط هذا، وسأكون معكم " ومرة أخرى طفت بالفجوة التي أشار إليها الصبي، ولاحت لي مباشرة من فوق الزرع

عين خنزير ضخم، لازلت أتذكر البياض المتلألئ لنابيه. وقبل أن أسدد بندقيتي، كنت قد طُرحت على ظهري عدة ياردات عن المكان الذي كنت واقفاً فيه، وإنفجرت البندقية وأنا أسقط. ثم كان الخنزير فوقي مرة أخرى. وشعرت بثقله على فخذي، ورأيت خطم أنفه الطويل وعينيه الغاضبتين الصفيريتين فوقي، وشعرت بأنفاسه فوق وجهي. وأندفع على صدري بأنيابه، وبالغريزة وجهت ضربة بعقب بندقيتي، وعندئذ تركني، وذهب. جلست ونظرت الى بندقيتي، وحفرة في مقبضها، وأحد أصابعي قد جرح حتى بان العظم كما لو قطعتها بموسى، ينزف دماً. أعدت ملء البندقية ووقفت. كان الخنزير، وهو كبير جداً، يبتعد نحو حافة الحقل. صرخت فاستدار، فرميت الى صدره، فسقط حيث كان واقفاً.

كنت حينها وحدي مسؤولاً عن نفسي، أما هذه المرة فهناك أربعة رجال معي وجمع من السودان، ولكنهم وقد إقتحموا الزرع، عملوا فيه من الدمار مايعمله عشرة من الخنازير. كان عمارة مسلحاً ببندقيتي المعبأة بخردق كبير، وحسن يحمل المسدس البراوننج 9 ملم الذي جلبته في تلك السنة وسبيتي وياسين كانا مسلحين بخناجرهما. بعد قتل عدة خنازير، ونجاتنا مرتين بشق الأنفس، أقنعت القرويين بان علينا الصيد لأسباب أخرى خلال مناطق البردي المغمورة بالمياه. وهنا قتلنا ستة وثلاثين خنزيراً في يومين، نطاردها بطرادتنا، ونرميها بالرأس بالبراوننج وهي تسبح أمامنا أو تستدير لتهاجمنا. فما دامت سابحة، تكون بلا قوة لأذيتنا. ومرة قفز ياسين الى الماء العميق جنب خنزير كبير وأغرقه بيديه. وأبدى السودان أسفهم عندما تركناهم لزيارة السواعد.

في طريقنا لقطع أهوار أكثر، مررنا برابية داكنة منعزلة ترتفع ثلاثين قدم فوق القصب. فيما مضى كانت مكاناً لمدينة منسية، وهي تعرف عند المعدان (إيشان واجف) أي جزيرة واقفة. وبعدئذ أخذنا السواعد أبعد في الهور وأرونا رابية أخرى مشابهه تدعى (عزيزة) قدرت إرتفاعها خمسين قدماً. واذكر أنني شاهدت حيوان النمس يعدو فاراً داخلها. وبقينا أسبوعاً عند عدة شيوخ في الألسنة السفلى لنهر المشرح، لم يكن أي منهم ثرياً، إلا انهم جميعاً كانوا مضيافين. أحد الرجال

الطاعنين، وله شكل شبح صيني، ويكنى (أبو الفانوس*) لأنه في كل يوم جمعة (سبت المسلمين) يرشد عابري السبيل الى مضيفه بتعليق مصباح على عمود. كان هؤلاء الشيوخ ودودين وغير رسميين مع قروييهم. وكلما قدمت وجبة طعام، ألحو على كل شخص في المضيف أن يبقى ليشاركهم. حتى عمارة وحسن الذين هما من الفريجات ولا يحبون السواعد، سلموا بأن لهؤلاء الشيوخ أيادي مفتوحة أكثر من شيوخ البو محمد. ومن ناحية أخرى عندما أنتقدت في مضيف قبيلة اخرى سوء استضافة أحد شيوخ البو محمد، وُبخت بشدة بعد ذلك من الحضور قائلين " قل ماتشاء عن شيوخنا أمامنا، فنحن نفعل ذلك، فأكثرهم بخلاء، ولكن لاتنتقدهم أمام عشيرة أخرى ". لقد عجبت لأخلاصهم، حيث لا ينتمي أي منهم الى البو محمد.

عند السواعد، علينا أن نعمل وفق عاداتهم، ومنها، أنه بعد الاكل تنزل لحافة الماء لغسل أيدينا. كان رفاقي الأربعة قد أتخذوا عادة البدو، غير المعروفة في هذه الأنحاء، وهي النهوض جميعاً عندما ننهي نحن الخمسة تناول الطعام، وعندما سألنا قالوا " هذه عادتنا ". ودائماً بعد وجبة الطعام، يتبارز الشيوخ وتابعيهم بالرمي علينا ببنادق الهواء. واحياناً ببندقيتي ومسدسي. وأصبح عمارة بدون ريب رامياً جيداً، وكل من ياسين وحسن صارا أحسن مما كانا، ولكن أي تدريب أكثر لم يعد ينفع بسبيتي للأداء الجيد إطلاقاً. قال له الاخرون :

- " ارمي على ذلك المضيف هناك فقد تصيبه بالخطأ ". كان من السهل إثارة غضبهم، إلا أن سبيتي لم يعر هزأهم أهمية إطلاقاً. كان ياسين مشاكساً، وعمارة نكداً، لكن سبيتي الأحن من كل رفاقي، والأكثر حذراً في مراعاة شعور الآخرين، ذكياً، متزناً ومعتدل المزاج. ونحن ندين له بالفضل الكثير. كنت أحياناً أشعر بالغضب مع الآخرين، ولكن نادراً مع سبيتي، واذا ماحدث فسرعان ما أشعر بالخجل.

* وفي الحقيقة يسمونه: ابو تريك - المترجم

بعد تركنا لشيوخ السواعد بأسف، إتجهنا شرقاً نحو حدود فارس، رافعين الطرادة في مياه ضحلة بين البردي الذي ينمو مابين مناطق القصب وحافة الصحراء. ياسين دائماً عند المقود، وعمارة أمامه، وحسن في الوسط وسبيتي خلفه. كان حسن يؤكد بأنه مفتون بصبي إسمه ماضي، الذي إستمر رقصه طوال الليلة السابقة. تنهد بصوت مبالغ فيه " ماضي. آه ماضي " ضحك الاخرون، وأقترح ياسين ان علينا ان ننزله الى الشاطئ حالما نرى حماراً.

وجدنا أنفسنا ضمن قافلة نهرية لقرية من السواعد تنتقل الى مكان جديد وقد ملئت الزوارق الكبيرة بالبيوت المفككة، وممتلكاتهم. وفي الزوارق الصغيرة رعاة وأكثرهم عراة، يصرخون بأصوات مبهمة وهم يقودون الجواميس الغاطسة. لم يكن هؤلاء السواعد مزارعين، بل يعيشون في الأهوار مع قطعانهم. ولباس رأسهم يميل لونه الى الأصفرار، عكس تلك التي يضعها الفريجات. وانبثقت خلفنا من القصب زوارقهم أكثر فاكثر. وشرح لنا أحدهم ان ارتفاع الماء غير الطبيعي هذا العام قد أزاحهم مبكراً عن المعتاد، من أماكنهم الشتوية الى عمق الأهوار. وقال " توقف عندنا هذه الليلة صاحب. فسنقيم قريتنا على تلك الأرض اليابسة ".

وبعد أقل من ساعة بعد نزولنا كان أول بيت قد أنشئ. وثبتت حزم القصب واحدة مقابل الأخرى في صفين لتكوين الأقواس، وكل حزمة تميل الى خارج البناء. وتسلق رجل منصةً ثلاثية الأرجل من القصب وربط أطراف الحزم كل واحدة الى مقابلتها بمساعدة الآخرين وهم يسحبونها بالأرتفاع الذي يصلوه. كانت العملية سهلة سيما أن الحزم كانت مقوسة من إستعمالها السابق. وعندما أصبحت الاقواس الخمسة في محلها، قام السواعد بتقويتها بأضلاع أفقية من الحصران، أحياناً بسمك حصيرة واحدة، على الهيكل وربطها بمكانها. كل الربط كان مصنوعاً من القصب. وبينما كنت أتجول مراقباً البيوت وهي تبنى، والزوارق تفرغ من حمولاتها، دعاني احد معارفي الجدد الى بيته الذي وجدته قد أثث، مع شاي قد عمل ورز على النار للغداء. وأبنه الكبير، طفل في التاسعة، لا يرتدي شيئاً إلا قلادة فضية بحجر مفرد أزرق كبير.

وهؤلاء السواعد القريون يجنون لجواميسهم الحشائش والكولان Scirpus brachyceras) وهو البردي الذي يغطي الهور الموسمي. وبينما كنا نراقبها وهي تأكل فيه، ألح ياسين أن جواميسه في بومجيفات لاتقربه أبداً. كثير من السواعد أراد دواءً، فاضطررنا للبقاء يوماً آخراً. ثم زرنا بعض قراهم الأخرى، منها واحدة تبعد بضعة أميال داخل مناطق القصب. لقد كانوا الأقل غشاً من بين المعدان، والسعادة في رفقتهم لايعكرها إلا طعم المياه التي كانت مالحة على طول حافة الصحراء. والسواعد على اليابسة يجمعون الملح بتبخير الماء منه في حفر ضحلة.

أخيراً وصلنا الحدود الفارسية وهي أبعد ما بأمكاننا الوصول إليه من الأهوار الشرقية، وبعد أن قضينا ليلة في نقطة بوليس عراقية صغيرة، تحركنا عائدين الى الأهوار الوسطى.

عائلة عمارة



الفصل العشرون

عائلة عمارة

كانت عويسج قد غرقت، وعندما عدنا الى هناك كان الفريجات قد ذهبوا. ولما كنا نندفع بالطرادة بالقوة خلال حقل داكن من البردي، كنا نشاهد أحياناً طيوراً رمادية بقيت للتزاوج، تذكرنا بالطيور البرية هائلة العدد التي كانت في أشهر الشتاء. وعلى طول الفرات، وعند مناطق القصب، يكون هناك نمواً جديداً عالياً بين تلك النباتات الجافة التي لا نسغ فيها، بينما نبات قدم الغراب ذو العطر، يكون قد غطى سطح المياه كثلج متساقط.

عند العزير تركنا الزورق وإستأجرنا سيارة لتأخذنا للبصرة، التي أزورها بصورة عامة كل شهرين لألتقاط بريدي وأخذ حمام وشراء أدوية. وبضعة أيام في بيت مريح هو تغيير رائع، وأصدقائي في القنصلية جيدين معي ومع رفقائي دائماً. وعندما عدنا ثانية لطرادتنا، قال عماره " الان وقد مات فالح، يجب أن تبقى معي. ليس لدينا الكثير كما تعلم، لكن مانملكه هو لك. سنترك ياسين وحسن عند عائلتيهما، ونرسل إليهما عندما نكون مستعدين للتحرك ثانية ".

بعد أربعة أيام دخلنا القناة المؤدية الى الرفيعة، قرية عمارة. صار التيار أشداً وخلف الضفاف كان الرجال ينظفون الأرض من الأكوام الكبيرة الطافية من النباتات، بعيداً في الهور، غائصين حتى الركب، بل وحتى الصدور في المياه. إندفع صبي طويل ورداءه حول عنقه وصاح يحيننا، فقال عمارة " هذا رشك، أخي، في السنة الماضية كان يساعد الأخرين بزرع رزهم، وهذا العام لديه أرضه الخاصة به ". غسل الصبي يديه وساقيه من الطين، وصعد الى الطرادة بجانب عمارة، قبّله، والتقط مجذافاً. وبالرغم من مظهره الجميل مع إنطباع عن نشاط مفعم بالحيوية، كان ينقصه التهذيب الذي ميز أخيه.كان أصغر منه بعام، ويقاربه طولاً، ولكن

يبدو أنه أكثر قوة. مررنا بالبيوت الأولى، وبدأ الأطفال يتبعوننا، راكضين على طول الشاطيء حتى شعرت كما لو كنت مهرجاً بمزمار. وعندما توقفنا كان الجميع قد إحتشدوا منتظرين مساعدتنا. قال عمارة لأحدهم " حسن، أركض وأخبر الوالد ان الصاحب جاء ضيفاً عندنا " ثم لرشك "هيا إسع كي يجلب الفروخ كل شيء الى البيت ولاتنسى المجاذيف "

كان ياسين وحسن قد بقيا لبضعة أيام في بومجيفات. وبرفقة سبيتي وشاب آخر جاء معنا، سرنا نحو بيت عمارة بضواحي القرية. خلفنا حقول الشعير المحصودة للتو، وعن بعد أجمة دكناء من النخيل. كان ثكب، والد عمارة، رجلاً مسناً بوجه عرقته السنون، وعينين حيويتين. يرتدي لباساً ابيضاً نظيفاً، وغطاء رأس. رحب بنا بلطف تام. حافظ على أنتصابه ولكنه كان يتحرك ببطء، والى حد ما متصلب، وهو يقودنا لبيته الصغير ذي السقف الواطئ، وأقواسه الخمسة التي لايتعدى سمكها بضع قصبات. كان بساط متهرئ قد فرش على حصيرة بالية مع وسادتين. رحبت بنا إمراة في منتصف عمرها، نشطة، بوجه بشوش قائلة " مرحبا صاحب، مرحباً في بيتك. الست أبو عمارة ؟. الله يبارك فيك " وخلفها كان يقف طفل وصبيان وبنت في الخامسة عشر أخفت نصف وجهها.

أرسل عمارة أخيه رشك ليجد أبريقاً، وسبيتي لحانوت أبيه لجلب الشاي والسكر. وبمساعدة إخوانه الصغار وحشد من أطفال آخرين حاول القبض على ديك مسن. وبعد هربه من البيت، وبعد أن جعلهم يلاحقونه خلال القرية بمطاردة صاخبة، حوصر في زاوية وذبح للغداء. وأبرز عمارة سمكة شبه عفنه، لكن في تلك الأنحاء لايهتم أحد فيما إذا كانت هناك رائحة عفنه للسمك. قامت (ناكه)، أمه، بشوي الخبز لأكله مع السمك بفرن طيني دائري، ناشرة أقراص العجين الرطبة على جدرانه الداخلية. وعلى اليابسة يوجد أمام كل بيت مثل هذا الفرن. أما في الأهوار فتقوم النسوة بطهي خبزهن فوق النار بصحون فخارية مدورة. عاد جليب، الأخ الأصغر، من الأهوار. وهو صبي صامت صلب البنية. كان مسؤولاً عن الجواميس عندما كان عمارة معي بعيداً عنهم، ورغم كونه في حوالي الثامنة

عشر، فأنه يعمل منذ الفجر حتى المغيب، بقطع الحشيش وجلبه. ساعده رشك في نقل الحمولة من الزورق الى البيت. وفي المساء كانت الجواميس تقيد من أرجلها أمام المنزل، ولاتترك حرة وإلا فأنها قد تتجول في الحقول المحروثة. كان قطيعهم يشمل ثوراً بعيون واسعة وحشية، ثلاث بقرات، وبقرة صغيرة وعجل. كان قلب عمارة، مثل جليب، مع الجاموس. وبعد الحلب قال لي وهو يربت على إحدى البقرات " أنظر الى هذه، إنها جميلة حقاً وببطنها جنين. لقد جلبتها بالفلوس التي أعطيتها لي العام الماضي. بعون الله سيكون لنا قطيع كامل ". من ناحية ثانية كان رشك مهتماً بمحصوله من الرز، ويتذمر في أي فرصة من الوقت الذي يقضيه مع الحيوانات، وهو سريع الفطنة، قليل الأحترام لمن يكبره سناً، وبتحريض من الدانه، قد يكون فضاً وغير مسؤول. إلا أنه في الحقول يقوم بعمل الرجال بأنهماك وبكل جوارحه، وفي الأمسيات يجلس هادئاً في جانب من الغرفة، قانعاً الى حد بعيد، وعندما يحدثنا عن محصول الرز تتلاعب أصابعه كما لو كانت تعبث بتفتيت التربة. وفي آخر السنة، غطيت ساقاه بالشري، وهي إصابه بالحك خلال الصيف وفي المياه حول القرى والحقول المزروعة، وكذلك في الهور الضحل، وحيثما يكثر الخنزير. ومزارعوا الرز يشكون حتماً منها، يهرشون سيقانهم حتى ينسلخ جلدها. وعادة يدوم هذا التهيج لأربع وعشرين ساعة. وأنا أعرف كم يدعو ذلك للجنون، فقد أصبت به بعض الأحيان وانا أصطاد الخنزير.

ان الاشهر العربية قمرية، لذا فهي تتفاوت قليلاً كل عام. والمزارعون كمثلائهم في حضرموت، يحسبون المواسم بغروب وشروق نجوم معينة، بنات نعش، والشعري اليمانية مثلاً. في بداية كل موسم جديد، تحدد الارض على جانبي القناة جنوب الرفعية باوتاد من القصب، الى مقاطعات ذات مساحات واحدة، توزع بالقرعة على القرويين. وعموماً يجد الرجل الواحد لنفسه عدة قطع متباعدة، وقد يجمعها مع آخرين كمشاركة، أو قد يزرع جزأه بنفسه أو بمساعدة أفراد عائلته. وفي السنين العادية يقومون بتنظيف الأرض في نيسان ويبذرون الرز في منتصف مايس،

عندما ينخفض الماء. واذا إستمر الفيضان بعد هذا التأريخ، ستنمو الطحالب والأعشاب الضارة وتخنق نبتات الرز.

قبل بذر الرز، يقومون بنقع حبوبه في الماء لخمسة ايام ثم توضع تحت حصيرة عليها أثقال تحت الشمس ليومين آخرين حتى تبدأ بالأنبات. وهم يفرقون بين محصول النثار، حيث يبذر ثم ينمو في الماء، وبين محصول الشتال وهو زرع منطقة معينة، ونقل النبتات بعد أربعين يوم الى محلاتها الجديدة للنمو. المعدان في الأهوار يزرعون الرز بالشتال فقط، بينما الأزيرج، الذين تبعد أراضيهم عن الأهوار كثيراً، فيزرعون بالنثار على الأعم. وهنا في الرفعية على حافة الأهوار يقوم القرويون بزرع محاصيلهم بالطريقتين. ورشك الذي كان يعمل بمفرده، يزرع أربعة أخماس حقله بالنثار الذي لا يحتاج الى أيدي عاملة كثيرة، ولكن يعطي غلة بنصف مقدار الشتال لنفس المساحة. وعادة يحصد منتوج النثار في منتصف تشرين الثاني، بينما منتوج الشتال بعده بشهر.

عام 1956 كان سنة جيدة، جنى رشك أربعة (كبالة) من النثار وواحدة من الشتال. والكبالة هي 0.62 من الأكر. وكان مجموع الغلة 3500 كيلو غرام من الرز، أعطى لمجيد ربع المحصول وإحتفظ بما يكفي لغذاء عائلته للسنة التالية، وباع الباقي بحوالي ثلاثين دينار. أما حصة مجيد، فتجمع بعناية، وكانت تجبى على القرية ككل. أحياناً يأخذ ثلث المحصول المحصود، ولكن عادة ربع المحصول المخمن. وفي هذه الحالة كان يثبت المقدار حالما يعرف مستوى الفيضان تلك السنة. وقد قيل لي أن تقديره بصورة عامة، يكون مضبوطاً.

المزارعون يرحبون بالفيضان العالي، كالأزيرج، الذين يزرعون رزهم على الأرض المسقية من الأنهار، ولكنها محنة للمعدان الذين تكون أرضهم المزروعة رزاً تحت مستوى الماء. وبالعكس، فان المستوى المنخفض للماء يمكن المعدان من الزراعة الواسعة، ولكنه يكون كارثة للآخرين. وفي عام 1951، وهي سنة استثنائية بأنخفاض الماء، زرع المعدان من الصيكل والعكر والقرى الكبيرة في الأهوار من بداية نهر العدل، مساحات أكبر من المعتاد، ولسوء الحظ رفعت أمطار

الخريف الكثيرة، مستوى المياه وأغرقت أكثر المحاصيل قبل أن يتمكنوا من حصادها. وفي منطقة العمارة تزرع القبائل الرز فقط على أرض غطيت بالطمى الطري، ولكن على الفرات جنوب سوق الشيوخ يحرث بعضهم كل أراضيهم للرز. وهنا، يقوم البعض أحياناً بزرع الرز تحت النخيل في نفس الارض التي حصدت للتو من الحنطة والشعير.

قطع حسن، وهو طفل في السابعة وأحد إخوة عمارة الأربعة، أصبعه في أول مساء، وجاءني لتضميده. وبقي من حينها جالساً في الطرف البعيد من الغرفة ولم أعد ألحظه، عكس أخيه الأصغر الذي جلس جنبي يحادثني دون كلفة. وقد صدمني أنه يبدو مصاباً بفقر الدم الشديد، وقد قالت أمه أنه يشعر بالتعب باستمرار ويدون حيوية. كان لون الدم الذي سال من جرحه كالماء القذر، يصعب رؤيته على الجلد الأسمر الذي لفحته الشمس. أعطيت أمه قنينة من حبوب الحديد، وبعد شهر كان يصعب معرفته. لقد اصبح سعيداً ورقيقاً، وسرعان ماصار أثيراً عندي.

كان طموح ثكب هو الحج الى مشهد. وقضى وقتاً كثيراً في طلب الشفاعة مطمئناً الى ترك أمور عائلته لعمارة، الذي كان دائماً يطلب استشارة أمه. وقد إستشارني عمارة في السنة التالية حول إرسال حسن للمدرسة قائلاً " علينا أن يكون أحد أفراد العائلة عارفاً بالقراءة والكتابة ". وافقته ولكن بقليل من الحماس. وفي صباح اليوم التالي أرسلناه لمدرسة، حيث صاحَبه نصف دزينة من صبيان القرية، وكانت على مسافة ميلين على الطريق المؤدية الى الوادية. كانت توجد مدرسة أخرى على العدل جنوب قرية مجيد، لكن لا توجد أية واحدة داخل الأهوار. كان حسن سعيداً في مدرسته فيسرع صباحاً مع الأطفال الآخرين، وعند المساء يريني عمله بفخر. ولما كنت مرة في البصرة، إشتريت له حقيبة مدرسية ودفاتر وأقلام ملونة وأقلام حبر ومحبرة ومسطرة وفرجالات، فكان مسروراً بها، وأكد لي ان ليس لأحد أي من هذه الأشياء، ورغم ذلك كنت قلقاً من النتائج. فللسنوات الخمس أو الست التالية سيقضي يومه جالساً على رحلة داخل بناية، وفي منتصف النهار

سيعطي وجبة طعام كما تصفها اليونكسو. حياة سهلة مقارنة بحياة جليب بين القصب او حياة رشك في حقول الرز. ولكن مناطق القصب وحقول الرز ستكون قدره اذا بقي في الرفيعة بعد تركه المدرسة. كنت آملاً فقط أن لايؤول به الامر بعدئذ الى أن يصير شاباً منسياً في أحدى المدن، وهو مصير عدد كبير من أنصاف المثقفين في كل بلاد الشرق الأوسط هذا اليوم.

قلة من الصبيان الذين كانوا في المدرسة أقتنعوا بالبقاء في قريتهم. ولسنوات، كان مدرسوهم الذين يكرهون الحياة القبلية الريفية، يحثونهم ويشجعوهم للتفكير بأن الحياة المقبولة الوحيدة، هي التي في المدن. وكثيراً ماكان الشباب يناشدونني " خذني معك للبصرة، صاحب، وجد لي شغلاً هناك. أنا أكره الحياة حيث نعيش كالحيوانات. لا بأس بذلك لوالدي وأخوتي، اما أنا فقد درست " واذا ما بقوا في قراهم فأن هؤلاء الشباب سيعيشون بمرارة، دون قناعة. وكان أعتقادهم أنهم حالما يهربون من مكانهم فان ثقافتهم الهزيلة ستجلب لهم كل ما يريدوه، وهو أمر يدعو للرثاء. لم يدركوا أن هناك مئات الألوف في العراق لديهم نفس المؤهلات. وبالحقيقة فانهم اذا تركوا ديارهم، فلربما ينتهي الأمر بهم ببيع الصحف او الكوكاكولا في البصرة أو بغداد، إضافة الى السرقة من السيارات او السمسرة بالصراخ في مواقف سائقي التاكسي، ليجدوا قوت يومهم.

كان كل الأباء تقريباً قلقين لأرسال ابنائهم للمدرسة، وأني أتذكر رجلاً عجوزاً في قرية على نهر العدل قال لي " لأبني عمل جيد لدى الحكومة في البصرة. نحن فقراء كما ترى. لقد صرفت المال الكثير كي يبقى في العمارة خلال السنوات العشر التي قضاها بالمدرسة. واخيراً كنت آمل أن يعتني بنا. كنا سعداء معه عندما كان طفلاً. إنه إبننا الوحيد. الآن لايأتي لنا ولا يساعدنا أن هذا التعليم سئ، صاحب، انه يسرق منا اطفالنا ". ومع ذلك فأن إمرأة من كباب كان زوجها قد طلقها وذهب للعمارة ليعمل حارساً ليلاً، لم يكن لها هذا الشك بمستقبل التعليم، فقد زارها إبنها الذي كان هناك بالمدرسة. كان يرتدي معطفاً وبنطلوناً، بفتحة كبيرة عند العجيزة، وكان شعره ملمعاً بالدهن، ومفرقاً على الطريقة الأوربية.

وعندما غادرها بعد يومين، أخذت العجوز تدور بين الجيران مصرحة " إبني متمدن. يأكل بالملعقة ويبول وهو واقف " وطبعاً رجال القبائل دائماً يجلسون القرصفاء عند التبول.

في واحدة من زياراتنا العديدة لكباب، دعانا داخل لعرسه. عندما أرسلته الى البصرة في العام الماضي، كنت أعتقد أنه على وشك الموت. ومنذ شفاءه إلتقيته مصادفة بمناسبات عديدة، بين الفرطوس و العكر، وحديثاً في كباب. وكنت مولعاً بهذا الشاب الظريف المتحدث والهزلي الى حد ما. شعرت أنني مسؤول عنه، وساعدته بالفلوس. والآن دفعت عنه أكثر الخمسة وسبعين دينار مهراً لعروسه، أخت صديقه وادي، البنت التي كان على حب معها دائماً.

وصلنا كباب ظهراً في اليوم السابق للعرس، وكنا سعداء لوصولنا لأن الممرات بين مناطق القصب المقفرة، حارة بشدة، وحتى لو جلست بدون حركة فأن قطرات العرق تسيل نازلة على جسمي، بينما يبدو رفاقي وكأنهم قد إغتسلوا بملابسهم. الماء الذي نغرفه للشرب مع الطعم. وعشرات من المناكب الصغيرة سقطت على الطرادة، والبعوض يحوم حولنا، والذباب الذي يبدو غير ضار كذباب المنازل، يلسعنا بوحشية من خلال ملابسنا. تقبع القرية خاملة، تبدو وكأنها تتبخر تحت شمس الصيف. كان صدام بزيارة لمجيد، لذا فقد بقينا عند رجل من الفريجات كان صديقاً لي وإبن عم حسن. مسكن داخل مجاور لعائلة من الفرطوس، وكان منهمكاً بتوسيع داره باضافة زوج آخر من الأقواس. وعندما إنتهى من ذلك، نصب شبكة حمراء عن البعوض داخل بيته لتكون مريض عرسه.

في الصباح التالي سمعنا غناء و طبول من الطرف البعيد للقرية حيث بدأ وادي الاحتفال بزواج أخته. وعند العصر رحل أصدقاء داخل بطرادتنا لجلب العروس. أخذ عمارة البندقية وحسن المسدس لغرض الرمي إحتفالاً بالمناسبة. وكمرف، بقي داخل في بيته منتظراً عودتهم. ولأن لاعائلة له، طلب مني البقاء معه، وجلسنا نستمع الى الأصوات البعيدة. توقف الغناء ثم عاد ثانية، وهذا يعني، كما قال، أنهم وصلوا لهناك وأن وادي يرحب بهم. وبعد ساعة، والشمس قد انخفضت، إرتفع صوت الغناء

وسمعنا عدة طلقات رصاص متفرقة، فقال داخل " إنهم يضعونها الان في الزورق. وسيأخذونها حول القرية، ويقفون للرقص أمام بيوت عديدة في طريقهم الى هنا ".

وأخيراً شاهدناهم يقتربون ببطء. كانت الطرادة التي تحمل العروس الملتفعة بملابسها الجديدة، محاطة بعدة زوارق. ورجال ينشدون وهم يجذفون باتجاهنا. وامام العروس أكداس الأفرشة والبسط والوسائد وأثاث أخرى، سبق أن قدمها وادي لها لأخذها معها الى بيتها الجديد. وكرئيس للعائلة، فانه مخول للصرف كثيراً أو قليلاً من المهر الذي إختاره. وكنت سعيداً لأنه بدا كريماً، فان داخل كان فقيراً بالفعل. وعندما نزلوا رميت عدة إطلاقات من بندقيتي. نزل عمارة وحسن الى الشاطئ، وبينما كانت العروس تقاد الى البيت، فجر حسن كل محتوى مخزن المسدس الثلاث عشر إطلاقة. واطلق عمارة النار من البندقية بأقصى ما بأمكانه من إعادة ملئها. نزل الكل الى الشاطئ عابرين من زورق الى آخر ليصلوا للفسحة أمام البيت. إرتجل عجرم مقطعاً من الشعر وأعاد إنشاده مرتين، ثم تلقاها الحشد وأعادوا ترديدها وهم يدبكون الأرض حولنا، هازين البنادق والمجاذيف والخناجر فوق رؤوسهم. وبفترات أطلقنا عيارات نارية في الهواء لتشجيعهم. وأستمروا هكذا حتى هبطت الشمس للمغيب، فعادوا لبيوتهم للطعام. بعدئذ تجمعنا كلنا ثانية عند بيت داخل وغنى حلو وآخرون ورقص صبيان آخران وقام داخل بتقديم السكائر والشاي لنا.

عند منتصف الليل تقريباً، إقترحت على عمارة إن داخل ربما يسعده ان تنتهي الحفلة ويذهب الى عروسه، إلا أن عمارة أجابني " هذا صحيح، سنذهب عندما يتهيأ ". بعد ذلك إستعار داخل بندقية وخرطوشة واحدة وإختفى. استمرت الحفلة. وفجأة وبدون توقع مني، سمعت أطلاقة من الطرف الآخر من الغرفة، الا أن الاخرين الذين بدا واضحا أنهم كانوا بانتظارها، ابتسموا. كانت إشارة الى ان داخل أستكمل ليلة عرسه ودخل بزوجته. ثم ظهر ثانية بعد فترة وجيزة وقد بدا شعره مشعثاً ورداءه قد مزق وفقد عقال رأسه. سأله ياسين ان كانت العروس قد أثبتت جدارتها له فأجاب بغضب مفتعل " ألم تسمع الأطلاقه ؟ "

في الصباح التالي زرت داخل وأخذني إلى داخل الشبكة الحمراء التي نصبها والتي، حسب العادات القبلية، على زوجته أن تحجر فيها لسبعة أيام تالية. وجلست جنبها على كومة الأفرشة التي جلبتها معها. ولأنها تشبه أخيها في المظهر، فقد كانت فتاة ممتلئة ذات وجه مريح في السادسة عشر من عمرها، وعلى أقل درجة من الخجل. ثم بللت ملابسي من قنينة ذات عطر قوي، واطعمتني حلويات لزجة، بينما عمل لي داخل شاياً. وحالما انتهت أيام شهر العسل السبعة هذه، حتى بنى له بيتاً في القرية، واستكنا إليه. وكانت له نعم الزوجة، هادئة الطبع، مجدة في العمل، وإقتصادية. وخلال سنة ولدت له بنتاً، وفي السنة التالية صبياً. وكلما زرته، إعتاد ان يقدمهم لي بفخر عظيم، ويعطيني أحدهم لحمله، إلا أنني لاأهتم للأطفال.

عند عودتنا للرفيعة، توقفنا في قرية كبيرة للمعدان على لسان نهر العدل. وقبل يومين كان أب قد ترك إبنه الصغير عند جدته العجوز العمياء وذهب للدكان. وعندما عاد وجد أن طفله قد سقط في الماء وغرق. كانت طقوس العزاء مستمرة في بيته المجاور للبيت الذي كنا فيه. والزوارق تذهب وتجئ بسرعة، مليئة بالرجال والنساء، كل على حده، وليس سوية ابداً. العويل يرتفع وينخفض. توقف شابان للحديث معنا، كنا قد اصطدنا الخنازير سوية في الماضي، وضلا يحادثانا، ثم قال أحدهم للأخر " هيا علينا الذهاب الى هناك ". نهضا وودعانا، وبدون مقدمات بدءا العويل بصوت عالي وباستمرار كما لو عرفا بالمصاب لتوهما. ذكرني ذلك بمناسبة بين الفرطوس عندما أخذني فالح وداود وخيال للصيد في الأهوار مسافة عن قرية جاسم. إلتقينا زورقا من الكبيبة، وسمعنا منهم أن صبياً من أصدقائهم قد مات ذلك الصباح، واذا بالثلاثة ينهمكون ببكاء هيستيري حتى قال فالح فجأة " هذا يكفي " فتوقف العويل فجأة، وحملوا مجاذيفهم.

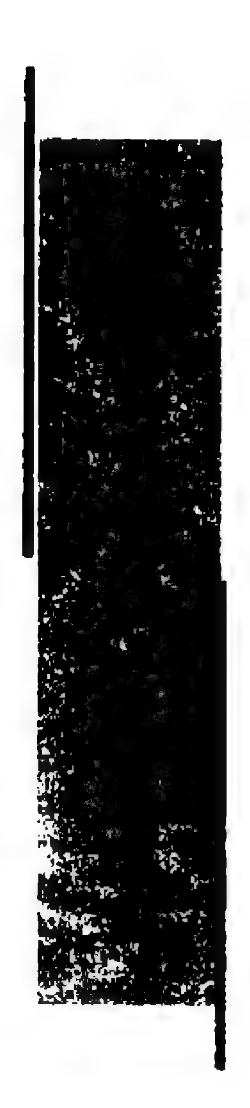
عرفنا والد الطفل وذهبنا لتعزيته. كانت (الفاتحة)، وهو ما يطلق على العزاء، لكل من الجنسين على حده، وتستمر لسبعة أيام، يعاود أهل القرية المجئ لها لتناول طعام الغداء المحتوي على اللحم. ويشرب الناس من أهل القرية في الفاتحة القهوة، لكنهم لايشربون الشاي او السيكاير، بل تترك للضيوف. واقترح علي

عمارة أن أقول (الفاتحة) لكني رفضت طالباً منه أن يقولها بدلاً عني. ان من الصعب معرفة أي شعيرة دينية يمكن لغير المسلم أن يقوم بها، وأيها لايمكنه. فكثيراً منها تستعمل بالحديث يومياً مثل (الحمدلله)، (بسم الله)، (الله يحفظك)، واكثرها جميعاً (ان شاء الله). ولايمكن لأحد ان يتكلم العربية دون إستعمال تلك العبارات. وهناك أخرى من الأفضل تركها للمسلمين فقط، مثلاً عند ذكر أسم النبي يضيفون " عليه الصلاة والسلام " وكنت دائما أشير إليه بـ" نبيكم ". وخلال العشرة أيام الاولى من شهر محرم، عندما يحتفل الشيعة بعزاء مقتل الحسين بحماس عاطفي شديد، كنت أجد نفسي دائماً في أحد المضايف للأستماع الى (قراءة) بعد العشاء. وبالطبع أتصرف مثلهم، أنهض عنما ينهضون، وألتفت الى اليمين واليسار كما يفعلون.

كانت الغرفة مزدحمة عندما ذهبنا إليها. حيينا الأب، وهو رجل كبير معوق الساق نتيجة لجرح رصاصة، ودعاني للجلوس قربه، بينما كانت القهوة تقدم لنا، وكذلك الشاي والسيكاير. قبل إثني عشر سنة، كان قد نال سمعة من معركة بين مجيد وأخيه بالرضاعة الحاج سليمان. ولم اعرف ابداً السبب الحقيقي لهذا القتال، ولكني علمت أن إبنة الحاج سليمان قتلت عندما كانت زوجة لمجيد. وبعد سنوات قتل خريبط أيضاً إبن مجيد الكبير. وقد قيل أن ذلك كان جزءاً من نفس الثأر. وفي المعركة ذاتها، قام رجال عشيرة مجيد بالهجوم عبر حقول الرز، فاستولوا على قرية الحاج سليمان وأحرقوها. وقد قتل وجرح مائة وأربعون رجل في يوم القتال ذلك قبل وصول (سيد) فرض صلحاً. وقد عجز والد الطفل الميت عن حمل راية العشيرة حتى الى جدران القلعة التي فشلوا في الأستيلاء عليها.

جلسنا عنده لنصف ساعة، ثم وكزت عمارة، فصاح " الفاتحة " وبعد تلاوتها همساً غادرنا. ولما كانت العادة أن نتبرع مشاركين بكلف العزاء فقد أعطيته نصف دينار عندما وصلنا الى الباب.

الفيضان



الفصل الحادي والعشرون

الفيضـــــان

كان شتاء 1953 - 1954 قاسياً بشكل إستثنائي. فبالرغم من أن الثلوج العميقة لجبال فارس وتركيا لم تبدأ بعد بالذوبان، كان دجلة فائضاً نتيجة لامطار الشتاء الكثيفة. عندما عدت الى العراق في منتصف شباط، إلتقيت بعمارة وسبيتي في البصرة، وبعد بضعة أيام من شراء الأدوية والخراطيش والملابس، عدنا الى قريتهم. وفي الطريق قضينا ليله عند عبد الواحد، إبن فالح، وهو شاب بليد، يبدو كما لو لم يكن لديه ما يقوله دوماً. وكان تحت سيطرة أمه البخيلة التي تتدخل في كل شئ.وكان أتباع فالح على إستعداد للبقاء تحت إمرته، إلا أن أمه تخلصت منهم توفيراً لأجورهم. وكان داير قد تركهم، وقال لي عبد الرضا انه هو الأخر يرغب في الذهاب، وأن قلة من الناس تأتي للمضيف هذه الأيام، وتجلس أكثر الأوقات بصمت ممل.

كنا قد تركنا طرادتنا هنا، ووجدنا أن بها تسرياً، فقلبناها على ظهرها وأغلقنا الشقوق بحميها بلهيب نار القصب، إلا أنها كانت بحاجة الى إعادة تزفيت، لذا قررنا عبور الأهوار الى مدينة الهوير وعمل ذلك عند الحاج حميد نفسه. كان التيار شديداً جداً ومستوى الماء مع حافة السداد مهدداً بعضها بالأرتفاع عليه والانسياب نحو حقول الحنطة والشعير، التي تكون هنا، كما في كل مكان، أوطأ مستوى. مررنا بعدة جماعات من الرجال تقوم بتقوية السداد قبل أن نصل الرفيعة، حيث اسكن عند عمارة. وكان قد أعاد بناء بيته فصار رحباً ومبنياً جيداً. وشاهدت بساطاً جديداً وعدة وسائد جديدة. كان محصول رشك من الرز جيداً، والجواميس ولدت وأصبح الان هناك حليب كثير. كنت حبوراً لعودتي، ويبدو أن الآخرين كانوا كذلك للقائي بهم.وقد قام كل الأطفال بالقرية بمرافقتي من مكان هبوطي حتى مسكن ثكب عندها طلب الكبار من عمارة " طرد هؤلاء

الفروخ للخارج حتى نتمكن من مشاهدة ضيفنا " وهو أمر سهل المطلب صعب التحقيق. وصرخ طفل في السابعة من عمره بجسارة " دعونا. أنه صديقنا وليس صديقكم " . لم أكن قد شاهدت رجلاً يضرب طفلاً أو يؤذيه، ولكن قد يتعارك الأطفال فيما بينهم. ناشد رشك الصبيان للأمساك ببعض الدجاج، وهذا أمر لايجد معارضه من الأطفال. فاندفعوا بالمطاردة كمجموعة من الجراد. كانت الدجاجات تعود (لمطارة) أخت عمارة، وكانت لي حصة منها كلما جئت للبقاء فترة. وكانت أحياناً تبيع بعضاً منها لبائع يقوم بالتجوال حول القرى.

كنت قد إشتريت من البصرة لمطارة رداءً حريرياً أخضر اللون، إختاره لها عمارة، لذا فقد شعرت هذه المرة بعذاب ضمير أقل لدجاجاتها. كانت بنتاً خجولة، هادئة، رشيقة القوام، حلوة المعشر، ذات وجه جميل. وسألت مرة عمارة : لو أن أحد الشيوخ طلب الزواج منها، ماذا سيفعل هو وثكب، فقال أنهما سيرفضان " واذا تزوجها أحد الشيوخ فليس لي القوة لحمايتها " وبامكان الشيخ أن يتزوج اي امرأه يريدها، ولكن ليس بأمكان إبنته الزواج إلا من شيخ. وينطبق هذا على السيد ايضاً.

يحق للمسلم الزواج من أربع، ولكن في قرية الرفيعة لايوجد أكثر من ثلاثه لديهم زوجتان، وليس هناك من له أكثر. وكذلك في كباب، فأن صدام، واثنين آخرين فقط لديهم زوجتان.

كنت قد إفترضت ان نسبة عالية من الأطفال تموت خلال فترة الرضاعة، وفي إحدى قرى الفرطوس التي زرتها مات خمسة أطفال من السعال الديكي خلال اسبوع واحد فقط. ولكن نسبة وفيات الرضع في الحقيقة منخفضة نسبياً، ومن أطفال ثكب التسعة مات واحد فقط، ولسبيتي سبعة أخوان واخوات كلهم بصحة جيدة. ولعشرة عوائل في كباب إخترتها عشوائياً يوجد ثمانون طفلاً ومن مات منهم تحت سن الخامسة عشر كان فقط ثلاثة عشر طفلاً. وأتساءل كيف يمكن مقارنة هذا مع بريطانيا الفكتورية؟

بقينا في الرفيعة يوماً اخراً قبل أن نذهب الى بومجيفات. أمطرت السماء ليلاً، وفي الصباح كانت معتمة وملبدة بالغيوم وتنذر بالخطر. وحالما لاح لنا بيت حسن حتى عادت الامطار ثانية واستمر ت طول اليوم. ونقعنا بالماء قبل أن نتمكن من نقل حاجياتنا لداخل المنزل الذي كان مبنياً بشكل جيد بعدة طبقات من الحصران لسقفه. كان حسن بالخارج للصيد، لكن عفرة، أمه، رحبت بنا واشعلت لنا ناراً لتجفيف الملابس. وهي أمرأة كبيره، بعيون عسلية تبتعدان عن بعضهما، بوجه مربع الشكل. كانت ذات سطوة في القريه، نذرت نفسها لولدها، وقد جاءت من عائلة مشهورة من بيت مكنزي. وعندما سمعت الأسم لاول مرة توقعت أن ألتقي بسلالة من قبيلة إسكوتلندية ترتدي التارتان ذي الخطوط المقلمة، ولكن في الحقيقة فان بيت مكنزي هم من الفريجات ذوي أصل لا يرقى له شك. وقد سمى جد عفرة إبنه مكنزي مجاملة لضابط اسكوتلندي كان قد إلتقاه وأعجب به في الحرب العالمية الاولى*.

دخل حسن منقوعاً بالماء حتى الجلد، وزورقه قد مليء لنصفه بماء المطر. جلب معه أربعة من طيور البط إصطادها برمية واحدة. قال أن الطيور كانت وحشية جداً ولم يتمكن من الأقتراب منها إلا بمسك حزمة من القصب أمامه والخوض حتى الرقبة. عاد ياسين بعد فترة وجيزه من مناطق القصب، وكان كلاهما، هو وحسن، تواقين لمرافقتي مرة ثانية. وبعد ان رقعنا ثقوب الطرادة في الهوير، قررنا عبور دجلة عند القرنة والترحال خلال جزء من الأهوار الشرقية التي لم يكن أحدنا قد شاهدها بعد. نصحنا صحين " لاتقربوا من زجري في مثل هذا الطقس. إذهبوا جنوباً الى الفرات عن طريق قرية البوبخيت، وحاولوا الحصول على مساعدة طاهر بن عبيد كمرشد لكم، فهو يعيش على التهريب ويعرف كل الممرات المائية في الأهوار الشرقية " وقال ياسين " نعم لقد التقيت به السنة الماضية في العزير. إذا كان معنا فبأمكاننا الذهاب الى أي مكان " تناولنا الغداء في (دوب) في اليوم التالي مع

---

* وهي ظاهرة منتشرة كثيراً في جنوب العراق ووسطه، فتجد العديد من اسماء اجنبية كمسبكتر ودكسن وصوجر .. الخ - المترجم

الرجل الذي هاجمه كلبه قبل ثلاث سنوات. ولم يستمع الأب ولا إبنه لطلبنا السفر بعد الظهر وأبقونا عندهم الليل.

قبل أيام سرق اللصوص جواميس من القرية خلال الليل، وقامت الكلاب بالتحذير، فطورد اللصوص وأطلقوا عدة إطلاقات أصابت صبياً في صدره وقتلته قبل فرارهم. كنت أعرف الصبي المقتول فذهبت للفاتحة. كان صحين قد تحدث عن الواقعة في بومجيفات، وشك أن اللصوص من الفريجات - العويسج، والان سمعنا انهم من السواعد، فقد تم التعرف عليهم من أصواتهم، فبأمكان رجل الأهوار التعرف على عشيرة الغريب من لفظه.

وعندما وصلنا في المساء التالي كان طاهر في البيت، وهو في الثلاثين من عمره، ذو بنية قوية، ويميز وجهه نمو في حجم الجوزة فوق عينه اليمنى. وافق على مرافقتنا حالما إقترحت ذلك. كان اكبر اولاد طاهر قد مات حديثاً وبقي له صبيان صغيران. ساعده بالترحيب بنا إبن أخيه، صبي نشط في الثانية عشر يسكن البيت المجاور، أبوه هو الأخ الأصغر لطاهر، ويشبهه مظهرياً ويعيش أيضاً على التهريب. كنت أعجب كيف ان الأنباء تسري عندما أصل الى قرية، وكان علي البقاء يوماً اخراً مع طاهر حيث أن عدد مراجعيني اكثر من المعتاد. بعضهم جاء من أماكن بعيدة. أحدهم كان صبياً غير محظوظ فقد خلق وعضوه الذكري تحت كيس الصفن.

خلال طريقنا الى الهوير، حدثنا طاهر أن آخر مغامراته لم تكن ناجحه، فقد قبض عليه البوليس الأيراني وصادر ما لديه من سكر وشاي وحققوا معه عن إختفاء شرطيين قبل عدة أشهر. وبعد أن جلدوه بالعصي، أطلقوا سراحه بعد يومين، وحذروه بأنهم سيرمونه اذا قبضوا عليه ثانية. وإبتسم طاهر قائلاً " كان بامكاني ارشادهم الى حيث إختفى الشرطيان. كنت قد دفعتهما تحت جزيرة طافية في الهور. لقد فاجأنا ونحن نهرب بحمل من الحبوب وطاردانا في الظلام. إثنان منا كمنا لهما خلفنا. نال كل منا مائة دينار ثمناً لبنادقهما. وحالياً انا أبتعد عن ايران. "

الهوير تقع على جدول بمسافة قصيرة شمال الفرات. وتنتصب الدور وعدة مضائف تحت النخيل على جزيرة من أرض مرتفعة محاطة بالهور. توقفنا عند الحاج حميد نفسه في مضيفه الصغير المجاور لساحة الزوارق العائدة له. وهو رجل بمنتصف العمر ذو طاقة نشطة. سرعان ما أجلس صبياناً لتعرية وتقشير الطرادة بينما أخذني في جولة بالقرية. يبدو أن لكل فرد في القرية علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع صناعة الزوارق. ألواح الخشب الكبيرة والصغيرة واعمدة الخيزران، مكدسة في ساحات خلف الدكاكين التي فيها يبيع التجار مستلزمات العمل من أدوات وعلب المسامير ومايلحقها. وتحت أشجار النخيل يعمل الرجال بوضع اللمسات النهائية لزورق كبير ذو ساريتين قبل دحرجته للماء. أغلب صناع الزوارق يعملون بساحاتهم الخاصة خلف أسيجة من القصب، يقشرون ويعيدون طلاء الزوارق الصغيرة والمشاحيف، ويرممون الهياكل المكسورة، أويبنون أخرى جديدة، راقبت رجلاً كهلاً بدأ بصنع زورق. حدد القعر بشرائح عرضية من الخشب تبعد الواحدة عن الأخرى بوصة تقريباً، ثم ثبت بالمسامير لوحاً طويلاً في الوسط. وبينما كنا نشرب الشاي، كان قد شكل الأضلاع بإختيار القطع الخشبية الملائمة من كومة خلفه. إستعمل فاساً وادوات بسيطة، منشار صغير ومثقاب ذو قوس، وهو قابع على الحصيرة ومعه حفنة من المسامير. إنساقت إلينا رائحة القير من الساحة المجاورة، وأشعة ضوء الشمس تجتاز أشجار النخيل فوقنا، وغرابان منقطان جلسا على الاغصان يراقبان كل حركة منا.

أخيراً قال الحاج حميد " من الاحسن أن نعود فلا بد أنهم انهوا تقشير طرادتك. وبعد الغداء سأضع طلاء جديداً عليها. أبق الليلة هنا وفي الصباح ستكون صلبة بشكل صحيح ". وصنع لنا مجاذيف جديدة، صبغنا انصالها باللون الأحمر، وبهذا ستكون أقل عرضة للسرقة، لان الكل يكون سعيداً اذا نال مجذافاً من صنع الحاج حميد. ومنذ ذلك الوقت صارت المجاذيف الحمراء الشارة المميزة لنا. وقد بدت حسنة، كما قلت لنفسي، وهي تغطس سوية في الماء. ونحن ننساب مع التيار صباح اليوم التالي مارين بضفاف تصطف عليها أشجار النخيل. أخذ طاهر مكان حسن

في الوسط، وحل حسن محل عمارة الذي جلس قبالتي كمسافر. مررنا بزورق أو زورقين بخاريين قبل أن نصل القرنة. وكان جسر العوامات على الفرات حيث يتصل بدجلة، مفتوحاً، ومنسوب دجله يجري عالياً. تناولنا الغداء في مضيف على الجهة البعيدة. كان التاريخ 4 آذار. وبقينا في الجهة الشرقية للنهر للاسابيع الخمسة التالية. زرنا في البداية قبائل لم أكن قد إلتقيتها سابقاً مثل الدخينات و الهليجية التي اشتق إسمها من (طير الفاق). بعد ذلك عدنا الى أصدقائنا القدامى، البو محمد، الفريجات والسواعد. كانت السماء تمطر باستمرار ليلاً، بمواصف رعدية تكتسح الأهوار. قليل من البيوت التي نمنا فيها كانت ذات سقوف اكثر من طبقتين من الحصران، ولكن الاكثر كانت ذات طبقة واحدة. وكان صاحب البيت يضيف طبقة اخرى من حصران الأرضية، ولكن هذا كان نادراً ما يقي من مياه الامطار، ويتركنا ننام على الأرض. كان الجو بارداً أيضاً، وننمنا بأزواج لنتشارك البطانيات. وطول الوقت كان الطوفان يرتفع.

في عصر أحد الايام، كنا نصطاد خارجاً عندما تكاثفت غيوم سوداء بسرعة تنذر بعاصفة مروعة. قال ياسين بقلق " ربي، آمل أن لايكون هناك حالوب " وردد الآخرون دعاءه. وضربت العاصفة. وقبل أن نصل لاقينا المشاق كي نبقى طافين. كان رفاقي خائفين من الحالوب لسبب وجيه، ففي السنة التالية ضربت عاصفة حالوب منطقة كبيرة من النصف الشمالي للاهوار، محطمة حتى القصب الكبير، قاتلة لا يحصى من طيور البجع والوز وغيرها. إنتشرت جيفها في كل مكان. كما قتلت عدداً من عجول الجاموس، بل وسحقت رجلاً وابنه حتى الموت في ديمة.

" بهذا المستوى العالي من المياه سنقتل العديد من الخنازير هذا العام " قال ذلك عمارة، وبالفعل هذا ما قمنا به. فقبل أن نعبر دجلة ثانية، كنت قد أصبت مائتين وخمسة خنازير. كان ذلك دائماً عملاً مثيراً، واحياناً خطراً. ولكني لم أصطادهم لمجرد الرياضة. لقد كانوا الاعداء الطبيعيين لرجل الهور. وكان علي ان ألتقي بالعديد من الرجال الذين تعرضوا لهجوم الخنازير ليستأثروا بشعوري كي أقتلها

دون الشعور بوخز الضمير. ومع ذلك كنت أكره ان أجد أنهم قد أبيدوا هنا، كما حدث للأسد سابقاً. كانت أشكالهم الداكنة الكثيفة، وهم يأكلون على حافة مناطق القصب عند المساء، جزءاً متمماً لمنظر الهور عندي. إن مجرد عدم وجود الخطر الدائم لمصادفتهم، يجعل الحياة هنا تفتقد الكثير من إثارتها.

قد يكون الخنزير جسوراً بشكل مدهش. ومرة في منطقة الأمارة، أكد لي القريون أن الخنازير قد عادت للقرية مع الجواميس، وقضت الليل في البيوت الفارغة. وتأكد لي ذلك عندما شاهدت أثنين منها تتجولان في الماء الضحل بأتجاه القرية عند المغيب. طاردناها وقتلناها. عندما عدنا وقت الظلام، قالت عائلة تجلس خارج بيتها قرب النار، عرضاً، مشيرة الى البيت المجاور الذي لايبعد إلا بضعة ياردات " يوجد هناك بعضها في الداخل " واعتقدت أنهم لابد يمزحون. ومع ذلك نزلنا الى دبن، وكنا على وشك أن نهاجم من خمسة خنازير، خرجت وغطست في الماء.

إستدرنا شمالاً في الطرادة، وأرشدنا طاهر الى عويسج، الحافة الطويلة لأرض مرتفعة قليلاً ممتدة بموازاة مجرى دجلة. وبسبب الفيضان العالي بشكل غير إعتيادي، كان أكثر أجزاءها مغموراً بالماء الآن، وعدد كبير من الخنازير تضطجع نهاراً. كان بامكان رفاقي سحب الطرادة بسهولة خلال الوحل لاي إتجاه ونحن نصيد. وبعد ظهر أحد الايام قتلت عشرة كانت تتجول أمامنا في رتل واحد. كنت أصوب جيداً بشكل إستثنائي ذلك اليوم. وكان الأكثر قرباً يتساقط في كل مرة بإطلاقة واحدة. ثم وجدنا أربعة أخرى، وعندما قتلت واحداً منها، إحتشد الثلاثة الاخرون حوله وهي ترفس بتشنج على الأرض. ولسبب غريب بقيت كذلك حتى قتلتها هي أيضاً.

والاثنتين الأخريتين اللتين شاهدناهما كانتا خنزيرتين كبيرتين ظلتا تراقباننا عن بعد مئتي ياردة. ادار طاهر والآخرون الزورق الى الجانب ووقفوا خلفه. اطلقت النار وأنا جالس في الزورق، فاصبت الكبيرة، استدارت وجرت لحوالي عشرين ياردة ثم إنحرفت مباشرة، وبجنبها الاخرى. اطلقت ثانية وسمعت ضربة الاطلاقة، إلا أنها لم تتداع، فاطلقت اخرى، ولكنها استمرت نحونا. وفي الواقع أصبحت

قريبة جداً. رميت هذه المرة خمس إطلاقات، احداها أخطأت. هربتُ واستدرتُ لمواجهة الخنزيرة الاخرى التي ستكون بلا ريب فوقي بعد وثبتين فقط. رميت آخر إطلاقة، فسقطت منزلقة نحو الزورق. أعدت تعبئة البندقية، ولكن لم تتحرك أي منها. إنحنيت ولمست القريبة مني، كانت الأخرى تبعد حوالي قدم. كنت مشغولاً جداً عن الشعور بالخوف، ولكن الهجوم المزدوج وما بدا من عدم فعالية رميي، لابد وانه قد حذر رفاقي الخمسة غير المسلحين، فالمسدس والبندقية كانتا في الزورق خلفي. عدت لاجدهم رابضين وخناجرهم في أيديهم. سألت: " ماذا كنتم ستفعلون لو كانت قد دخلت الزورق ؟ " أجاب عمارة " كنا سنقفز عليها ونقتلها بخناجرنا "

في اليوم التالي طاردنا خنزيراً كبيراً آخراً خلال مياه عمقها قدم ونصف. كان يبعد أمامنا أربعين ياردة، وتمكنا منه عندما إنطلق مهاجماً بسرعة شديدة خلال الماء بسحابة من الرذاذ. وفشلت في ايقافه وانا في الطرادة المتحركة. وكان على الجانب قبل أن أتمكن من الرمي ثانية. كان طاهر قد إستعار فالة سمك ذلك الصباح، والآن وجهها مباشرة الى وجه الخنزير. ومن زاوية عيني شاهدته وهو يدفع طرف عمودها مباشرة خارج الزورق. رميت ثانية، فأنهار الخنزير هذا المرة مصطدماً بجانب الطرادة خلال الماء. نهض طاهر مدمدماً وقد غطاه الطين من الرأس حتى القدم. علق عمارة " شبر آخر وكان من الممكن أن يشطر طرادتنا الى نصفين، كتلك التي شاهدناها ذلك اليوم وقد حطمها الخنزير "

كان لهذا الخنزير، وهو الاكبر من كل مارميت، شعر ملبد بني اللون. كان كساء البعض اسوداً في الغالب، وبعضه محمر، بينما لاحظنا مرة مجموعة ذات لون فاتح حتى ظننا لحظة أنها قطيع خرفان. ومع ذلك فلأكثرها قليل من شعر خشن على جلودها العارية. تولد الصغار بين آذار ومايس، وعادة خمسة في البطن الواحدة، ولها كساء مخطط ناعم. وتكون بهائم صغيرة جذابة. وقد وجدت، عند رمي الخنزير، ان لافائدة من البحث عنه باتجاه الريح بصورة عامة. ولديهم قوة إبصار شديدة، ولكن يبدو ان لديهم صعوبة بالسمع عند النوم. فمرة، ونحن نصطادها راكبين الجياد، في منطقة شجيرات، صاح علي بعض الفرسان من بني لام للذهاب

عندهم حيث ان خنزيراً كبيراً يغط نوماً في دغل يبعد حوالي ياردة واحدة فقط عن مجموعة من الخيول تكاد تطأه. يؤكد المعدان ان الخنزير يأكل الجيفة. وفي العويسج، شاهدت بالتأكيد جثثاً ملتهمةً جزئياً لخنازير كنتُ قد قتلتها قبل ذلك. ولكن كان من الممكن طبعاً أن تكون قد أكلتها بنات آوى الموجودة بكثرة هناك. كنت أخشى ان تكون كل بنات آوى قد غرقت تلك السنة، لأنه لم يبق إلا القليل من الأرض غير مغمورة والفيضان كان مستمراً بالارتفاع لشهرين آخرين على الأقل.

غالباً ماكنا ننام في قرى صغيرة حيث البيوت تحفظ عن وصول الماء إليها بجدار هزيل من الطين، سرعان ما يزول، متوقعاً دائماً إنهياره ونحن نيام، فيدخل الماء لعمق قدمين عمقاً. وخلال الليالي كانت عواصف هوجاء ورعد وبرق، وسرعان ماننقع بمياه المطر المتساقط علينا متسرباً من شقوق السقوف. وكنا نجف بسرعة في الصباحات الحسنة، وإلا فكنا نرتجف وندعو للبؤس، مستمرين في طريقنا لعبور أمتداد من الطين والماء تحت سماء مكفهرة.

غرقت القرى في بداية نهر الكحلاء عندما وصلنا الى هناك. وفي إحداها إنزاح الجدار الطيني المحيط بها خلال الليل. وأخذت العوائل تلتمس طريقها في الماء لجلب ممتلكاتها. وعلى طول الكحلاء، هشم النهر ضفافه، وإنسابت المياه الى حقول الحنطة والشعير غير المحصودة بعد. وأخيراً عندما عبرنا دجلة ثانية، لم نكن بحاجة للبحث عن جسر للمرور تحت الطريق البري الرئيسي، لأن مستوى الفيضان قد وصل لقمم السدود المقامة. وكنا نرش الماء على الطريق الترابي ونزلق الطرادة فوقه.

هنا ألح طاهر أن يتركنا لمساعدة عائلته قائلاً " هذا العام سيكون الماء عميقاً جداً للجواميس لأكل غذاءها في الهور. علينا ان نقطع الحشيش الكافي لها " وكان قد أصبح واحداً منا، يرشدنا عمقاً في مناطق القصب الواسعة حول الحدود الفارسية، بطرق لايعرفها إلا القلة. كان مزاجه جيداً ومطيعاً دائماً حتى في اكثر الظروف صعوبة. ويقتسم العمل بالتساوي مع رفاقي الذين كانوا أحداثاً ويممر أولاده. وعدنا بالعودة الينا ثانية. إلا أنني عندما سألت عنه في السنة التالية، أجاب

رجل بدهشة " ألم تسمع أن طاهر توفي ؟ قتله أبن أخيه الصغير في الشهر الماضي ". كان واضحاً أن طاهر وأخيه قد فقدا مزاجهما معاً لسبب تافه، فانفجرا. ونفس الطفل ذو الاثني عشر الذي شاهدناه السنة الماضية يندفع لمساعدة أبيه، إستولى على فالة ليغرسها في ظهر عمه. نصل شوكة إخترق كليتيه ومات بألم مبرح بعد ساعات قليلة. أخبرني الرجل " لقد جن اخوه من الأسى. ولعن إبنه. وكان الطفل يحب طاهر كأب له. في الحقيقة كانت مأساة ".

في الأهوار، تلك الايام، كنا بانقطاع تام عن باقي العالم، وليس لدينا أي فكرة عن الكارثة التي حلت بالعراق حينها. فمساحات واسعة قد غرقت بالفيضان، وبغداد ذاتها في خطر شديد*، ولكن الفيضان لم يكن بعد قد سد الطريق الى البصرة عندما ذهبنا بسفرة سريعة في نيسان، فقد إستأجرنا سيارة، تاركين الطرادة في العزير.

قبل مجيئ الى العراق كنت قد إشتريت بندقية نوع 0 275. مستعملة من محلات ركبي. دون رغبة في أخذ واحدة منها كانوا قد صنعوها خصيصاً لي قبل الحرب. ومع ذلك جلبت عام 1954 الجيدة معي تاركاً الاخرى في البصرة. والان قدمتها هدية لعمارة وإشتريت لسبيتي وياسين وحسن بندقية صيد لكل منهم. وبعد شهرين عندما زرنا البصرة ثانية، دفعنا طرادتنا تحت الطريق الرئيسي حتى القرنة، حيث إستأجرنا زورقاً بخارياً ليأخذنا نزولاً في النهر الى البصرة.

حتى عند عودتنا إلى كباب في نيسان وجدنا ان الماء لايزال مرتفعاً قدماً واحداً فقط عند مدخل مضيف صدام، وكان أخفض من ذلك بستة اقدام عند اول مناسبة شاهدته في عام جفاف إستثنائي، وبعد ذلك اضطر مباشرة الى أحاطة البناية بجدار. كان الارتفاع غير الاعتيادي لمنسوب المياه مزعجاً للمعدان، لكن الحياة عندهم

---

* توفي ببغداد حينها جدي لابي، وكنا في قلعة صالح، وتطلب الامر أربعة أيام للوصول الى بغداد. فالى العزير بالسيارة ومنها الى القرنة بجنيبه مائية ثم الى البصرة بزورق بخاري ومن هناك وليومين بالقطار البطئ الى بغداد التي ارتفع منسوب دجلة فيها اكثر من تسعة امتار - المترجم

إستمرت بصورة اعتيادية. ولم تقم العوائل بأكثر من تكديس القصب أكثر فأكثر على أرضيات بيوتهم ليبقوا جافين. ومن كباب بدأنا رحلتنا لزيارة عشائر المنتفك على طول نهر الفرات الأسفل، ثم للترحال شمالاً مع نهر الفرات. توقفنا يومين عند جاسم الفارس. وفي مثل هذا الوقت من السنة تكون المنطقة غرب قرى الفرطوس في فيضان دائماً، وفي الحقيقة كنا على وشك الغرق في السنة الماضية ونحن نعبر من العويدية الى الحمار. أصر جاسم أن يرسل معنا إبنه فالح وأثنين من الفرطوس في بلم. تركنا قريته في العويدية في 29 نيسان. هبت ريح شمالية غربية وانفتح امامنا بحر من المياه. إنتقلت وعمارة وسبيتي مع متاعنا الى البلم تاركين ياسين وحسن ليسوسا الطرادة، وهي خفيفة الحمل، راكبين الامواج بعظمة، هابطين فيما بينها، وصاعدين ثانية.

كان الفيضان قد وصل الى أعلى بكثير من أي مستوى له في السنين الاعتيادية، وسيستمر بالارتفاع لشهر آخر على الاقل. ولكني لم أتحقق الواقع الخطر الذي كان إلا عندما شاهدت أكثر قرى الحمار وقد غطست في المياه. وكان بامكاننا الانتقال الى أي مكان نريده، دافعين طرادتنا والبلم الكبير، قاطعين حقول الذرة غير المحصودة، بين جذوع النخيل الذي لايحصى. قرى بكاملها قد دمرت، ونحن نمر بها، والكلاب الضالة تنبح بيأس من على سطوح الاسقف. ورأينا بقرة خاوية البطن في الماء على قمة سداد كانت قد أكلت كل سعفة نخل طالتها. ولكن بعض المضايف والدور التي على أراضي مرتفعة او حيثما تكون السداد لازالت متماسكة، وجدناها مأهولة. وكلما تبادلنا التحيات مع قاطنيها، صاحوا علينا للتوقف عندهم، واذا فعلنا، هيأوا القهوة والشاي، وذبحوا الدجاج لغدائنا، ثم يجلسون ويحادثوننا كما لو أن الأمور طبيعية. بعضهم كنت قد إلتقيتهم بزياراتي السابقة. كلهم سمعوا بالانكليزي الذي يعيش بين المعدان. ولكن حتى لو لم أكن معروفاً عندهم، فأنهم يرحبون بنا بنفس المقدار، لاننا ضيوف بكل الاحوال.

لغرض العودة للناصرية، دخلنا المجرى الرئيسي للفرات، وأنجرفنا مع التيار المتدفق. وفي مكان كانت بقايا سد قد كونت حاجزاً، إندفع فوقه سيل ينصب بدوامة فظيعة. كانت صناديقي الثقيلة لازالت محمولة في البلم، اما الطرادة فجثمت بخفة فوق سطح الماء، ومع هذا فقد فكرت للحظة اننا سنتضايق، إلا أن ياسين كان يعرف بالضبط ما يفعله، وساقنا برشاقة، بينما جذف الآخرون بكل جدية. شاهدنا نصف مدينة سوق الشيوخ التي مررنا بها، تحت الماء.

بعد البقاء يومين عند الجوابر، عدنا الى الحمار، وراقبنا بعد ذلك سوق الفهود وهو يفرغ. فحالما يقفز أصحاب الحوانيت الى الزوارق، تنهار الجدران الطينية لحوانيتهم خلفهم. وتتبعنا الغراف ضد التيار لبضعة أميال من الشطرة. صدع الماء السدود في أماكن عديدة، وفي أخرى لازالت متماسكة، والرجال تعمل بدون راحة لحماية محاصيلهم. بقينا عند محسن في خيمة ضيوفه الضخمة عند ألبو صالح. وحتى في مثل هذه الضروف، إستمر فاتحاً بيته بسخاء جعله إبن بدر بحق. وبقينا مع شيوخ آخرين من المنتفك، ولكن في احيان كثيرة نقضي الليالي مع الرعاة البسطاء المزارعين، وفي خيام سود أحياناً، وفي سقائف قصب أو دور طينية صغيرة أحياناً اخرى، وكلها معزولة في البحر المحيط بها.

في العويدية ثانية، أنفصلنا عن فالح ورفيقيه، وإرتحلنا لزيارة البزون. قبل خمس سنوات كنت ودوكالد ستيوارت قد تركنا مخيمهم وركبنا الجياد لنقطع صحراء مترية للوصول الى خيم العيسى.

والان أعود إليهم قاطعاً نفس الصحراء ولكن بطرادة.

الجفاف



الفصل الثاني والعشرون

الجفـــاف

بعكس فيضان السنة الماضية كانت 1955 سنة قحط، فقليل من الثلج تساقط على الجبال في الشمال. وبحلول نيسان، نادراً ما يرتفع منسوب دجلة عن مستواه الشتوي. وظاهرة فيضان 1954 دمرت محاصيل الحنطة والشعير على الفراف والفرات وفي كل مكان. وفي الأهوار منعت القرويين من حراثة الارض الثرية بنمو الرز بين الصيكل وبداية نهر العدل. في حين ان القبائل، مثل الأزيرج، الذين تقع أراضي الرز العائدة لهم خارج الأهوار، بأمكانهم، عند هبوط المياه، أن ينثروا ويحصدوا المحاصيل الوافرة للأراضي الكبيرة غير الغارقة إعتيادياً، لكنها كانت تلك السنة مغطاة بطبقة كثيفة من الغرين. أما الآن فأن الانخفاض الاستثنائي للمياه سيمكن المعدان من تسوية وتنظيف وزرع أراضي أكثر من المعتاد، بينما الأزيرج ستحل بهم كارثة.

الازيرج هم قبيلة من مزارعي الرز يبلغ تعدادهم حوالي أربعين الف، يعيشون في الجداول السفلى لنهر البتيرة، وهو فرع من دجلة يتركه شمال العمارة بعشرة أميال، وبعد إنقسامه الى ثلاثة مجاري مهمة، يختفي في الأهوار شمال الصيكل. عبرنا منطقتهم في منتصف نيسان. قرى كبيرة تتسلسل الواحدة بعد الأخرى على الضفاف دون تعارض. والمظهر الخاص بهم هو الربعة التي على شكل حرف T، ذراع منها يستعمل لسكن العائلة، والآخر للضيوف. وحول بيوت الرؤساء، صوامع كبيرة معمولة من الحصران ومطلية بطبقة من فضلات الجواميس الجافة، تحفظ فيها حصة الشيخ من الرز للعام المنصرم. ومن عدد هذه الصوامع وحجمها بأمكاننا تقدير كم كان المحصول لذلك العام.

مع ذلك، كانت القرى شبه فارغة. وقد علمت ان أعداداً من الازيرج هاجروا في الربيع للمشاركة في حصاد الحنطة والشعير في الغراف. للوهلة الاولى أعتقدت أن أكثر من المعتاد قد ذهب الى هناك، متوقعين سنة سيئة لمحاصيل الرز عندهم. وعندما بقينا بينهم لاحظنا أن العديد من البيوت الكبيرة والمبنية بصورة جيدة، تنتصب فارغة. أصحابها غير راغبين بالعمل بالحصاد في الغراف، وهي مهنة الفقراء. وسرعان ما أكتشفت الحقيقة، وهي أن أقل من المعتاد من الأزيرج ذهب هذا العام. وتساءلت عما حدث للاخرين فاخبرونا أن أعداد كبيرة من الفقراء وغيرهم قد هاجروا الى بغداد والبصرة، وكانت هذه بداية الهجرة في منطقة العمارة، التي تماثل النزوحات البشرية على النمط القديم، تاركين قرى بكاملها، أو بعضها، وقد هجرت. شملت كل المزارعين، وليس الازيرج فقط، البو محمد، السواعد ومن بقي من السودان. ولم يتأخر بالنزوح ويشارك فيه إلا المعدان وقبائل الرعي، مثل العيسى.

عندما ذهبت للمرة الاولى الى العراق عام 1950، لم تكن حقول النفط في البصرة قد افتتحت بعد، ولكن بحلول عام 1955 كان الأنتاج كاملاً والاموال تنهمر على البلد. في بغداد محلات بكبرها قد هدت وأعيد بناؤها، وشقت الطرق الى كل مكان، وشيدت الجسور. كان الطلب على العمل غير الرسمي كبيراً جداً، وحسابات مُبالغ فيها من النقود المكتسبة تنتشر بين القبائل. ومزارعوا مقاطعة العمارة تركوا لعوائلهم عشرات الألوف. وعندما كانوا يذهبون للحصاد في الغراف سابقاً أو الى أي مكان آخر، كانوا يتحركون مع حيواناتهم وممتلكاتهم، أما الآن فقد باعوا زوارقهم وجواميسهم وحبوبهم، وفي الحقيقة كل شئ عدا ما كان بأمكانهم حمله معهم بالباص أو اللوري، فلم تكن لهم نية للعودة ثانية.

لم ينزاحوا من أرضهم برغبتهم، وبالأخص الأزيرج، الذين غادروا باعداد أكثر من أي قبيلة أخرى، وحصدوا محصولاً من الرز جيداً بشكل استثنائي في تشرين الثاني من تلك السنة. لقد واجهوا، وهو حقيقة، الفشل المحتوم بمحاصيلهم

في السنة التالية. ولكن كان لديهم الكثير للتغلب على ذلك. واؤلاءك الذين بقوا بالخلف لم يجدوا ضنف عيش حقيقي. عام 1951 كانت أيضاً سنة إنخفاض المياه، لكني لاحظت أعراضاً قليلة للعوز بين الأزيرج والبو محمد. الحقيقة ان انخفاض الماء عام 1955 أدى الى هذه الهجرة الكثيفة الى المدن، ولكنه لم يكن هو السبب الرئيسي.

خلال السنوات الاخيرة نزحت الى بغداد والبصرة اعداد صغيرة من الأزيرج والبو محمد، حيث يعيشون معاً في محلاتهم الخاصة الجديدة، ويبقون بأتصال مع اقربائهم في القرى. ودبر البعض أمره بالعمل كحراس محلات، او أبتدأوا أعمالاً صغيرة، وسارت معهم الامور بشكل جيد، وطافت أخبارهم بقصص نجاحهم. إضافة الى أنه أصبح معلوماً أن الرجل صاحب البنية الجيدة يسهل عليه إيجاد العمل في بغداد، ويكسب خمسة شلنات يومياً* ، وهذا وحده يعتبر ثروة لهؤلاء القرويين.

وسبب آخر دفعهم للنزوح، هو الأستياء الذي حصل نتيجة للتعليم، فمن بين المزارعين عدد من أكثر الشباب المغامر قد ذهب للمدرسة، وبالنتيجة تعلم كيف ينتقد قبول قيم الحياة في القرية. وامتعض من سلطان الشيخ، وأخذ يتذمر علانية من إغتصاب حقوقهم. ويحلم بالهرب الى بغداد، الى عالم ذي فرص عظيمة، ومكافأة كبيرة، ومنوعات أكثر إثارة. إحترم الأباء كتاب التعليم الذي لايعرفون عنه شيئاً. وتأثروا بأبناءهم، ولكنهم كالعادة، جامدين جداً تجاه رغبتهم للحركة. وعندما شاهد الشبيبة عام 1955 أن جزاً ضئيلاً من الأرض سيفلح، جددوا الضغط ثانية على الكبار قائلين " لماذا نبقى هنا لنبلي أنفسنا ونرهقها لنرفع إنتاج محاصيل الشيخ؟ لماذا نعمل من أجلهم أصلاً؟ نحن أحرار ولسنا عبيد، ومع ذلك يعاملوننا كالكلاب. ما هو حقهم في الأرض؟ الحكومة الحقيقية هي التي تأخذ الأرض منهم وتعطيها لنا. لن تكون زراعة هذا العام، وليس هناك ماء علي كل حال. اذا بقينا هنا سنجوع. اذا ذهبنا الى بغداد سنجد كلنا عملاً، وفي بضعة

---

* يقصد ربع دينار/ 250 فلس- المترجم

اشهر سنكون أغنياء. انظروا الى وادي: لقد ذهب قبل سنتين وليس لديه غير رداءه. الآن يمتلك سيارة وبيت. الكل ذهبوا: علي وعباس وزاير جاسب. وغانم أيضاً سيبيع جاموسه وسيرحل. هيا يا والدي، سنكون قريباً الباقين الوحيدين، وسيجعلنا الشيوخ نعمل بدل الجميع. دعنا نذهب قبل أن يرسلوا إلينا لنبني السد الكبير في ابو فحل ".

أهتم الشيوخ أنفسهم بالأمر بشكل جدي. ان هذا النزوح لرجال العشائر هدد بعدم بقاء أحد للعمل في الحقول. وسلطانهم على إولاءك الباقين ضعف، وربما إختفى. قبل رحيلهم الى بغداد، تظاهر القرويون التابعون لشيخ الأزيرج البغيض أمام مضيفه هاتفين " حمال و لا عند نكال* " اي ان أي عمل في المدينة ولا العمل من أجل الشيخ.

في كثير من الحالات كان على الشيوخ أن يلوموا أنفسهم، لأنهم كانوا متعجرفين بشكل لا يطاق. في عام 1953 قام أحد عبيد مجيد بضرب ابن كليط الشغانبة في المكر. هجم القرويون الغاضبون على العبد وكادوا أن يفتكوا به، لأن الكليط وعائلته كانوا محترمين عندهم. أرسل مجيد وكيله الذي قام بجلد بعض كبار السن من القرية، ونتيجة لذلك ترك الكثير من الشغانبة قرية المكر وذهبوا الى الصيكل. وعندما علم مجيد بذلك، أعلن أمام الملأ " هرب الكلاب. سأجد كلاباً أخرى لتعمل بدلها. " ولكن حتى تموز 1955 وجد أن الأمر ليس بهذه السهولة. وعندما سألته عما اذا بقي نصف مزارعيه، فكر قليلاً واجاب باستسلام " لا، لا أعتقد ان الباقين بهذا القدر " وسألته عما سيفعل اذا غادر الأخرون، قال أنه سيتخلى عن زراعة الرز ويركز على زراعة الحنطة والشعير باستعمال المكائن الزراعية. كانت الأرض هي التي تهمه دائماً، وليس العشيرة أبداً. وتذكرت صرخة المكروب التي صاحها في عزاء إبنه " أرضي. الان عندما أموت ماذا سيحدث لأرضي؟ " وفكرت أنها كانت سيئة منذ أن وضع أرضه قبل عشيرته أمام عينه.

---

* نكال هو أحد شيوخ الازيرج، والمعنى واضح - المترجم

عنـد البـو محمـد والازيـرج كانـت العلاقـة بـين الـشيوخ ورجـال العـشيرة قـد اختفت، وبالتالي فقد أضحى كلاهما أفقر. أما الرابطة عند قبائل الرعاة فقد كانت لاتزال متماسكة. فقد شجع مزيد، شيخ العيسى، قبيلته لسنوات، لزراعة الشعير على الأرض اليابسة، لكن الضروف لم تكن مواتية. كان هناك أحياناً ماء كثيراً جداً واحياناً قليلاً جداً. لقد كانت مغامرة قبيلة، ولكن مزيد هو من غرق للعمق في ديون الحكومة. ومع هذا، فعند ساعة الحاجة، جمعت العشيرة المبالغ من افرادها ودفعت دينه. ومرة طلب مني محسن ابن بدر من ألبو صالح في صباح يوم ان آخذه حالاً بطرادتي الى مدير الناحية، على بعد ساعتين في الغراف شمالاً. وعندما نزلنا، دخل بخطى واسعة الى الدائرة حيث كان المدير ينظر بقضية. بعد التحية قال بحدة الى الموقوف " اذهب الى الطرادة في الخارج " ثم الى المدير " هذا لا يعنيك. هذا الرجل يعود لعشيرتي، وأنا سأتصرف معه " ثم جلس للمحاورة بأدب لفترة قبل أن يطلب الأذن بالمغادرة.

بحلول ربيع عام 1956 إنتهى الفرار الجماعي الى المدن. ورغم أن العوائل إستمرت بالمغادرة الى بغداد أو البصرة، إلا أن الاخبار التي اخذت تصلهم لم تعد تدعو للحماس، وعاد قلة الى قراهم بعد أن تحرروا من الأوهام. وربع الدينار كانت تبدو أجراً مقدماً عظيماً، ولكن عندما جاءوا وجدوا أنها بالكاد تفي بالغرض لأبقاء رجل وعائلته، مهما عاشوا بكفاف. والاكثر من ذلك، فأن العمل قد يتوقف في الطقس السئ لاسبوع أو أكثر. وعندئذ ليس هناك أجوراً أبداً. وكل شئ هناك يكلف فلوساً، حتى الماء كما قال البعض.

ما الغرض من الذهاب؟ الرجل الذي يبقى في موطنه ويعمل في حقل الرز العائد له، بأمكانه جني حبوب كافية لتغذية عائلته لسنة، وبعد أن يأخذ الشيخ حصته، يبقى له خمسة وثلاثين دينار وفراً، والتي هي بعد كل ذلك تساوي شلنين يومياً للعام كله، بعمل ستة أشهر فقط. وفي السنين الراكدة بأمكانه أن يحصد مع عائلته ويجني ذرة تمكنه من شراء رز اكثر مما عنده. وبمقدوره الاحتفاظ

بالجواميس للحليب، والدجاج للحم. اما الوقود ومواد البناء وغذاء الحيوانات فكلها متوفرة مجاناً. هناك السمك في الأنهر والبحيرات، وطيور الماء البرية في الأهوار.

إضافة الى ذلك، فان هناك فرق قليل في تلك القرى بين حياة الغني والفقير. الشيخ يعيش بنفس الاسلوب الذي يعيشه رجال العشيرة، ولكن أحسن قليلاً. اما في بغداد والبصرة فالتباين ساحق. فجوار الفنادق الفاخرة والفيلات، توجد أحياء الفقراء الحقيرة المتكونة من أسيجة من الحصران وصفائح فارغة وقناني مكسورة واوراق مبعثرة، ولعدم وجود ريف مفتوح قريب، أصبحت أكثر قذارة من أي قرية.

ان من السهولة ترك حياة القبيلة والذهاب الى المدينة ولكن من المستحيل للعاطل البائس العودة لعشيرته.

في عام 1936 كنت في مراكش، وزرت حياً كبيراً للفقراء في ضواحي كازابلازكا يسميه الفرنسيون (بيدون فيل)، حيث فقراء البربر يعيشون في أكواخ من صفائح البترول المسطحة. كانوا قد جاءوا لكازابلانكا من قراهم الجبلية خلال سنوات الازدهار بعد الحرب الاولى عندما كان هناك طلب كبير للأيدي العاملة. ثم في الثلاثينات حصل هبوط في الاسعار. وفي وقت زيارتي كان هؤلاء البربر يبحثون في القمامة حول البالوعات ليبقوا على قيد الحياة. كانوا يموتون بالعشرات جوعاً.

في العراق ترك أكثر المهاجرين قراهم ليهربوا من استبداد الشيوخ. ولكن في بغداد أو البصرة تواجهوا مع البوليس. فحالما ينصبوا بيوتهم من الحصران بين ضوضاء الآخرين في الأراضي الفارغة داخل المدن، ويبدءوا بالشعور وكأنهم في بيوتهم، حتى يصلهم البوليس مع أوامر بأخلاء المكان:

" الى أين نذهب ؟ "

" الى أي مكان، ولكن لا تبقوا هنا عودوا لقراكم اذا لاتريدون البقاء هنا. هيا. هدموا هذا الكوخ. أسرعوا لدينا أعمال أخرى " وهكذا، وبصعوبة، كان عليهم التحرك مع ممتلكاتهم الى مكان آخر. ومرة أخرى سيزيحهم البوليس. واذا

إستقروا في ضواحي المدينة، فعليهم دفع أجور النقل بالباص التي لا قدرة لأجور عملهم عليها. وقد شمرت السلطات بالحذر من هذه الهجرة الواسعة، وعملت لايقافها، وحثت البوليس، الذي إعتبر هؤلاء القرويين البسطاء فرصة للهو، أن يغيروا عليهم باستمرار: " إبرز لي أوراق إطلاق سراحك. ليس لديك أي منها؟ اذن تعال معي الى مركز البوليس ".

على كل رجل في العراق أن يخدم، سنتين في الجيش، ولكن قلة فقط من النازحين فعلوا ذلك. كنت مقيماً عند فالح مرة عندما وصل للمضيف نقيب عسكري صلب العود متوسط العمر، يرافقه عريف وجنديان. وكان قد أُخبر بزيارتهم وطُلب إليه تهيئة المجندين. كان الوقت تموز، حاراً جداً. شرب النقيب ورفاقه الشربت والشاي الحامض. كانت كسوة الضابط محكمة الشد ولم تكن مناسبة للجلوس أرضاً. نهض وذهب الى الكرسي والمنضدة التي هيأت له في نهاية المضيف. أدخل المجندون، ستة عشر صبياً، جميعهم، عدا إثنين، كانوا أصغر من عمر المراهقة. إصطفوا أمام المنضدة، وجلس آباؤهم وزوار آخرون عند الجدران. راجع الضابط القوائم، ومسح وجهه، ووضع نضارتيه، وقرأ " علوان إبن شننته " فلم يجب أحد. فأعاد الاسم. أجاب رجل جالس عند الحائط " ذهب مع عائلته السنة الماضية الى البصرة " بحث الضابط في قوائمه ووضع ملاحظة، وقرأ " جليب ابن حسن " جاء الرد الفوري " مات العام الماضي ". مزيد ابن علي "، فدفع صبي في الثانية عشر الى الأمام واجاب فوراً " لا "، ثم بعد وخزة واضحة على الظهر قال " نعم ".

" هل أنت مزيد ابن علي ؟ " قال الضابط ذلك وهو ينظر الى القوائم بشك. فقال الصبي بتأكيد أكثر " نعم. مزيد ابن .. ابن علي ! "

" ولكنك مدون بعمر ثمانية عشر في قائمتي ! ارفع قميصك يا ولد "

مسح الضابط وجهة بقوة، ثم إلتفت الى فالح قائلاً:

" لابد أن هناك خطأ ما، فهذا لا يمكن أن يكون مزيد ابن علي " فأجاب فالح بلطف " لهؤلاء الناس حياة خشنة، والصبيان ينمون متأخرين "

أضاف الضابط ملاحظة أخرى الى القائمة وقال " قل له أن ياتي العام المقبل"

وبعد غداء جيد، رحل الضابط وأركانه مع ضحيتين كانا قد أختيرا لهم. وكان واضحاً أن الاثنين والثلاثين الآخرين في الأضابير، أما يكونوا قد ماتوا أو إنتقلوا الى أماكن أخرى، او كانوا لازالوا صغاراً بعد.

كانت المقابلة إسناداً من الشيخ للقرويين، وعرضاً طبيعياً جيداً. إلا أنها بصورة عامة أمر مختلف عندما يسأل رجل عن أوراقه في مركز بوليس في بغداد من قبل رجل شرطة، يتعمد إخافته، ومستعد لاستعمال العنف لغرض الابتزاز.



البرابرة والمضانف

الفصل الثالث والعشرون

البرابـــرة والمضائـف

في الاسبوع الأخير من نيسان، تركنا قرى الأزيرج خلفنا، مقتربين من الصيكل. وأخذ مضيف عبدالله يلوح لنا عبر البحيرة، في ذلك الصباح سببنا هياج عدة ديوك رخامية جاءت هنا في الربيع للتزاوج. عجبت لعدد طيور البوشارد، فقد كنت أتوقع أنها الان قد غادرت. ألح ياسين ان نظل محاذين لمناطق القصب خوفاً من زوبعة مفاجئة. فقبل عدة أيام ضرب أعصار المنطقة وخلع حصران السقوف من عدة بيوت في القرية التي كنا فيها، وفي السنة السابقة وفي نفس الموسم، فاجأتنا عاصفة، فالتجأنا الى نفس منطقة القصب، مطوقين بظلمة حمراء مرعبة لساعتين.

هناك في البعد وسط البحيرة، كان البرابرة يصيدون السمك بزوارقهم. كنا نسمع ضربات الصفيح، وصفعات المجاذيف على سطح الماء ليسوقوا السمك الى شباكهم. للمعدان إحتقار قديم للبرابرة، ورغم أنهم يأكلون معهم، إلا أنهم يزدرونهم بكثرة، أقل قليلاً من الصابئة، الذين هم في الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي هناك، مع أن أي من رجال العشائر لم يوحي لي ان للبرابرة أصل مختلف. وهذا الأجحاف لم يكن إلا ضد مهنتهم فقط. للوهلة الاولى يبدو ذلك غير منطقي، حيث ان المعدان أنفسهم يصيدون السمك. إلا أن البرابرة يصيدونه بالشباك لغرض بيعه، بينما يصيد المعدان بالفالة للأكل. وفي الحقيقة، في السنين الأخيرة أخذ المعدان يبيعون السمك، ولكن هذا يعتبر إنحرافاً. في السابق لم يبع أي منهم السمك أو الحليب. ولكن الضروف الآن إضطرت بعضهم لبيع الحليب والزبد في قلعة صالح والمجر عندما خيموا قرب تلك المدن، والأجحاف الأولي ضد البرابرة، أصبح الآن مرتبط بطرقهم في الصيد واصوله. ومثل ذلك قولهم: " الله يلعن، يا سيدي، ان

الرجل المحترم قد يضطر الى بيع طير الدراج العائد له، ولكنه بالتاكيد لا يرمي الحاضنة منها".

لم يكن هناك من البرابرة بين الفرطوس، والشغانبة، والفريجات، ولكن هناك الكثير بين ألبو محمد، وأكثر بين الازيرج، أما بين بني أسد في الجبايش فهناك آخرون يصيدون السمك على الحافة الغربية للأهوار، ويخيمون لأشهر على جزيرة صغيرة قرب قرية جاســم الفارس. والمشترون، يسمون (الصفاط) يشترون سمكهم ويملحونه ثم ينقلوه الى البصرة. يصيد البرابرة بشكل عام بواسطة الشباك الكبيرة التي ترمى في الماء، ولكني شاهدتهم أيضاً يستعملون شباك الغرف والسحب في الأنهر، والشباك الطويلة الثابتة المربوطة في أعمدة تنصب في المناطق المغمورة بالفيضان خارج الأهوار.

أحياناً يستعمل الصبيان في المجر الكبير شباك السنارة على ضفاف النهر قرب تلك المدينة. ولكني لم أشاهد مثل هذه الشباك في أي مكان آخر عدا البصرة. ينصب مزارعوا السواعد في الأهوار الشرقية أحياناً قطعة من شباك عبر قناة سريعة الجريان، ومرة راقبت إثنين يصيدان بعمق شديد في مجرى بشبكة غرف تشبه النقالة، وبحجمها تقريباً. والقرويون الذين يعيشون على حافة الأنهر عادة ما يركزون حصراناً صغيرة في الماء قرب بيوتهم لتكون حاجزاً عن التيار، ثم ينصبون عدداً من القصب بعده مباشرة. وعندما تتحصر السمكة، تحرك القصب لتهب نفسها للصياد المنتظر، فيصيبها بالفالة.

في الربيع، قبل أن يرتفع الماء، يتجمع المعدان بمجموعات من أربعين الى خمسين زورق. ثم يأخذون بمسح المستنقع جيئة وذهاباً في خط واحد وبين كل منهم والآخر أربع الى خمس ياردات، ويحاول صاحب الفالة طعن السمك وهو يختبئ تحت الزوارق. وفي الصيف يصيدون السمك بالفالة ليلاً، بعمل نور من مشاعل قصب. إلا أن تسميم السمك بالداتورة وصيده يعطي أحسن النتائج.

ونحن نجذف باتجاه مضيف عبدالله، أخبرت رفاقي أنني شاهدت مرة سمكة بطول خمسة أقدام، مسكت في دجلة قرب كركوك*، وسألتهم عن كبر سمك الكطان والبني المتواجد في الأهوار. أجاب ياسين " التي نمسكها تكون بطول ذراعي، ولعل ما شاهدته في كركوك هو الشبوط، الذي يعيش في المياه الجارية، وبعضها ربما ضعف ما شاهدته حجماً. وهناك سمك آخر نسميه الجصان، وهو يشبه الكطان و يتواجد تحت الجزر الطافية، نسبح تحت الجزيرة ونمسكها بأيدينا. نشد حبلاً باحدى سيقاننا، ويمسك الرجل في الزورق طرفه الآخر. ومرة اخطأ أحدهم السابح وظنه سمكة فضربه بالفالة على عجيزته وحاول رفعه خارج الماء. كان علينا قطع إنشوطات الفالة بخناجرنا. لقد كان عملاً مرعباً لانه لم يعد يضطجع براحة من يومها.

الشبوط والجصان والكطان، هي ربما انواع من سمك الباربل الذي نعرفه. علق ياسين " اذا أراد الله، ستكون هذه السنة مثل سنة ام البني، حتى ان الماء الآن أقل مما كان حينها. لقد إصطدت في يومين بالفالة ما يكفي للحصول على أربعة دنانير. والله كان من الممكن أن أنال ثروة لو لم يتدخل مجيد ". ايده حسن قائلاً لي " نعم. ذهبت مع عمي الى أم البني قبل يومين من غلق مجيد للبحيرة بوجه الجميع إلا البرابرة. شاهدتك هناك عند الفرطوس. كنتم مخيمين مع البرابرة، ولم أعرفك حينها إلا أنك أعطيت رفيقي دواء لمعدته "

تذكرت المناسبة جيداً. كان ذلك عام 1951 في اولى سنواتي في الأهوار. في آخر شهر تشرين الثاني كنت وثلاثة من الفرطوس قد وصلنا العكر، لنجد قرية تصحرت عملياً، كان الماء منخفضاً بشكل غير عادي ذلك العام. ولكن كنتيجة للامطار في الشمال، إرتفع المنسوب في الأيام القليلة الماضية، وهددت المياه بغمر حقول الرز التي زرعت. كان اكثر المزارعين خارجاً محاولين إنقاذ محاصيلهم. وكل رجل أو صبي ذهب لصيد السمك بالفالة في أم البني، حيث سمعنا أن صيداً

---

* المقصود لواء كركوك، لان المدينة لا تقع على دجلة - المترجم

غير طبيعي يجري. ذهبنا نحن أيضاً الى هناك. أدى مرور العديد من الزوارق والأبلام الى ترك ممر عريض خلال مناطق القصب الكثيفة، وبعض عيدان القصب التي أنداست في الطين، كان سمكها كمرفقي. كان الماء ضحلاً، وأحياناً نجد صعوبة في الاحتفاظ بزورقنا متحركاً. مع ذلك إلتقينا ببلمين ثقيلين محملين بالسمك الكثير، وبحارتها الستة كانوا بالكاد يسحبون الزورق للأمام باستمرار. وعلمت بعدئذٍ ان تجار السمك قد دفعوا حتى دينار في اليوم للطاقم عن هذا العمل المرهق.

بعد ثلاث ساعات من تركنا العكر، وصلنا الى مكان خالي صغير، حيث عمل أحدهم حانوتاً تحت ستر قاسي من الحصران. كان أسمه (الملا جبار). ومع إثنين آخرين كان يشتري السمك لسوق بغداد. وقد جاء الى هنا منذ ستة أيام. ونصحنا لقضاء الليلة هناك لان لا أمل في أن نصل الى أم البني قبل حلول الظلام. كان يدفع ثلاثة دنانير عن كل مائة سمكة، بغض النظر عن حجمها، وكان يشتري بالآلاف. وحديثاً، كما قال، بدأت الأرقام بالهبوط الى حد بعيد. أخذوا يرسلون السمك بالابلام الى اليابسة، حيث تنتظر اللوريات لأخذها الى بغداد مخزونة مع الثلج. نمنا قرب سياجه على كومة من القصب، بعيداً عن الماء. وكان البعوض سيئاً جداً، إلا أن الجو كان بارداً. ودفنت نفسي في بطانياتي. مجموعات أخرى كانت في طريقها الى أم البني خيمت حولنا، جالسين حول نيرانهم ويغنون الى ساعة متأخرة من الليل. مرت ثلاثة أبلام في الظلام قدر التاجر حمولاتها على ضوء مشاعل القصب.

في الصباح كان علينا أن نقضي ثلاث ساعات من العمل لنصل الى أم البني. طول البحيرة حوالي الميلين، وعرضها ميل ونصف الميل تقريباً. محاطة بمناطق قصب صعبة العبور. خيم البرابرة على أرضية من قصب مدروس في بداية الممر. وشبكات صيد إحتياطية قد نشرت لتجف تحت الشمس، وصبي او صبيان بقيا للحراسة في موقع كل مخيم، وزوارقهم التي كانت كلها حوالي خمسة عشر، ذهبت للصيد في البحيرة. جذفنا عبرها لنراقب. كان طواقم الزوارق يدخلون ويخرجون من الماء

كل الوقت، وقد خلع أكثرهم ملابسهم وبقوا عراء. وباستعمال شباك بقطر أربعين باردة، كانوا يغنمون الكثير من سمك الباريل، أكثره بني (Barbus sharpeyi)، معدل وزنه أربعة باونات. أحد الرجال، أشيب الشعر، قال إن زورقه كان أول من وصل الى البحيرة " طوال حياتي أعمل في الصيد، لكني أبداً لم أر مثل هذا. في صيدنا الأول حصلنا على تسعمائة. حقيقة لم أكن اتصور أننا سنتمكن من وضعها في البلم. الان السمك أقل "

حوالي مائتين من الزوارق العائدة للفرطوس والشغانبة والفريجات والبو محمد، تتخاصم في مشادات حول حافات البحيرة. في كل زورق عاملان: الاول يجذف والثاني يقف وسطه يضرب بشكل متواصل على النباتات والطحالب الطافية. يعتبر المعدان أنفسهم محظوظين عادة اذا ما حصلوا على بضعة سمكات باليوم، إلا إذا استعلموا السموم بالصيد، اما هنا فينالون واحدة في ثلاث أو أربع طعنات، واكثر هذا السمك من نوع الكطان (Barbus – Xanthopterus) وهو نوع آخر من الباريل.

إلتحقنا بمجموعة من الفرطوس. كانوا متوحشين بأثارة وهم يغمدون الفالات في الماء ويرفعونها والسمك يلمع متساقطاً في الزورق. صرخوا " لايمكن أن نخطئ. إنها راقدة واحدة فوق الأخرى ". كانوا يركزون في موقع واحد لبرهة، فتتحلق الزوارق معاً، ثم يقررون إن مكاناً آخراً أفضل، فيسارعون إليه، ويحث ماسكي الفالات بالمجذفين للاسراع. وعندما يصل الى هنا بعض البرابرة، يترك الفرطوس حافة البحيرة مندفعين إليهم، صائحين بهم، ثم يسوقون زوارقهم فوق طوافات الشباك، لصيد السمك بداخلها طعناً. ويصرخ البرابرة شاتمين إلا أن الرجال يصرخون ساخرين بهم. وربما شكى بعضهم الأمر لمجيد، فقد أغلق البحيرة بعد يومين أمام المعدان، ولم يسمح إلا للبرابرة بالصيد فيها.

من الصيكل، واصلنا رحلتنا بالطرادة، وتوقفنا لبضعة أيام عند جاسم في العويدية. عادة تكون كل المنطقة بين الحافة الغربية للأهوار والغراف في هذا الموسم تحت فيضان لايقل عن أربعة أقدام إعتيادياً، لكن في 1955 ونتيجة

للجفاف، كان علينا التوجه جنوباً، تقريباً الى الفرات، لنجد ماء كافياً لطفو الطرادة خارج الأهوار.

بقينا في (الحمار)، قرية تابعة لألبو شامة، بين النخيل في جنوب الفراف. وأجزاء اخرى من نفس القبيلة تعيش في الأهوار كمعدان هائمين. مررنا بمجموعة منهم مرتحلة الى أراضي الذرة كي ترعى جواميسهم على دريس وتبن تلك الحقول. وبقينا أيضاً على الفراف عند العميرة. جزء من العشيرة يعيش في (المبرد) وقرى المعدان الأخرى ويكسبون فلوسهم ببيع ملء السفن من القصب اليابس في سوق الشيوخ. ويفعل جيرانهم الفرطوس نفس الشئ، ولكن في أكثر الاحيان يذهبون الى هناك بأحمال من الحصران.

في مايس تكون السماء مشمسة لامعة، كقاعدة، ولكن تكون أحياناً ملبدة بالغيوم لأيام متواصلة، واحياناً مع ثلاث أو أربع عواصف مطرية راعدة. بصورة عامة تكون الرياح قوية من الشمال والغرب، تملأ الجو بالتراب. ومع هذه الريح يكون الجو بارداً ومنعشاً، وإلا فتكون الأيام حارة ورطبة جداً. قضينا الشهر مع الجوابر والحسن، وعشائر المنتفك الأخرى، مرتحلين على طول الفرات. وكنا نقوم بزيارت قصيرة داخل قنوات تصطف على جانبيها أشجار الصفصاف التي قد تصل الى شفا الأهوار، ونبقى في المضايف التي ندعى لها. كل هذه الفترة كنا في أرض النخيل الذي ينمو مكتضاً كالاعشاب في أي تربة لايصلها الفيضان سنوياً، حتى في جزر صغيرة بين مناطق الأحراش. ويغطي النخيل أيضاً خط الجزر الى الجنوب فيبدو داكناً تجاه المياه اللامعة لهور السناف. والاشارة الوحيدة للكارثة التي حلت بهذه العشائر في السنة السابقة هي آثار الفيضان البادية للعيان بوضوح على جذوع النخيل وجدران المضايف.

على دجلة، كانت بساتين التمر تمتلئ بأجمات الدغل المتشابكة، وعلينا إزاحتها جانباً بالقوة عند صيد الخنزير ولكن الاشجار هنا معتنى بها بشكل جيد، وجذوعها المقشرة ترتفع من أرض مهيئة للحراثة. زرنا الجزر التي على طول حافة هور الحمار، المنفصلة عن الأهوار من الشمال بمساحة

واسعة من الماء الذي يغطى بعدئذٍ بأوراق مسطحة لزنابق الماء ذات الأهداب أو الكيبة ((Nymphoides peltata and indica والآف لا تحصى من أزهار لامعة بيضاء وصفراء. في أيلول شاهدت جواميس ترعى بشهية شديدة على تلك النباتات، مقحمة رؤوسها تحت الماء لتقتلع الأغصان المتدلية. وعن بعد تبدو كماشية تتغذى في مرج نبات الحوذان. وفي الخريف هناك زنابق ماء اخرى (Nymphaea caerulea) في الأهوار بعضها أبيض والبعض الاخر بنفسجي.

ان رجال قبائل المنتفك لايعيشون في قرى، بل منعزلين، كل في أرضه. وهم تقليدياً مضيافون. وهناك الكثير من المضايف بقدر عدد دور السكن بين النخيل. والبعض انشأ حصناً صغيراً من الطين ذو فرجات للرمي قرب داره. فهم يحبون الحرب، ومدمنين على الثأر كثيراً. كل رجل وصبي يحمل خنجراً، واكثرهم يمتلك بندقية مع الكثير من العتاد. وكلما كان هناك عرس، ويبدو ان هناك واحد كل يوم، يستمر اطلاق النار حتى الفجر.

أحياناً توضع حاجياتنا في صريفة قبل أن نذهب الى المضيف. والصريفة هي بناية مستطيلة بجدارن مصنوعة بشكل عريشة. والسقف المنحدر المغطى بالحصران، مثبت على دعامتين من القصب وعند المنتفك يكون الجسر الطولي بين العمودين من جذع نخلة صغيرة، ولكن في الأهوار، حيث يستحسن هذا النوع من البناء أصحاب الدكاكين، يكون الجسر من حزمة قصب. أما المدخل فيكون من جانب البناية. كنت أسعد دائماً عندما أنكفئ الى صريفة، متخلصاً من الحياة الاجتماعية المشتركة في المضيف. وحتى بعد سنين من الحياة مع العرب، أجد أن النقصان التام في العزلة الشخصية، شئ يدعو للسأم. بعد صباح طويل من التعامل مع حشود المرضى الصاخبين، أشعر دائماً بالأرهاق، خصوصاً والطقس ترتفع حرارته. اذا شعر رفاقي بالتعب عندما يصلون المضيف، سينهضون من أماكنهم حالما يشربون فناجين القهوة المعتادة، ويذهبون للطرف الآخر من القاعة، ويلفوا أنفسهم بعباءاتهم، ويروحون في نوم عميق. وسيوقضهم المضيّف حالما يحين موعد الطعام. كان هذا بالضبط الاسلوب الاعتيادي، ولكني كنت أشعر بالبشاعة اذا

ما تصرفت هكذا. ولكي أكون لوحدي بالكامل، شئ صعب التحقيق، ولكن ربما رافقني رفاقي فقط واثنين أو ثلاثة، الى الصريفة، حيث أنزوي مع كتاب أو أروح في نوم خفيف.

بعكس ما موجود في دجلة، حيث تبنى المضايف عادة من تسعة أو احد عشر قوس، تكون الاقواس في الفرات أكثر. ورغم ان أكبر ما شاهدته بني من خمسة عشر قوس، كان طوله أربعة وثمانين قدماً، وعرضه خمسه عشر وارتفاعه خمسة وعشرون. والكثير منها ذو سبعة عشر قوس، وشاهدت واحداً من تسعة عشر، إلا أن طوله كان تسعة وستين قدم وعرضه خمسة عشر وإرتفاعه إثنا عشر قدم فقط. عرض المضيف في مناطق دجلة ثمانية عشر قدم تقريباً والارتفاع ثمانية عشر ايضاً، في حين تلك التي في الفرات فعرضها خمسة عشر والارتفاع طبيعي. اذا ظهرت اعراض بداية أنهيار المضيف يقوم المالك وأصدقائه بأختزال الارتفاع بالطريقة التالية: يحفرون خندقاً من الخارج عند قاعدة أحد الاقواس وحتى نهاية الحزمة عمقاً، لتعرية قدمين منها التي في الأرض، ويشد حبال حول القاعدة، تسحب الى الخندق. ثم تنظف الحفرة ويقطع أعمق قدمين من الحزمة، وتعاد القاعدة الجديدة الى الحفرة ويردم التراب عليها ثانية. وتعاد العملية عند كل قوس، مرة من جهة ثم من الجهة الثانية.

المضيف في مناطق الفرات يعاد تشكيله بالتقصير كما أسلفنا، مرتين، أما في دجلة فعملية الترميم هذه غير معروفة، لسهولة الحصول على القصب الملائم، فيعاد بناء المضيف بالكامل. عادة يحتاج المضيف لاعادة بناء كل عشر سنوات، وتعتمد فترة بقائه على حالة الأرض، فتحت ضروف جيدة، قد يبقى حتى خمسة عشر سنة. ولبناء المضيف الكبير يحتاج الأمر لمائة رجل ولعشرين يوم، وتدفع أجور العمل لرئيس البنائين فقط، أما العمال فلا يتوقعون غير وليمة كبيرة ظهر كل يوم. ويقوم المالك بذبح حيوان يومياً لتوفير اللحم لهم. يحتوي لب او مركز حزمة القوس الجديد من قصب سبق وان استعمل، لتكون الحزمة الجديدة سهلة التقويس. ثم يغطى سطحها الخارجي بقصب رفيع لأعطاء النعومة. في منطقة المنتفك يكون

القصب المتوفر قصيراً جداً بالنسبة للطول الكامل للقوس، ولهذا فهم يجمعون طول قصبتين، وبالتالي تتطاول الأقواس بدلاً من أخذ شكل حدوة حصان حادة، ولا يمكنها طبعاً التعويض لنفس القوة، كما يحدث في مناطق البو محمد الذين يستعملون أطوالاً واحدة من القصب العملاق. وكانت هناك عادة عندهم أن تطبع كف بالحناء على كل عمود عند الأنتهاء من إنشاء مضيف، ويعاد تجديد هذه الطبعة في كل عيد. وفي السنة الجديدة، أو نوروز، تزخرف أعمدة المضيف بباقات من القصب الأخضر.

عند البو محمد والازيرج والعشائر الأخرى على دجلة، تختلف المضايف قليلاً بالمظهر العام. فالسقف، ككل المضايف، معمول من أغطية حصران، وفي أحدها كانت الطبقة السفلى تتألف من حصيرة هائلة مفردة تغطي كل السقف، وتتألف الجدارن السفلى من حصران منفردة تعلق من الاعلى وتتدلى الى الأرض خلف الأقواس، وبالامكان رفعها بمساند وقت الحر، وتترك الى الاسفل عند البرد. الجهة الجنوبية الغربية، المواجهة لمكة، فيها ثلاثة مداخل بين الدعائم الرئيسية، مع شبابيك أحياناً تقطع في الحصران التي فوقها. أما النهاية الشمالية الشرقية، فتكون جداراً مصمتاً.

عند عشائر الفرات يكون طراز المضايف اكثر تعقيداً و اكثر تنوعاً. فكل طول الجدران يتكون من شبكة من القصب متصلة بالجزء الخارجي من الاقواس، ومربوطة بشريط من الحصران الى السقف. أمام هذه الشبكة من الداخل يوجد حاجز بارتفاع أقل من قدم واحد يتكأ عليه الجالسون. وفي مركز النهاية الجنوبية الغربية يوجد مدخل بشكل قوس مدبب لايتغير، محاط بشبابيك مشبكة. وطراز النهاية الشمالية الشرقية نفس الشئ، ولكن بدون مدخل عادة. ان ترتيب وشكل الشبابيك المشبكة تختلف حسب رغبة كل بناء. فوق المدخل يوجد بصورة عامة مشبك بنفس الحجم والشكل، كممر الباب، محاط بشباكين صغيرين مقوسين. وشاهدت في أحد المضايف شباكاً دائرياً منفرداً يخترق النصف العلوي من الحائط المصمت. وفي هذه الحالة يقسم النصف الاسفل للجدار أفقياً الى ثلاثة مقاطع من

الحصران بين المشبكات العليا والسفلى، وكلها مقسمة عمودياً بالدعامتين الوسطيتين.

إن الجلوس في مضايف الفرات يجعلني دائماً أشعر وكأنني داخل كاتدرائية غوطية او رومانسكية، وهو خداع بالسقف ذو الأضلاع، والشبابيك ذات الزخرفة في نهايتي القاعة، التي من خلالها تخترق خطوط نور الشمس اللامعة عتمة الداخل. كلا نوعي المضايف، تلك التي على الفرات والتي على دجلة، تمثل المآثر المعمارية فائقة الجودة، بأبسط مواد بناء متوفرة، وتأثير الزخرفة المتأتي من إستعمالات القصب، جاء بالكامل من طرق البناء الوظيفية. وتأريخياً كانت مهمة أيضاً. ان الأعتياد الطويل لبيوت كهذه يمطي الانسان فكرة عن تقليد أقواسها من الآجر الطيني، كما خلد الأغريق تقنياتهم الخشبية، في الحجر. بنايات مثل تلك المضايف كانت جزءاً من مشهد في جنوب العراق لخمسة الآف سنة وأكثر. ربما خلال العشرين سنة القادمة وبالتأكيد خلال الخمسين التالية، ستكون قد إختفت الى الأبد.

عمارة، والثأر



الفصل الرابع والعشرون

عمارة، والثأر

أقضي حزيران و أحياناً تموز كل عام بين القبائل على طول نهر دجلة شمال العمارة، ولمرتين تتعبت النهر حتى الكوت، إلا عام 1954 عندما مررنا خلال هذه المنطقة في طرادتنا عابرين الصحراء المغمورة بالفيضان من الصيكل، كان برفقتي عمارة وسبيتي فقط. وكنا دائماً ننتقل على ظهور الجياد، حيث يعيرنا مضيّفنا جياداً للقرية او المخيم التالي. لم يكن أي منهما قد إعتلى صهوة حصان سابقاً، ولما ركبا لأول مرة، توجه حصاناهما كل الى إتجاه معاكس، ولكن مع التدريب أصبحا ماهرين بشكل معقول. وفي حين أكون يائساً في الزورق، سرني أن أكون قادراً على التباهي فوق الحصان، رغم أننا كنا نمشي أكثر الوقت، لاننا نحمل الأدوية على السروج. عند الظهر تكون الحرارة لا تطاق، ولكن في حزيران يكون الجو بارد ليلاً، وكنت سعيداً بالبطانيتين. هبت رياح شمالية غربية، غالباً مع عاصفة هوجاء، طوال الشهر فكان هناك عجاج يحجب النظر لأكثر من ياردتين. في تموز تختفي الرياح حتى في الليل، وليس هناك محيد عن الحرارة الرطبة التي قد تصل الى 126 درجة في الظل.

من رفاقي الأربعة، كان عمارة وسبيتي المقربين، وبعيداً عن زملائهم رجال العشائر، والوضع المألوف في الأهوار، كنا ثلاثتنا نجذب الأنتباه في تلك الحملات. في عام 1956 بدأت أجد نفسي أكثر إهتماماً بهما. كان ياسين وحسن قد تزوجا العام السابق. وألان عمارة وسبيتي مخطوبين، وقالا أنهما لن يتزوجا إلا بعد مغادرتي، حيث انهما يرغبان بالبقاء معي حتى النهاية. ولما كنت قد إتفقت مع ناشر كتاب عن جنوب الجزيرة العربية*، لذا سوف لن اكون في العراق السنة التالية.

---

* وقد نشر الكتاب وكان بعنوان (الرمال العربية)- المترجم

عمارة كان مخطوباً لأخت سبيتي. وقبل خمسة اشهر ذهبت مع صحين، نيابة عن عمارة، الى لازم، والد سبيتي. وكان المفروض أن يستشار اخ لازم، لأن من العادة ان لأبنه الاولوية في طلب يد البنت، ولم يوافق على خطبة عمارة، إلا بعد مناقشات طويلة. ثبتنا المهر بـ75 دينار. سر عمارة وسبيتي. وفي تلك الامسية، في بومجيفات، إحتفلنا بالمناسبة بالرقص والغناء ورمي الرصاص.

في تلك السنة، كالعادة، لم يكن هناك هدف لرحلاتنا. كنا نعرف بأننا سيرحب بنا في أي من القرى الصغيرة أمامنا ونحن متجهين شمالاً. نتوقف أينما نشاء، ونعود عندما نرغب. رحبت بنا البو دراج وهي عشيرة جيدة تزرع الرز على طول المجاري المائية التي تتلاشى في هور منعزل، إستعرنا منهم زوارق لنزور الكولبة والمكيل الذين يرعون الجاموس في القصب الواطئ او البقع المغمورة من شجيرات الزعرور الشائكة. ركبنا الجياد ثانية عبر حقول الرز التابعة لألبو علي، وهي جزء من البو محمد تبعوا حاج سليمان نحو الشمال بعد معركته مع مجيد. ثم وصلنا الى بني لام.

يجري النهر الطيني عبر المنظر الطبيعي للأرض الترابية، وترتفع شمس برتقالية وتغرب على خط أفق لسهل خالي. وعند الفجر فقط قرب معبد علي الغربي يصادف أن أشاهد بين الفينة والفنية تخوم بشتي – كوت. قضينا بعض الوقت مع رعاة في خيم سود صغيرة، تطأنا أعداد من الماعز والخراف، أما الذباب فيعج فوقنا منذ الفجر وحتى المغيب. ولكني أستمتع دائماً لكوني مع هؤلاء الريفين. وهناك سحر في الأمسيات عندما يتلاعب الرعاة بمزاميرهم وهم يجلسون حول نيران مضرمة، وفي أحيان أخرى ننزل عن السروج في قرى متفرقة على طول ضفة النهر حيث العديد من الشيوخ الصغار رائعي الضيافة. وعند الظهر تضرب الرياح بحرارة لاذعة، لكن البيوت الطينية الصغيرة، باردة بلذة في الداخل، حيث شبابيكها مغطاة بحشيات من نباتات شوكية يابسة، يبقوها دائماً منقوعة بالماء.*

---

* كانت ولازالت شائعة، وتسمى عند اكثر العراقيين (عمارية) - المترجم

أعطتني هذه الأرض المقفرة نفس الاحساس بالحرية الذي عرفته بشكل قوي في الصحراء. فهناك نفس الفضاء المقفر، وحتى البيوت القليلة، لاتحتوي إلا على الحاجات الضرورية للحياة. كان هناك الكثير من العمل الطبي، الذي يثير الأهتمام دائماً ويوفر لي شعوراً محدداً بالأنجاز. احببت بني لام، وكثير منهم صار من أصدقائي بعد زياراتي السابقة لهم.

شاهدنا ولعدة مرات ذئاباً، وقال لنا أحد الرجال انه كان مرة راكباً وقتل ضبعاً بعد أن طارده. ولابد أن الامر إحتاج الى حصان ممتاز ذاك الذي أدرك ضبعاً، كما تعلمت قبل عشرين عام في السودان. واخبرني آخر كيف أنه وأصدقاءه نبشوا حفرة فيها إبن عرس فهاجمهم وعض إثنين منهم، ويدا أنه إمتنع عليهم حتى ضربه أحدهم على خطمه. ونصادف أحياناً قطاً وحشياً، أحدها كان لونه بنياً، يختلف كثيراً عن الاعتيادي. لم يكن هناك غزلان، ولكن يوجد منها الكثير الى الشرق قرب حدود فارس، حيث أهلكت اعداد كثيرة منها لسوء الحظ بواسطة جماعات تطاردها بالسيارت. ووفق القانون، هذه الطريقة ممنوعة، لكن الحقيقة ان موظفي الحكومة هم المتهمون. شاهدت مثل هذه المطاردة في كردستان، حيث كنت قد رايت قطعاناً من خمسين غزالة أو أكثر، ولكني أعتقد أنها ستختفي كلها كما إختفى الحمار الوحشي والاسد قبلها.

نحن أنفسنا لانصيد غير الخنزير الذي تزخر فيه الأحراش على طول الممرات المائية وكذلك الأرض التي تنبت عليها الحشائش الملحية كالبساط، ولعلو ثلاثة أقدام، والتي تغطي كل الأراضي على جانب دجلة. ربما تكون المنطقة مثالية للصيد بالطعن، ولكني لاأملك فالة، لذا فاقوم بصيدها ببندقيتي مستعملاً إياها كالمسدس، بيد واحدة وأنا على صهوة الحصان على طول الطريق. أستمتع انا وأبتهج بالعدو بالفرس، وأشعر بالغثيان من ذبح الخنزير، وعندما نقوم بالصيد ونحن مشاة، أدع عمارة ليرمي، ونادراً ما يخطئ. وكان قد نال سمعة التفوق بالأصابة، سرعان ما عادت إليه بالفائدة.

عند عودتنا للمجر في نهاية حزيران، استقبلنا بأنباء ان بداي ابن عم عمارة قد قتل أحد أبناء رضيوي وأخ حسن ذاته الذي كان يرغب الزواج من زوجة بداي، وحاول إفشال الزواج في حينه. وعادت بي الذكرى الى اليوم الذي قضيناه مع بداي في العويسج قبل ثلاثة أعوام، وكيف أن عمارة ذهب الى رضيوي ليحاول التوصل الى حل. أما الآن، فالدم قد سال.

كان عمارة قد قال لي أن زوجة بداي تركته بداية هذه السنة وعادت لبيت أبيها. بإمكان الرجل أن يطلق زوجته بمجرد قوله لها " أنت طالق " وفي هذه الحالة لا يحق له إستعادة المهر أبداً. ومن ناحية آخرى، لايحق للمرأة أن تطلق زوجها، ومع ذلك فبامكانها الهرب منه والبحث عن ملجأ لها عند أبيها أو أخيها. واذا بقيت على عنادها فسيحاولون الضغط على زوجها لتطليقها بتقديم عرض له بإعادة جزء من المهر أو كله. في حالتنا، رفض بداي تطليق زوجته لتتزوج من حسن، وحمله كامل المسؤولية عن المشكلة بينهما.

وقد علمنا الآن أن بداي بينما كان مخيماً على قناة قرب العويدية عقد حسن وأخوه الأصغر خلف واحد أولاد عمه النية لقتله. كان مخيمهم المتكون من مجموعة أكواخ عارية من الحصران يبعد قليلاً عن مكان بداي قرب قلعة صالح. وصادف أنه كان خارجاً للبحث عن جاموسة مسروقة، فكمنوا له منتظرين عودته. وعاد في اليوم الثالث، فدنوا من كوخه في وقت متاخر من تلك الليلة، فاعترضهم أحد الجيران مرتاباً وصاح " لماذا تأتون كل ليلة للبحث عن بداي؟ لم يقتل أي من أفراد عائلتكم " وأطلق رصاصة فوق رؤوسهم. وبينما أخذوا ينسلون هاربين، إندفع نحوهم كلب بداي وطاردهم، وتبعه بعد قليل بداي نفسه. وبالاستدلال بنباح الكلب، أدركهم عند توقفهم لأشعال سيكارة وسمع حسن يقول " دعونا نقتل هذا الكلب على كل حال " عندئذ أطلق بداي النار لكنه أخطأ. فانتشر الثلاثة وهربوا، فرمى ثانية فسقط أحدهم. وعندما دنا من الرجل الساقط عرفه، فقد كان خلف، وينزف من فخذه وقد تحطم العظم " أتريدون الدم ؟ اذاً خذه " قال ذلك وأطلق النار ثانية على رأسه.

في هذه الأثناء التحق حسن بابن عمه وأكتشفا اختفاء خلف، فعادا ثانية للبحث عنه ووجدا آخر الامر جثته. وصمما على الثأر حالاً، فأسرعا الى مخيم بداي. صرخ حسن وهما يقفان على ضفة المقابلة متحدياً، وقبلها بداي. أفل القمر وصار الظلام حالكاً. لم يكن أي منهما مهيئاً نفسه لوضعها تحت رحمة الآخر بخوض القناة، لذا فقد رمى كل منها بإتجاه وميض البنادق. قبل الفجر أقنع بعض الفريجات المجاورين حسن بعد ألحاح للأنسحاب قائلين ان الشيخ سيلقي القبض عليه اذا ظل هناك حتى الصباح وستضمه الحكومة في السجن حتماً حتى يسلم والده نفسه إليها لأنه مطلوب بتهمتي قتل. حمل حسن وابن عمه جثة خلف وذهبا، أما بداي نفسه فقد كان مصاباً بجرح طفيف. وعند أول خيط ضياء، حطم بيته وحمل كل شئ في زورقه وإختفى مع عائلته وحيواناته في الأهوار، ولا أحد يعرف أين ذهب.

عندما سمع عمارة الأخبار هذه، بدا وجهه كالميت، وعملت على صرف النظر عن الموضوع وعدم إعتباره أكثر من جريمة قتل أخرى بين هؤلاء غير المتمدنين وغير الخاضعين لقانون، حتى قال سبيتي " الا تلاحظ ان عمارة هو الأكثر قرابة من بداي، وان رضيوي وعائلته قد يحاولون الآن قتله ؟ "

كنت قد خططت لقضاء ثلاثة أشهر في نورستان، تلك المنطقة البرية الصغيرة المعروفة من الجبال على حافات جترال، وتوقعت المغادرة الى افغانستان خلال عشرة أيام، وعلي قبل ذلك أن أعمل ما بقدرتي لضمان سلامة عمارة. ذهبنا مباشرة الى الرفيعة، لعائلة عمارة. سألت لكب إن كان ورشك في خطر أيضاً فقال " كلا. ولكن اذا لم يتمكن رضيوي من قتل بداي فهو بالتأكيد سيحاول قتل عمارة. " وإقترح أن أطلب من مجيد تنظيم عطوة أو هدنة لعمارة قائلاً " اذا حصلنا ستة أشهر فقط كعطوة، ربما يهدأ رضيوي. وبعدئذ سيكون من الممكن إقناعه بقبول الفصل المالي ". واتفقت على الذهاب الى مجيد في الصباح لأرى ما يمكن عمله.

انا اعرف ان لا الشيخ، مهما كان قوياً، ولا السيد، مهما كان مبجلاً، بأمكانهما حل مشكلة الثأر الدموي. لكن الكليط وحده أو الرئيس، هو من بأمكانه ضمان التعهد، وذلك بعقد قطعة قماش حول قصبة وإمساك الطرفين لنهايتيها. ان موقع الكليط ورائي، حتى ولو كان عجوزاً أو بنصف سلامة العقل،

إلا إذا كان طفلاً، فيكون أقرب الذكور إليه هو من يحل محله. سألت ثكب ان كان صحين، وهو كليط لجزء من الفريجات المعني، بحاجة الى أخذه معنا لفرض إدارة مفاوضات الهدنة في حالة تمكنا من الأتصال برضيوي، فأكد لي ان العطوة تجري بواسطة الشيخ أو أي شخص آخر بدون الحاجة الى وجود الكليط.

أعرت عمارة مسدس ونصحته بأقتناء كلب مراقبة، وتغيير مكانه بالبيت كل ليلة. ولديه أيضاً السلاح 275. الذي أعطيته إياه قبل سنتين مع كمية من العتاد. وحديثاً كان قد إشترى لرشك بندقية، كانت جيدة رغم قدمها. وعندما ذهبنا للمنام قال ثكب " سأبقى لأراقب أنا رجل عجوز وأحتاج الى القليل من النوم. وبأمكاني الراحة خلال النهار " فصاح رشك ضاحكاً " صد لنا ذئباً ياصاحب وإعطنا إحدى عينيه، وسنخيطها على عرقجين،* وكل من يلبسه لا ينام "

لم نخاطر تلك الليلة، نمت أرضاً بين الشابين حسن وعمارة. انا وعمارة وضعنا بنادقنا المعبأة، جانبا. أبوهم العجوز جلس في مدخل الباب وبندقية رشك على ركبتيه. وفي نهاية الغرفة جلست مطارة تغني لنفسها وتتلهى ببعض الاشغال. كان الطفل الأصغر مشاكساً، وحملته أمه ناكة وأخذت ترضعه قرب النار. ومن مكاني كنت أرى الجواميس المقيدة، قطيع كبير جدير بالتقدير، وهي تأكل تحت ضوء القمر النباتات المبرعمة التي قطعها جليب وجلبها من الهور. ضغط حسن على يدي إشارة الى أنه سعيد لعودتي، وقبل ذلك كان قد جلب لي حقيبته المدرسية التي أعطيتها له ليريني كتبه. حتى الآن كان كل شئ يجري جيداً لعائلة عمارة. بذر رشك في الأرض أكثر من السابق، وجنى في العام الماضي محصولاً جيداً بالرغم من نقص الماء. الآن، وبدون خطأ منهم، هناك رجل ببندقية معبأة قد يتسلل خلال الظلال بالخارج منتظراً فرصته، مالم أتمكن من تدبير العطوة، سيكون التجرؤ بالنوم صعباً عليهم. وحتى هذه الليلة كان عمارة يدير راسه كلما سمع كلباً يعوي في القرية.

* غطاء رأس بسيط يستعمل عند غالب المسلمين- المترجم



سنتي الأخيرة في الأهوار

الفصل الخامس والعشرون

سنتي الاخيره في الأهوار

في بكرة الصباح التالي ذهبت الى مجيد في بيته المبني حديثاً في المجر. فارسلني بسيارة مع ممثله الشخصي ورسالة الى أحد الشيوخ الذي خيم رضيوي في أرضه، قرب قلعة صالح. طلبت من الشيخ ان يضمن لي سنة من الهدنة لثكب وعائلته، فقال " أن رضيوي رجل متوحش وهو الان حزين وغاضب. لاأعتقد أنه سيوافق على عطوة أصلاً. وهو سيرفض حتماً اذا شملت بداي "

- " على بداي ان يسهر على نفسه، وامره لا يعنيني، أنا أريد عطوة لعائلة ثكب"

- " سأفعل مابوسعي، لكني لاأعتقد أننا سننجح. أبق هنا في المضيف، وسأذهب مع وكيل مجيد الى هناك " ارسلت سبيتي معهم ليمثلني. ولم يعودوا لساعات حتى بدأت أخشى ان يكونوا قد فشلوا. ولم يكن الرجل عامل القهوه مشجعاً فقد قال " سوف لن يقبل رضيوي بأي عطوة. لقد أقسم ان الدم بديل الدم. والله لاخير في تلك العائلة " ولكن أخيراً عادوا مع أخبار بأنه بعد الحاح شديد نجحوا في إقناعه بمنح هدنة لستة أشهر لعمارة وأبيه وعائلته، وهو شيء لم اكن آمله أبداً.

بعد ثلاثة أشهر، في أيلول 1956، توقفت لاسبوعين في الأهوار بطريق عودتي من نورستان، وبقيت بضعة أيام في الرفيعة. كان عمارة قد تزوج اخت سبيتي ولكنه لايزال يعيش مع والديه كما هي العادة. زوجته فتاة رشيقة دمثه ذات عينين واسعتين سوداوتين، وسرعان ما حببت نفسها لعائلته، وكانت هي ومطارة لا تتفارقان. قال ثكب العجوز لي بينما كانت تذهب الى المجرى لجلب الماء "الحمد

الله، نال ولدي زوجه صالحة. ولولا مساعدتكم لكان بقي فقيراً لسنوات عديده حتى يتزوج. أود أن أشكرك لما فعلته لنا " .

لم اكن حراً للعودة الى العراق ثانية حتى بداية عام 1958 . وعندما اكون طائراً، كنت أرى الأهوار أسفلي، وأتطلع متلهفاً للأشهر الستة القادمة. إستقبلني عمارة وسبيتي بمطار البصرة، وأسرعا نحوي يعانقاني حالما إنتهيت من الكمارك. سألت عن عائلتيهما واصدقائي الآخرين، وعن كل إستفسار يعطياني الجواب المعتاد " يرسل لك تحياته ". بدا لي سبيتي ، الذي تزوج هو الآخر، أنه لم يتغير، ولكني شعرت حالاً أن عمارة قد أختلف شيئاً. فقد أصبح اكثر بلوغاً ومتحفظاً بغرابة.

وما أن وصلنا الى القنصلية، حتى إنتحى بي سبيتي جانباً وأخبرني ان والد وزوجة عمارة قد ماتا. وحالاً سألته عما إذا كان رضيوي قد قتل ثكب، إلا أن سبيتي رد أنه توفي في الصيف الماضي من مرض في معدته بعد وهن طويل والام شديدة. ومما قاله عمارة بعدئذ، أصبح لدي شك قليل بأنه سرطان " لو كنت معنا، صاحب، كنت أعطيته بعض الدواء لأيقاف الالم. لم يكن بيدي حيله، وهو أبي ". وبعد إسبوعين من وفاة ثكب، ذهبت زوجة عمارة الى ذويها لتلد عندهم، حسب ما هو متعارف عليه. وماتت بعد دقائق من ولادتها. اما الطفل، وكان صبياً، فقد كان حياً، إلا أنه عليل. وأخبرني عمارة ان أمه، التي لديها هي أيضاً طفل كان قد ولد قبل سنتين، تقوم برضاعة ولده أيضاً " إلا أن مابقي لديها من حليب قليل، وان كل الجواميس لديهم لا تحلب في الوقت الحاضر. "

استشرنا عدة أشخاص في البصرة، إشترينا فاريكس وأطعمة أطفال آخرى لأخذها معنا، ولكن عندما وصلنا الرفيعه وجدنا بعض الصعوبة في أقناع ناكه لاستعمالها. " ربما تكون نافعة لأطفال الشيخ، أما الغذاء النافع والملائم لاطفالنا فهو عجين الرز، واذا لايوجد حليب فالماء مع قليل من الطين من النهر ". جندنا مساعدة مطارة وتفرغت للطفل وشرعت في تغذيته حسب ما أرشدناها. وبالتأكيد إزداد وزنه نتيجة للغذاء الجديد. عندما شاهدته لاول مرة كان بنصف وزنه من

الجوع. وفي مرة سبب لنا خوفاً. كنا بعيدين عنهم لشهرين في طرادتنا وعدنا لنجده يشكو من إسهال شديد وتقيؤ. كان عمارة متأكداً انه يموت، ولكني اعطيته حقنة بنسلين، وفي الصباح كان جيداً.

التحق بنا حسن في بومجيفات، مصطحباً معه إبن عمه جثير ليحل محل ياسين الذي قرر البقاء مع عائلته. زرنا ثانية كل القرى تقريباً، وكنت حيثما أتحرك أجد الناس سعداء للقاءهم بي ثانية. كثير منهم قال " لقد فكرنا أن طبيبنا قد تركنا وذهب ليعيش في وطنه. الله يحفظك، صاحب فالآن أنت معنا ثانية، وسنكون بخير ". وشعرت بمكافأة كبيرة عن كل السخط والأحباط والسأم الذي كثيراً ما سببوه لي، ربما كان موظفوا الحكومة لايزالون يظنون بي جاسوساً رغم انه يصعب التفكير عن ماهية الاسرار العسكرية التي يمكن إكتشافها في الأهوار*، لكن القرويين الذين جاءوا معولين على بثقة، يعلمون أنني موجود هناك بكل بساطة لأمتاع نفسي، وأساعدهم اذا قدرت.

كان الثأر لايزال يهدد. وحُذرت عدة مرات بأن رضيوي تخلى عن محاولة قتل بداي، ومعني بقتل عمارة بدلاً عنه. كانت مجموعتنا مسلحة بشكل جيد، وصارت لنا سمعة مرعبة كماهرين في الرمي عند رضيوي وعائلته، واننا نحاول قتله اذا كنا معاً. ولكني أخشى ما قد يحدث عند تركي لهم. كان بداي في مأمن عند الفرطوس في الغرب. وسيشخص رضيوي بينهم حالاً كغريب اذا ذهب لهناك، ولكن في الرفيعة التي تبعد ساعة او ساعتين عن مخيم رضيوي، يكون عمارة معرضاً جداً للهجوم، وكان مقتنعاً بأن رضيوي سيضرب إن عاجلاً أم آجلاً. إقترحت ان ينتقل عمارة الى الصيكل، ولكنه وكما توقعت، رفض " لن أنجر الى الاختباء، واذا كان بداي يفضل الاضطجاع عند الفرطوس، فهذا شأنه. أنا باقي هنا، حيث أصدقائي وحيث لرشك أرضه. عندي بندقيتي وأعرتني مسدسك. أنا لا

---

* كان والدي قائمقاماً في قضاء سوق الشيوخ عشية ثورة 14 تموز ويذكر ان من أوائل البرقيات التي عممت لهم بعد الثورة وموقعة من وزير الداخلية الجديد المرحوم عبد السلام عارف تطلب القاء القبض على الجاسوس الانكليزي ولفريد ثيسيجر اذا كان موجوداً- المترجم

أريد المشاكل، عائلة ثكب تريد أن تعيش بهدوء، ولكن اذا جاء رضيوي للبحث عني فساقتله".

حتى السيد سروط عرض نفسه للمهانة عندما ذهب الى رضيوي ليسأله قبول المال عن الثأر، دون جدوى، حتى أنه غضب عليه وضربه بعصاه. لذا فقد قررت أن أجد رضيوي بنفسي وأخبره لأعطاء عمارة وأخوته هدنة أخرى. وهذه المرة لسنة، وهي الفترة التي سأعود بعدها لهم. المشكلة كانت في تحديد مكان رضيوي.

ذهبنا مرتين للبحث عنه، وفي كل مرة كانت معلوماتنا خاطئة. وأخيراً في نهاية مايس، سمعنا أنه قرب العزير في أرض لشيخ من البو محمد إسمه: شنته. وصلنا هناك عند العصر ووجدنا شنته في مضيفه، وهو كهل. وبعد الشكليات الاعتيادية من المقابلة قلت " لقد جئت لأخذ عطوة لعمارة من رضيوي. أريد ان تجلبه الان الى هذا المضيف " أجاب شنته متظاهراً بالجهل " أين هو ؟ " قلت " هناك، في تلك البيوت التي على حافة اليابسة " قال شنته لاحد رجاله " إذهب الى رضيوي وقل له أنني أريده. إجلبه معك "

وانتظرنا على الحشيش في الخارج تحت ظل المضيف، فالجو كان حاراً جداً. وبعد نصف ساعة جاء الرسول وحده وقال " رفض رضيوي المجئ ". نظرت الى شنته، فهز كتفيه قائلاً " وماذا علي أن أفعل اذا لا يريد المجئ ؟ غداً سآمره بترك أرضي. " كان واضحاً جداً أن لا رغبة عنده لمساعدتنا. قلت بغضب:

- " وماذا يفيدني ذلك ؟ سبيتي، حسن، جثير، هيا سنذهب ونجلبه نحن " ثم حملت بندقيتي. نهض شنته بسرعة على قدميه قائلاً " صاحب لا تذهب، رضيوي رجل سئ "

-" اذا لم تجلبه انت الى هنا فعلت انا ذلك "

-" كلا، أنا و أبني سنذهب، ابق وجماعتك هنا "

ذهب شنته مع حشد من جماعته الى البيوت البعيدة. مرت ساعة، وأخرى، وبدا الامر متأخراً، وأخيراً شاهدناهم عائدين. وعندما صاروا قريبين قال عمارة بهدوء " رضيوي وابنه معهم ".

نهضنا وتبادلنا التحيات. جلس رضيوي وجماعته قبالتنا. كان رجلاً هزيلاً، أعجفاً، بخصلة شعر كلحية وعينين متحجرتين. وابنه حسن في حوالي العشرين غليظاً، فظاً. وكان معهما ثمانية آخرون من الفريجات. وجميعهم لم يكونوا مسلحين إلا بخناجرهم، ولكني لم أخاطر فوضعت بندقيتي على الحصيرة جنبي. بدأ شنته الحديث " صاحب، هذا رضيوي. لقد جاء لأنه سمع انك تريد محادثته " قلت " أريد عطوة لمدة سنتين لعمارة وأخوته. أما أمر بداي فلا يعنيني "

اجاب رضيوي بصراحة " أبداً. لن أعطي أي عطوة أكثر " كررت وانا لا أترك عيني عنه " لسنتين " رد " أبداً ". نظر كل منا الى الآخر بصمت ولم يتكلم أحد. وبعد فترة تحدث سبيتي " نحن نطلب عطوة لعائلة ثكب فقط "

- أبداً، ولا لأي احد، الان أو مستقبلاً " ومرة أخرى سادنا الصمت. كان عمارة بجنبي تتلاعب أصابعه بسبحة. مر رتل من الجاموس مسرعاً، عائداً من الهور. الشمس تغيب والسماء بلون يشتعل. البعوض يئز حولنا.

كرر رضيوي " أبداً "

إنحنيت الى الامام قائلاً " إسمع رضيوي، وإسمع جيداً. أما ان تمنح عطوة الآن، أو أذهب انا غداً صباحاً للحكومة. أنت مطلوب بتهمتي قتل. واذا قبض عليك ستبقى طوال حياتك بالسجن، وحسن ابنك شارك في الجريمة الاخيرة وسيقبض عليه أيضاً ".

توقفت قليلاً، وإستمريت " سأقدم مكافأة مالية مائة دينار للقبض عليك. كل رجل شرطة، وكثير من الناس الآخرين سيبحثون عنك. إعمل فكرك، فوالله يارضيوي أنا أعني ما أقول. أقسم بحياتي. وأيضاً، اذا قتلت عمارة وانا بعيد، فتأكد تماماً بأنك ستقتل مهما كلفني الأمر ".

ثم استعدت جلستي وأرحت ظهري. بعد لحظات قال لرضيوي أحد الفريجات وله لحية رمادية كان قد جاء معه " تعال، لنذهب جانباً وندرس الأمر "

وانسحبوا جميعاً لمائة ياردة وجلسوا. كنت أسمع همهمتهم، ثم إرتفع صوت رضيوي البذئ الحاد بغضب. حل الظلام، وجلب خادم مصباحاً. طلب منه شنته جلب القهوة. بعد ساعة أخرى عاد الفريجات إلينا، وتكلم ذو اللحية الرمادية قائلاً: " رضيوي رجل طيب. وافق هو وابنه على منح بيت ثكب عطوة لسنة واحدة، فليس من العادة أعطاء عطوة لفترة أطول. أما عن بداي فان رضيوي سوف لن يمنحه عطوة الآن او مستقبلاً "

حثني شنته قائلاً " خذها صاحب. في الحقيقة ليس هناك عادة عشائرية بمنح عطوة اكثر من سنة، وعندما ينتهي الوقت، بأمكانك تجديدها. خذها صاحب "

قلت " من سيضمنها ؟ أريد أربعة رجال من عدة عشائر "

قال شنته " أنا سأدبر الأمر "

إستشرت الآخرين وقلت " حسناً، قبلنا " وعندما تمت الشكليات، غادرنا الفريجات وأرسل شنته على العشاء.

وكنت على وشك المغادرة الى لندن، فلا زال علي ستة أشهر من العمل في كتابي، قبل أن أكون حراً في العودة. ولكني لم أكن أعلم أنني سوف لن أرى عمارة ثانية.

عمارة وسبيتي شيعاني الى البصرة. غادرت طائرتي عند منتصف الليل. وانتظرناها قبل ذلك في فندق المطار. على الحائط أمامي كان ملصقاً إعلانياً ممزقاً يصور شاباً نشطاً تقدم إليه مضيّفة طيران بملابس غير مألوفة، وجبة طعام، وكتب تحتها " شاهد العالم من بين مساند مقعدك ". حطت الطائرة. وحتى يعاد ملئها بالوقود، شاهدت حشداً من المسافرين المرهقين السأمين، يدخلون ويجلسون باستسلام. قدم لهم نادل كوكاكولا. كانوا قد غادروا ذلك الصباح او الليلة

السابقة بانكوك أو سدني، * والآن سألتحق بهم، وخلال ثماني ساعات قد اكون في لندن، وهو وقت يكفي للترحال من كباب الى القرنة مع وجبة غداء مع البو بخيت في الطريق.

ارتفع صوت مذيع المطار، كان بأمكاني أن أميز كلمات مفردة " مسافرون.. بي او آي سي .. رحلة رقم .. روما ..لندن .. جوازات .. سيطرة جوازات ". كان هناك جلبة ونشاط، نهضت وجمعت حاجاتي وقلت لمرافقيّ " علي ان أذهب الآن ". ودعني عمارة وسبيتي بالقبلات، وقال عمارة " عد إلينا على وجه السرعة "

- " العام القادم ان شاء الله " .. أجبت والتحقت بالصف.

بعد ثلاثة أسابيع، كنت أشرب الشاي مع أصدقاء في أيرلندا. دخل أحدهم الغرفة قائلاً " هل سمعتهم اخبار الساعة الرابعة ؟ لقد حدثت ثورة في بغداد، وقد قتلت العائلة الملكية، الغوغاء أحرقت السفارة البريطانية ".

وتأكدت عندئذٍ أنه سوف لن يسمح لي بالعودة ثانية، وأن فصلاً آخراً من حياتي قد أغلق.

إنتهى

---

* كان مطار البصرة قبل عصر الطيران النفاث يعتبر أهم من مطار بغداد ونقطة مرور بين اوربا وجنوب شرق اسيا- المترجم

عن المؤلف والكتاب

ولد ولفريد ثيسيجر في أديس أبابا عام 1910 ودرس في إيتون واكسفورد حيث نال الوسام الأزرق في الملاكمة. التحق عام 1935 بالسلك السياسي السوداني وعند إندلاع الحرب أعير الى قوة الدفاع السودانية. وأخيراً خدم في الحبشة وسوريا مع الـ S.A.S في الصحراء الغربية ومنح D.S.O ومنذ الحرب تجول في الجزيرة العربية، كردستان، أهوار العراق، هندوكوش، قره قورم، المغرب، الحبشة، كينيا، وتنجانيقا، دائماً على قدميه أو بواسطة الحيوانات. ولرحلاته، إستلم المدالية الذهبية للمؤسسين من الجمعية الجغرافية الملكية، مدالية لورنس العرب من الجمعية الأسيوية المركزية الملكية، مدالية لفنجستون الذهبية من الجمعية الملكية الجغرافية الاسكتلندية، ومدالية بورتون التذكارية من الجمعية الأسيوية الملكية. وهو زميل في الجمعية الملكية للأداب، ومنح الـ C.B.E عام 1968 ووسام النجمة من الدرجة الثالثة في الحبشة.

كتب السيرجون غلب في جريدة التايمز " ان ولفريد ثيسيجر هو آخر، وبالتأكيد أول العظام من الأنكليز الذين تجولوا بين العرب ". وفي كتابيه العظيمين، رمال عربية، وعرب الأهوار، يعطي وصفاً مفحماً لأسلوب حياة إستمرت، حتى لفترات حديثة، لآلاف السنين. يصف في رمال عربية رحلاته خلال (الربع الخالي) لجزيرة العرب، تلك الصحراء الواسعة الخالية من الماء، والتي أعتبرها ثيسيجر أصعب رحلاته جسدياً. هذا الكتاب، الذي دعته التايمز (الطراز الاول من كتب الرحلات) نال جائزة دبليو. آتش. هاينمان، حيث سجل سنواته مع الناس في الأهوار بجنوب العراق. وفيه كتب ثيسيجر " ذكرياتي عن زيارتي الاولى للأهوار لم تتركني ابداً. ضوء نار على وجه نصف ملتفت، صراخ الأوز، طيران البط للبحث عن الغذاء، صوت غناء طفل في مكان ما في الظلام، زوارق تتحرك في موكب مع مجرى الماء، غروب الشمس يرى بلون قرمزي من خلال دخان مناطق

القصب المحترقة، هدوء العالم الذي لم ير ماكنة.. ومرة اخرى قاسيت من الرغبة في المشاركة بهذه الحياة، أكثر من أن أكون مشاهداً لها."

آخر كتاب له: (صحراء- هوروجبل: العالم غير المتمدن) (1979)